منابع الحضارة الإسلامية

١

الصلاة

مدرسة الوعي الحضاري

(إن الله اشترى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة)
قرآن كريم

« إن هذا الأمر لا يصلح آخره ، إلا بما صلح به أوله »
الإمام أبو بكر الصديق

تأليف
عبد القادر أحمد عطا

الناشر
مكتبة القاهرة
لصاحبها، علي يوسف سليمان
شارع الصنادقية . بميدان الأزهر بمصر

دار الطباعة المحمدية بالأزهر بالقاهرة

إهداء

إلى قادة الأمم الإسلامية فى كل مكان

إلى قواد الجيوش الإسلامية

إلى كل من له بصيرة نافذة وروح متحركة

إلى وعاظ المسلمين وخطباء مساجدهم

إلى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد النبى الأمى الأمين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه أجمعين .

مما لا شك فيه أن العالم الإسلامى يجتاز الآن مرحلة من مراحل المد الحضارى الجديد فى التاريخ ، قد خفيت أصوله الحقيقية ، وأهدافه البعيدة على العامة ، وعلى كثير من الخاصة ، بطريقة تجعل من اليسير علينا أن نقرر أن هذا الخفاء من صنع جماعات من الأذكياء المعادين للإسلام ، منذ عصور التمزق الفكرى فى تاريخ المسلمين ، أو بعبارة أوضح ، منذ الامتيازات التى نالها اليهود فى عهد الأمويين كما يروى المقدسى فى «مثير الغرام» .

وتلك المرحلة التى يجتازها المسلمون الآن ، ماهى إلا تفاعل طبيعى بين طرفى الإنسان المسلم ، أى بين نفسه وروحه ، ولكن هذا التفاعل ينقصه الفهم الدقيق الصحيح للمعادلة التى تؤدى نتائج لاتخطىء ولا تنحرف بهذا الصعود الحضارى المنتظر .

ولا يمكن أن يتحقق هذا الفهم الصحيح لهذه المعادلة إلا إذا تفهمنا مافى القرآن والسنة من أصول القانون الحضارى الذى يرث بمقتضاه المؤمنون الأرض وما عليها ، وينعمون بالنصر والعزة والمنعة التى تشمل حياتهم السياسية والمادية والعسكرية على السواء .

لم يكن القرآن الكريم كتابا مخطوطا وزع على المسلمين ، كما تصدر

الدساتير الحديثة ، ورغم أنه مسطور منذ الأزل ، ومفهوم من مفاهيم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه كان دستورا يواكب تطور الجماعة الإسلامية من الناحية العسكرية والسياسية والاقتصادية ، والروحية قبل كل شيء ، مثله فى ذلك مثل الأوامر العسكرية التى تصدر إلى الجنود فى معركة من المعارك مساوقة لطبيعة أرض المعركة ، ونوع السلاح ، والحالة المعنوية والمادية للدولة والمحاربين .

وهكذا كان الله تعالى يمد المسلمين بقوانين الحضارة التى رسمها لهم فى القرآن الكريم ، والتى كان عمادها الإيمان والإصلاح والسيف ، حسب تطورهم على سلم القوة والاقتصاد ، وإتقان العمل بالقوانين السابقة وفهم روحها ، حتى لايختلط الرأى عند صدور تعديل فى قانون المعركة ، أو كما تختلط الآراء فى فهم الدساتير التى تصدر جملة واحدة .

ولذلك كان لابد من دراسة القرآن الكريم بعد ترتيب آياته حسب تواريخ النزول ، وتبويب تلك الآيات مرتبة ، حتى يسهل التمييز بين القوانين الثابتة والمتغيرة ، أى بين المحكم والمنسوخ ، وحتى لانقول إن الدعوة باللين لا زالت قائمة ، مع قوله تعالى : (واقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وحتى يميز بين مفهوم قوله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك) وقوله : (ادع إلى ربك) .

وإذا حاولنا محاولة عامة لهذا الموضوع الخطير ، كان علينا ألا نلجأ إلى أقوال المفسرين النحويين والصرفيين والبلاغيين إلا بالقدر الذى تتطلبه دراسة مقاييس التوازن بين النفس والروح فى داخل الإنسان المسلم ، والذى يؤكد القرآن كله فى وجوب تأصيله ووعيه لدى المسلمين جميعا ، حتى نستطيع أن ندرك أن العصر الذى قال فيه الشاعر البحترى فى وصف الربيع :

أحل فأبدى للعيون بشاشة — وكان قذى للعين إذا كان محرما

كان عصر اختلال فى التوازن النفسى والروحى فى عصر العباسيين ، ومن ثم فهو عصر انحدار من قمة الحضارة ، رغم مايقرره أساتذة التاريخ والأدب العربى ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه فى كل عصر ، وفى كل مكان .

وعلينا كذلك أن نفسر القرآن بعضه ببعض ، لأنه بمجموعه الوثيقة الأمينة التى لا يتطرق إليها الشك ، لاسيما وأنه أنحى باللائمة على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين،أى أجزاء يأخذون منها مايلائم أهواءهم ونحلهم، وهو العلو الذى يدفع إلى التنازع ثم الفشل ثم ذهاب الريح .

الإيمان من القوانين الروحية التى لم تنسخ ، ولم يطرأ عليها تعديل ؛ ولأنه من الأمور التى تخفى على الإنسان ، كان من السهل ادعاؤه ، ولذا عنى القرآن بتحديد علاماته ووسائله عناية يجب أن يفرد لها بحث مستقل ، فقد قرن الإيمان فى أغلب الآيات بإقامة الصلاة فإذا لم يقترن صراحة بإقامة الصلاة فى بعض الآيات ، فإنه كان يقترن بدلائل الإيمان الخفية والظاهرة ، وهى هى بعينها دلائل الصلاة الصحيحة ونتائجها الخفية والظاهرة أيضا .

ولنأخذ لذلك مثلا قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون) وقوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما) لنرى أن الإيمان إن لم يقترن بالصلاة صراحة ، فإنه يقترن بالعلامات الدالة على صدقها وصحتها من الوجهة الروحية فى الآية الأولى ، وهى نفس علامات الإيمان العميق من الوجهة الروحية ، ومن الوجهة السلوكية الاجتماعية فى الآية الثـــانية .

وعلى هذا فالصلاة والإيمـان عمادان رئيسيان من أعمدة الحضارة التى

رسمها الله للمؤمنين ، بعد أن يسلموا ويتخذوا صفة العضوية فى الهيئة الجديدة ، التى أطلق عليها فى القرآن الكريم اسم دستورى ، هو أنها : (خير أمة أخرجت للناس) وكان شعارها المرسوم هو (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) فيما بينها أى فى سياستها الداخلية ، والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس فى سياستها الخارجية ، ومن هنا يسهل على المؤمن المقيم للصلاة جسديا وروحيا أن يسخر من شهواته ، فيقدم على الصوم الذى يخدم قضية الإيمان ، ويسخر من شدة قبضته على المال فيؤتى الزكاة ، ويحج البيت الحرام إن استطاع .

أما القانون العسكرى الذى سارت عليه المعركة بين الإيمان والشرك ، فهو مثل كل قانون عسكرى لابد أن يتطور مع قوة المؤمنين ، ومدى نجاحهم فى التدريب العسكرى ، الذى كان المسجد ميدانه ، والمحراب أستاذه وإفساح الطريق للإيمان ، وتنفية طريق تسرب به إلى الأعماق من أهدافه .

وقد عرضنا للقانون العسكرى وتطوره وناسخه ومنسوخه فى هذا الكتاب ، وانتهينا من بحثنا إلى أن دورة جديدة يدفع إليها المسلمون من دورات حضارتهم لإتمام السيادة الإسلامية ، وتحقيق الخضوع لأمر الله تعالى من بعد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة ، ذلك الخضوع الذى توقف بظهور الدولة الأموية ، فى كثير من بنوده ، حتى قادنا هذا التوقف إلى نزول بطىء ، وحتى بلغ المسلمون مابلغوا من تدهور وتفكك .

ومن السنن الطبيعية أن تتفاعل النفوس بماضيها فى فترات متباعدة ، فتدب فيها الحياة ، وتنفض عن عيونها النوم ، وتسبر أغوار تاريخها الذى حجبت عنه ، وشغلت بقشور أرادها لها أعداؤها ، واستعانوا بغفلتهم واضطراب أمرهم على تزييف القيم التاريخية .

وقد تظهر دلائل الحياة التى دبت فى صورة اختلاف فى الرأى ، ومناصبة للعداوة بين الإخوة الأشقاء ، ولكن هذا الأمر لايفزع أولا ، ولا يهدد الصعود الطبيعى الذى يستعد المسلمون له بعوامل عميقة ترجع إلى الوجدان التاريخى الأصيل ثانيا .

لا يفزع لأن الحياة حركة ، والموت سكون ، والصراع حركة ذات دلالة نفسية عميقة بين المسلمين ، لأن الكل يدعو إلى عزة الإيمان ، والكل يهرع إلى أخيه عند الشدائد مع ما بينهم وبينه من خلاف هو حركة فى الرأى فانحصر الخلاف فى طريق السلوك إلى عزة الإسلام ، لافى أصل المبدأ الذى يكمن فى أعماق أرواح الجميع ، وإن اختفى تحت رين الغفلة ردحا من الزمن فى بعض البيئات الإسلامية ، وأشرق فى قلوب بيئات أخرى .

وفى البيئات التى يتمزق فيها الإيمان ، تستحكم الحرفية استحكاما عجيبا يؤدى نتائج أكثر غرابة وعجبا .

ولكى ندرك خطر الحرفية ، وسيادة اللفظ دون الروح يكفى أن نلقى نظرة على بيئة إسلامية يسودها هذا اللون من الحرفية القاتلة .

فى صحراء نجد وقراها ومـــدنها ، ينتشر « المطاوعة » وقت الأذان للصلاة ، يحشدون الناس إلى المساجد ، وتغلق المتاجر بل والمدارس فى بعض القرى ، ويستقصى الغائبون عن الصلاة فى جلسة مسائية كل ليلة بين أعضاء هيئة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وبين أئمة المساجد ، بعد عرض أسماء المتخلفين على المجتمعين للتأكد من أن أحدهم لم يؤد الصلاة فى أى مسجد من مساجد البلد ، ثم تبدأ محاكمته ، ولكن ذلك فى الوقت نفسه دفع كثيرا من الناس إلى الصلاة بغير وضوء ، بل قبل أن يغتسلوا من الجنابة ، ودون أن يخلعوا أحذيتهم خوفا من العقاب .

وما ذلك إلا لأن قانون الإسلام والكفر مضطرب غاية الاضطراب

لدى رؤساء الهيئة وأعضائها ، فاللحية والسواك ، والقول بتحريم زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبأن فى داخل جهاز استقبال الإذاعة شيطانا وبتحريم الصور ، والنظافة فى بعض البيئات ، هى كل دلائل الإسلام الصحيح بعد إقامة الصلاة على الوجه الذى أشرنا إليه .

وكل من لا يعمل بتلك القواعد فهو كافر دون نزاع ولا قابلية للمناقشة ، فالمصرى والعراقى والسورى وغيرهم كفار يجب أن يقاتلوا ، ويستأصلوا قبل أن يستأصل اليهود من على وجه الأرض ، والأمر الذى لا يمكن تفسيره بأى وجه من الوجوه ، هو أن يكون أهل قرية « العقدة » كفارا فى نظر أهـــل قرية « الزلفى » المجاورة لها ، مع أنهم جميعا من أهل اللحى والسواك وتحريم زيارة الرسول إلى آخر ذلك القانون العجيب ، وهكذا الحال بين « عنيزة » و « بريدة » وبين « المجمعة » و « الفاط » وغيرها من قرى نجد ، وليست هذه المعلومات من نسج الخيال ، وإنما هى ما يراه ويسمعه كل من أقام فى تلك الأصقاع ، ولقد سمعت هذا الحكم بنفسى مواجهة حينما توقفت بنا السيارة التى تقلنا من « بريدة » إلى « المدينة المنورة » أمام قرية تسمى « عقلة الصقور » على بعد أربعمائة كيلو متر من المدينة ، سمعنا الحكم علينا بالكفر من صغار وكبار ، كأنه قضية من قضايا الإسلام تنادى بألا إسلام إلا فى نجد ، ولا رأى إلا لشيوخها ، ومع ذلك رأينا نزعة سلوكية عملية أخرى تعاكس هذا الرأى وتهدمه من أساسه .

فلا بد أن يستضاف هذا الكافر حتى يتم إصلاح السيارة ، ولا بد أن يكون فى الجوار العربى فى هذه الفترة ، ولا بد أن تند بعض العبارات تنادى بأن المسلمين إخوة مهما اختلفت جنسياتهم .

وليس هذا السلوك بدافع الكرم العربى الذى يغمر الكافر والمسلم على السواء ، لأن أحد هؤلاء « الصقوريين » مثلا لا يقبل أن يستضيف

أمريكيا من خدم الملك ـ كما يعتقدون ـ مهما كانت الظروف . وإنما هو نداء من الأعماق وضع أساسه سيد الخلق محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، خفت صوته تحت وطأة الجهل ، وفقدان الوعى والوجدان الدينى للصـــلاة ، فانعدم الوجدان الإيمانى تبعا لذلك ، فاختل ميزان الإيمان والكفر .

وتتخذ هذه الظاهرة شكلا آخر بين محترفى « البلطجة » فى مصر ، يبدو فى السباب الدينى الذى يعتبر فى عرف هذه الطائفة دلالة على البأس وطول الباع فى السلطان والقوة التى رسمها خيال هؤلاء الأغرار ، ومع ذلك فالعجب السابق يملكنا حينما نراقب سلوك هذه الطائفة حيال سباب دينى وافد عليهم من مخالف لهم فى المعتقد .

ونخلص من هذا العرض المختصر إلى أن قبسا يكاد يخبو ، يكمن فى قلب كل مسلم ، ولكن ظلام الحجب شوه إشراقه . فاختل السلوك الإيمانى واختل تبعا لذلك الإيمان نفسه ، وخضعت الأعمال الدينية لمبدأ الحرفية اللفظية ، واختفت إشراقة الروح ، واستحالت إلى ذلك القبس الذى يكاد يخبو .

والمقارنة التاريخية على هذا الأساس توقفنا بما لا يدع مجال لمجادل على الفرق بين الحالين : حال السلوك الإيمانى الوجدانى وما أثمره من حضارة رائعة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم حتى عهد الأمويين ، وحال السلوك الحرفى وما تبعه من تدهور منذ عهد الأمويين إلى أوائل القرن العشرين ، وبالتالى تدفعنا إلى وجوب العمل للبعث الوجدانى للدين كله ، ولأركان حضارته بوجه خاص ، وهو الأمر الذى اعتزمنا بحول الله وقوته محاولته فى سلسلة تبدأ بهذا الكتاب .

لقد ظهرت كتب تربط الإسلام بالعلم الحديث ، استدل فيها مؤلفوها

على إعجاز الإسلام والقرآن ، بأن النظريات التى تكتشف فى العلم الحديث قد قررها القرآن قبل أن يكتشفها العلماء ، وشجعوا المسلمين على إحياء شعائر الدين لما فيها من فوائد صحية واقتصادية ، إلى غـــير ذلك من البحوث التى تناولت قوانين الإسلام وأركانه مجموعة فى مثل هذا الاتجاه .

ونحن ـ وإن كنا نقدر مثل هذا المجهود ـ لا نرى المضى فيه ، ولا التعويل عليه ، كأساس من أسس الإعجاز القرآنى والقانونى فى الإسلام ، لأن النظريات العلمية كما هو مشهود ينسخ بعضها بعضا ، وتتعرض للتعديل ، وتخضع لقانون الخطأ والصواب ، وليس القرآن الكريم كذلك ، ولأن بناء الوعى الوجدانى لأركان الشريعة على أساس المنفعة المادية لا يقدم ولا يؤخر فى قضية الوجدان الذى نرى بعثه كشرط أساسى لنجاح المسلمين فى بناء حضارتهم .

ولم يظهر كتاب باللغة العربية يستقل بالصلاة ، ومحاولة بعث الروح الوجدانى فيها والكشف عما فيها من أسس الحضارة الإسلامية إلى الآن ، وإن كان سيدى محيى الدين بن عربى قد كتب كتابه « تنزل الأملاك » فى بعث أسرار الصلاة الروحانية ، إلا أن لغة سيدى محيى الدين ، والمعين الذى يستقى منه يعز فهمه على كثير من العقول الكبرى فى العالم ، لأنه كان يكتب لكبار الذائقين من رواد الوعى الروحى ليدفعهم إلى مناطق أعلى من مناطق المعرفة ، فقل الناظرون فى هذا الكتاب العجيب لهذا السبب .

وظهرت كتب بلغات أخرى اتجهت إلى الصلاة من ناحية أنها قمـــة العلاج النفسى للمشاكل الخاصة ، بل والحل العلمى للمشاكل العامة ، وهو اتجاه جيد إلا أنه لا يعبر عن وجهة النظر التى نريد بعثها لأول مرة بين قراء العربية من المسلمين ، إنه جزء من الاتجاه الذى نريده ، ولكن الاقتصار عليه ينقل الإنسان المسلم من جهالة عمياء ، إلى مادية مضطربة ، لا توازرها الروحانية التى تحتفظ بتوازن القوى فى داخل الفرد والمجتمع .

إنه اتجاه كان يكفى فيه مقال ، ولا يحتاج إلى كتاب ، لأن الصلاة تدريب على النسيان ، أى نسيان الحياة بمشاكلها العامة والخاصة ، وهو طريق من طرق العلاج النفسى الناجحة ، وتدريب على تشويش الخواطر الأليمة فى داخل النفس بالتوجه الكلى نحو خواطر أسمى ، تلحقنا بعـــالم الروح الهادىء الرزين ، ولا شك حينئذ فى زوال الآلام النفسية بالمثابرة على هذا التدريب العظيم ، وذلك أمر لايحتـاج إلى كتاب مستقل ، لأن المصلى لابد أن يجنى تلك الثمار بلا كتاب .

إن ظهور مؤلفات تفسر الظواهر الدينية تفسيرا ماديا بحتا ، ماهو إلا محاولات لصرف الأنظار عن العمل على إعداد المسلم إعدادا روحيا متكاملا ، ليتخذ مكانه فى قمة حضارة رسمها القرآن الكريم ، ليكون « الدين كله لله » ، وينعم المسلمون بالنصر العزيز ، وميراث الأرض .

لقد أحكمت الخطة لصرف المسلمين عن دراسة القرآن الكريم دراسة حضارية ، وكانت نتيجة ذلك كله أن استحكمت النظرة المادية فى تاريخ الإسلام نفسه ، وصرنا نقرأ ونعلم طلابنا أن حضارة الإسلام قد امتدت حتى عصر الأمويين والعباسيين ، وكأن تحويل الحج من الكعبة إلى قبة الصخرة ، وهتك قداسة الكعبة والحرم فى عهد الأمويين ، ومجالس العبث الرسمية ، وأشعار أبى نواس وإلحاديات غيره هى مقاييس الحضارة لدى هؤلاء المفكرين !!!

أما أن نعلم أولادنا وطلابنا أن حضارة الإسلام قد بدأت فى الهبوط منذ عهد الأمويين . بسبب هبوط الوعى الوجدانى الروحى الذى يعتبر المثابة الأولى لبناء الحضارة الإسلامية كما رسمها القرآن ، فلا نكاد نجد له ظلا فى مدارسنا وجامعاتنا ، ولا فى أدمغة كتابنا وباحثينا ، اللهم إلا مانجده مبعثرا فى مراجع التصوف الإسلامى ، التى اضطهدت هى الأخرى فى بلادها بينما اتخذت مكانها اللائق بها فى بلاد أعداء الإسلام .

إن الصلاة فى الواقع هى الجامعة الكبرى التى يتلقى فيها المؤمنون دروس الوعى الروحى الأصيل الذى قامت على أساسه الحضارة الكبرى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد خلفائه الراشدين ، فدانت لهم الأرض ، وعلت كلمة الله ، وهى الحصن المنيع لبناة الحضارة فى كل عصر من الانحراف وفقدان التوازن الذى يتبعه بلا شـــك تدهور وانحدار فى داخل الفرد ثم فى داخل المجتمع ، ثم فى بناء الحضارة نفسه ، حيث تستحيل إلى مادية يصفق لها من اتخذ إلهه هواه ، وتعمى البصائر عن القيم العليا التى يموج بها الإسلام ، والتى أعدت للمؤمنين ليكونوا على أساسها سادة الأرض كما كان السلف الكريم من الرواد الأوائل .

لقد اتجه المهندس العبقرى الجزائرى « مالك بن بنى » نحو البحث عن أصول الحضارة الروحية للإسلام ، ونجح نجاحا عظيما فى إبراز الفكرة ، ولكنه احتفل بالمصطلحات المنهجية أكثر مما تستحق الدراسة الإسلامية البحتة ، وجانب الصواب فى نظرته إلى « الوهابية » على أنها بعث حضارى أصيل ، ومع ذلك فإنى أشيد بعمله المجيد ، وأدعو القراء إلى استيعاب كتبه فى هذا الباب (١) .

وللدلالة على أصالة الرأى الذى ندعو إليه ، نريد أن نستعرض آيات من القرآن الكريم ، تمثل أخطر مشكلة يواجهها المسلمون فى العصر الحديث ألا وهى مشكلة : « الخطر اليهودى » على بلاد الإسـلام ، دون أن نتقيد بحرفية المفسرين الذين لم يعنوا كثيراً بهذه الناحية .

يقول الله تعالى عن اليهود فى أول سورة الإسراء : (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيراً ،

---

(١) « وجهة العالم الإســلامى » و « شروط النهضة » ترجمة عبد الصبور شاهين ، نشر دار العروبة .

فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولا . ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) .

فهل بلغ اليهود فى تاريخهم من كثرة الأموال ، وتحكمها فى كبريات الأمم ، حتى كانت هذه الأمم الكبرى هى النفير الكثير الذى يؤازر مطامع اليهود فى العالم ، ما بلغوه فى هذا العصر الذى احتلوا فيه دولة إسلامية كاملة ، ويستعدون للعدوان على غيرها ؟ وهل كان لليهود نفير من الأمم ينطبق عليه وصف الكتاب المقدس فى نفس الموضوع ، بأنه شعب أحمر مقصوص الشعر مستديره ، وهل هذا الشعب الأحمر المقصوص الشعر قصا مستديراً غير الشعب السكسونى المتمثل فى أمريكا وانجلترا فى العصر الحديث ؟!! وهل بلغوا من العلو الكبير فى التاريخ ما بلغوه الآن من تسخير مصانع الأسلحة فى كبريات الدول لخدمة أهدافهم ؟ !! أعتقد أن هذه الكرة - والله أعلم - تنطبق انطباقا كاملا على قضية اليهود والإسلام فى العصر الحديث .

ثم ماذا ؟

لقد أشار القرآن الكريم إلى النهاية ، كما أشار إليها الكتاب المقدس ، ويتفق الكتابان على دمار ملك اليهود وعودتهم إلى الذلة والمسكنة من جديد ، وحدد القرآن صفات أهل الدين الذى سيتم تدمير ملك إسرائيل على أيديهم فى قوله تعالى : (فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتبيرا) .

من إذن هم الذين وعدوا بأن يسوءوا وجوه اليهود ، ويتبروا ما علوا تتبيرا ؟

إنهم حسب هذا البيان هم (أهل المسجد الذين سيدخلوه كما دخلوه أول

مرة) بشرط أن يكونوا على السلوك الذى كانوا عليه حينما دخلوا المسجد أول مرة ، على يد الخليفة الثانى « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه ، تحقيقا لمادة حربية وردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : (إن تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم) ؛ وما نصر الله الذى يطالب به المؤمنون إلا إعلاء كلمته ، وبعث الروح فى شريعته ، وتفهم أصول السلوك الحضارى فى كتابه .

ولئن كان فتح مكة ودخول المسجد الحرام ، على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتحا مبينا . ونصرا عزيزا ، أمر المسلمون بعده بالتسبيح بحمد الله والاستغفار من الذنب ، فإن دورة أخرى من دورات الفتوح تركها الرسول صلى الله عليه وسلم لمن بعده من المؤمنين وسارت تلك الدورة فى طريقها ، حتى توقفت منذ عهد الأمويين بتوقف السلوك الحضارى كما رسمه القرآن ، واقتضت حكمة العلى الحكيم أن تؤجل تلك الدورة حتى يعود الإسلام غريبا كما بدأ وحتى يعود المسلمون إلى منهجهم الأصيل ، كما كانت جيوش ابن الخطاب رضوان الله تعالى عليه ، فإذا ما بدأ القتال على أيدى هذه الجيوش كما وصفها القرآن الكريم ، لئلا تكون فتنة ، وليكون الدين كله لله فقد جاء موعد الفتح الثانى ، وسيكون دخولهم المسجد كما دخلوه أول مرة فتحا مبينا ، لا يعفى المسلمين من التسبيح بحمد الله واستغفاره من الذنوب لئلا ينحدروا من القمة مرة أخرى .

لذلك نرى أن يبدأ هذا التدريب الروحى من الجيوش الإسلامية فى معسكراتها ، حيث تكون الصلاة فى مكانها من التدريب ، بحيث لا تقل أهمية عن التدريب العسكرى نفسه ، لأنها كما رأينا العدة الأولى لخلق الجيش المماثل لجيش ابن الخطاب ، والذى سيدمر ما علاه اليهود فى فلسطين ، ولقد صدق الله وعده .

يجب أن يكون وعاظ الجيش ، من طرز روحى فريد يستطيع بعث

الروح التى كان عليها الجيش الأول الذى دخل فلسطين من المسلمين بعثا عمليا ، لا بعثا خطابيا مملا .

يجب أن تدرس تلك الحقبة من التاريخ الإســـلامى ، التى دخل فيها المسلمون الأوائل فلسطين لندرك حساسية الخليفة الثانى ضد اليهود ، ويقظته البارعة تجاههم ، حينما أراد أن يرسم محراب المسجد فاستشـار «كعب الأحبار» وكان يهوديا قد اعتنق الإسلام ، فأشار كعب على الخليفة أن يرسم المحراب إلى جهة مقاربة «للصخرة» ، فأخرجه الخليفة من المسجد قائلا : «لقد ضاهيت اليهودية يا أبا عبد الله» .

وبمثل هذه الحساسية يجب أن نتفقد آثارنا العلمية ، وأهواء علمائنا ، وتراثنا المجيد حتى يتم لنا النصر العزيز بحول الله وقوته .

أخى المسلم : احمل مصلاك أينما رحلت ، ولتـكن بديلة عن الصحيفة والعصا ، ولتـكن زينة حقيبة يدك ، وادخل جامعة الحضارة من طريقها القريب ، واسجد للنجم الخافت فى قلبك ، واقترب من مصدر النور الـكلى ، وسيغمرك النور فى يوم قريب .

نور السموات والأرض ؟

عبد القادر أحمد عطا

حدائق شبرا ، فى : ٥ من ذى القعـدة ١٣٨٤ هـ / ٧ من مارس ١٩٦٥ م

أهمية الصلاة فى الإسلام

لم ترق الصلاة فى شريعة من الشرائع السماوية إلى أوج الكمال كما ارتقت الصلاة فى الإسلام ، ولم يحفل دين سماوى بالصلاة كما حفل بها الإسلام ، ولم تتخذ الصلاة فى دين من الأديان من شرائع الاستعداد لها ، والتفتح لاستقبالها ، وتصحيح النية لمواجهتها ،كما اتخذت الصلاة فى الإسلام من تلك المظاهر المختلفة كالوضوء والسواك وتطهير الثوب والبدن وتجريد المكان من كل مايشغل العين أو الأذن أو الفكر .

ولم تكثر الأوامر التى تؤكد إقامة الصلاة فى كتاب سماوى كما كثرت فى القرآن الكريم ، وكذلك كانت الصلاة فى أحاديث سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم تحتل مكانا من السمو والعناية لم تصل إليه فى كلمات الأنبياء السابقين .

ولم يكن ذلك الفارق الكبير بين الصلاة فى الإسلام وفى غيره من الأديان يشير إلى نقص فى بناء الأديان السابقة من حيث إنها ديانات صدرت عن الله سبحانه وتعالى ، ولكن التدريب التدريجى كان طريقة تربوية انتهجها المولى سبحانه مع عباده .

لقد افترض الله سبحانه وتعالى الصلاة فى الأديان السابقة للإسلام كلها ، ولكنها لم تكن مقيدة بوقت خاص فى بعض الأديان ، ولم تكن كذلك مقيدة بنوع معين من الطهارة فى بعضها ، ولم تتم حركاتها الشاملة فى بعضها الآخر ، وسار التدريب المتدرج حتى استعد الناس للقيام بنوع من الصلاة ، يخلص العبد من كل شىء فى الوجود إلا من قلب متوجه بكليته ، وجسد محدد الاتجاه ، وعقل جائل فيما يقرأ ويدعو ، وروح مندفعة نحو الغيب فى عبودية خالصة ، واستسلام كامل ، وتفتح واع ، واستلهام غافل لمظاهر الوجود كله .

ولم يكن ذلك النوع من الصلاة إلا في ختام الدورة النبوية على يد الخاتم الأعظم سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، ذلك النوع من الصلاة التى لمعت كالحظرة المختلسة ، وانبعثت من الحضرة الصمدانية المقدسة ، ونظرت إليها حضرة النور فوهبتها أسرارها ، وأفاضت عليها الحضرة القيومية أنوارها ، كما يقول الشيخ الأكبر « ابن عربى » فى كتابه « تنزل الأملاك » .

كانت الصلاة فى الإسلام جمعا للكون كله فى الإنسان ، بعد أن كانت جمعا لبعض الكون فى إنسان الأديان السابقة للإسلام .

الصلاة فى الإسلام تجمع للإنسان المصلى روحانية أهل السموات فى الخشوع ، والحضور مع الله تعالى ، كما تجمع له مراتب الحياة الأرضية كلها ، فالمصلى إنسان متميز عن سائر المخلوقات حينما يقوم للقراءة ، وحيوان حينما يكون أفقيا فى ركوعه ، ونبات حينما يكون منكسا فى سجوده .

وقد سايرت الصلاة الإسلامية جميع ألوان الفكر الإنسانى ، فهى كما يراها الشيخ الأكبر ، كانت خمسا لتطابق أصول تركيب الإنسان الخمسة ، النور ، والنار ، والماء ، والتراب . والهواء ، فصلاة الظهر نورية ، والعصر نارية ، والمغرب مائية ، والعشاء ترابية ، والفجر هوائية . فهى كل الكون فى الإنسان ، وتمام للمعرفة والقوة واستعداد الإسهام فى تأسيس قانون الله على وجه الأرض ، ذلك القانون الذى وعد أهله بالنصر العزيز ، والحياة السعيدة ، والتحرر من كل رق يتراءى لهم فى الأرض والنعيم فى رحاب العبودية لله وحده ، وبيع النفس والمال له ، وفى سبيله ، تحقيقا لسيادة كلمة الله ، فكان السيف إلى جانب الصلاة ، منصورا مؤزرا بروح الله لأن المؤمن آنذاك لم يغفل عن الصلاة ، حتى فى مواطن الفزع والخوف ، كما لم يغفل عنها فى المرض ولا فى السفر ولا فى الحضر ، استجابة لله الذى ألزمه بالصلاة قاعدا أو مضجعا أو مستلقيا ، بحركة الرأس أو العين أو القلب .

ولا عقوبة لتارك الصلاة عمدا فى الإسلام إلا القتل ، أما مانع الزكاة فتؤخذ منه قسرا ، والممتنع من الوضوء يجبر عليه ، والممتنع من الحج مع القدرة عليه يترك لله ، يتولى حسابه كما يشاء ، أما الصلاة فهى التشريع الوحيد الذى يعرض المسلم للقتل إذا أنكره ، أو امتنع منه عمدا ، وذلك الإجراء يشير فى صمت إلى أهمية قصوى لهذا التشريع الجليل ، تركت تفاصيله للتجربة التى هى أساس العلم الحق بالقواعد والتطبيق .

لقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الأهمية فى لمحات سريعة ، تتصل تارة بنتائج الصلاة ، كما فى قوله تعالى : (قد أفلح المؤمنون) وتارة أخرى تتصل بالحرص البالغ على تصحيحها ، وتخليصها من كل شوائب الشرك الخفى والظاهر ، كما فى قوله تعالى : (فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون) .

وقد جاءت بعض النتائج الخاصة بالصلاة ، على صورة عملية توحى بالمدى الهائل لعنصر الاستجابة الكامن فى إقامة الصلاة ، ففى المحراب قام زكريا عليه السلام يصلى ، وفى تلك اللحظة التى يسمو فيها المصلى إلى أوج اللامادية المطلقة ، نادته الملائكة تبشره بمولوده « يحيى » عليه السلام ، وفى محراب مريم العذراء تمثل لها الروح بشرا سويا ، يبشرها بكلمة منه اسمه المسيح ، وفى « غار حراء » ، وخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، يمعن فى أوج اللامادية ، ينزل عليه الروح الأمين بالأمر الإلهى الأخير : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم) .

ولهذه الأهمية لإقامة الصلاة إقامة كاملة وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ، أنظار المسلمين إلى الحالة التى يجب أن يكون عليها المسلم وهو يؤدى الصلاة ، من الوجهة النفسية والروحية ، حتى تتحقق له نتائجها كاملة حيث يقول صلوات الله وسلامه عليه : « صلوا صلاة مودع لا يصلى بعدها غيرها » .

ويشير من الوجهة المادية إلى تلك الأهمية بمثال مما يحسه عامة الناس ، فإذا كان بباب أحد الناس نهر يغتسل منه خمس مرات فى اليوم ، فلا يبقى على جسده درن بعد ذلك ، فكذلك المصلى لله خمس مرات فى اليوم تتساقط أوزاره وذنوبه ، كما يسقط الدرن عن جسد المغتسل فى فترات متقاربة .

وإذا كان هناك من لا يطمئن إلا إلى نتائج سريعة لمحو الذنوب والأوزار ، فقد جاءت تلك البشارة نتيجة لعمل آخر من أعمال العبادة يشترك مع الصلاة فى النتيجة ، هو « الاستغفار » : (استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا) .

إن السمو والكمال والاستجابة هى العناصر الثلاثة التى يتم بها قوام الصلاة ، دون نظر إلى تلك المطالب النفسية التى وضعت لتشجيع العامة على إقامة الصلاة ، أولئك الذين شاءت لهم مداركهم ألا تقنع إلا بعاجل من المنفعة ، أو بمحسوس من الأدلة ، أما البحث عن طبيعة الأمور الدينية من مجرى التعقيب على مطالب الحياة ، فهو مسلك غير مستقيم ، لأن هناك إلى جانب تلك التجارب التى تكمن فى باطن النفس ، تجارب أخرى تفرض علينا من خارجنا ، كالروعة التى لا منجاة لنا منها حين نفكر فى الكمال ، وهى مزيج من الخوف والدهشة والإعجاب ، وذلك الشعور وحده هو الذى يتميز بسمات خاصة من سمات التدين العميق الذى تبلور فى الصلاة لدى المسلمين .

وقد حافظ المسلمون الأوائل على تلك الروح التى تسودهم أثناء الصلاة حتى فى غير أوقاتها ، فلقد كانوا يفقهون هدف الصلاة وسرها ، فاستجابوا لقوله تعالى : (والذين هم على صلاتهم دائمون) .

والمراد من الدوام لعامة المسلمين المحافظة على الصلاة فى أوقاتها ، فلا يضيعون صلاة عن موعدها ، لأنهم أهل أشغال وغفلات ، ولم يفطنوا

لسر الحضور مع الله تعالى ، ذلك السر الذى يستحق أن يدوم عليه المؤمن ويتطلع إليه فى الصلاة وفى غيرها من أوقات التأمل .

أما من فطن إلى سر وضع الصلوات فى أوقاتها ، وأسرار حركاتها وأذكارها ، فإنه لايزال يشتاق إلى تلك الأسرار ، ويداوم عليها فى عموم الحالات ، وتنوع التصرفات ، فلا يبرح على صلاته من هذه الوجهة دائما ، ولا يقنع بالمحافظة على الأوقات ، بل يتعدى الوقت إلى سر الوقت ، والحركة إلى سر الحركة ، والذكر إلى سر الذكر ، ثم يغيب فى تلك الروح المتمكنة فى تلوينها ، وفى مراقبة مطلقة يسارع إليها ، فيسارع إليه الله .

فليس الدوام على الصلاة عند المحققين ثباتا على مشهد واحد ، فذلك أمر مستحيل ، لتنوع المشاهدات والتنزلات والحالات بالنسبة لكل وقت وكل حركة ، ولكن فى سر الحضور مع الله تعالى يصح الدوام عندهم ؛ وفى ذلك يقول الشيخ الأكبر رضى الله عنه ، فى « تنزل الأملاك » بأسلوبه الرمزى العجيب : « فقابل الدوام بالدوام ، وزاد على اليقين المنفصل عند أصحاب الليالى والأيام ، فجواد همته فى ميدان الديمومية سائح ، ونون سره فى بحرها سابح » .

ولاختلاف الدوام عند العامة وأهل الاختصاص، جاءت كلمة «الصلاة» فى الآية مفردة ، لتصدق على جنس الحركة فى الوقت المخصوص ، وعلى جنس سر الحركة ، وسر الوقت ، المجموع من اختلاف التنزلات والأحوال ، وهو سر الحضور ؛ ويشير الشيخ الأكبر إلى شىء من تلك الأسرار بأسلوبه الرمزى الذى عرف به :

إذا ما صح للعبد المقام   يصح له الدوام على الصلاة
فنى ديمومة السر المعلى   بشارات الإقامة والثبات
أقامك فى المعارج تبتغيه   لتلحقه رداء المكرمات

ففاجأها بنعت لايسامى ويعلو عن سمات المحدثات
فعانقها وضاجعها قليلا فأرلدها بسر الذاريات
فلما عاينت شخصا سويا تعالى عن لحوق المرسلات
فولت نحو حضرتها وقالت عشقنا الدائمات الملقيات
وقلنا حين قالت ماسمعنا عشقنا الجاريات الحاملات

ويقول رضى الله عنه فى أسلوب أقل رمزية وعمقا من سابقه :

ولما بدا فجر الذى لاح من قلبى دعانى ودادى للحديث مع الرب
فطهرت أثوابى وطهرت بقعتى وطهرت أعضائى وناديت بالحب
حبيبى ترانى عند باب جلالكم فهل لى إليكم من سبيل ومن قرب
تريد جفونى أن ترى نور وجهكم فتشهدكم عينى ويرعاكم قلبى
ترفق بمن أضحى قتيلا بحبكم وبالكلف المشتاق والواله الصب
أتاكم من الكون الغريب لترفعوا بفضلكم عنه مشاهدة الحجب
يناجى الذى فى قلبه من وجودكم بما جاء منكم فى الصحائف والكتب
فمنوا عليه بالوصال فإنه أسير هواء الجو إن كان ذاسحب
فوالله مالى راحة دون وجهكم ومالى شفيع أرتضيه سوى حبى
فأطلع شمس الذات فى القلب فانتفى
وجودى ولم يثبت سوى عالم القرب
فسلمت من تلك الصلاة مقدما على عالم كونى وعدت إلى غيبى

وهكذا ترى المصلى المحقق يخرج من صلاته مودعا عوالم كونه ، ليعود إلى عالم غيبه بعد خروجه من الصلاة ، كما كان فى صلاته ، فأوقاته كلها صلاة وأنفاسه كلها ذكر ، وإن بدا أمام الناس مشتغلا بما أقامه الله فيه من أعمال العمران على وجه الأرض . وفى ذلك يقول ثابت البنانى : « الصلاة خدمة

الله فى أرضـه ، ولو علم الله شيئا أفضل من الصلاة ، لما قال : (فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب) » .

ويقول يونس بن عبيد : «ليس فى هذه الأمة رياء خالص ولا كبر خالص»

فقيل له : لماذا ؟

قال: لا كبر مع السجود .

الصلاة مصدر القوة

الصلاة قوة ، لأنها أول صفات المؤمنين ، ولا ضعف مع الإيمان .

ومصدر القوة فى الصلاة ناشىء من أن الله تعالى بقوته وتوفيقه (مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . وأول علامات المتقين إقامة الصلاة ، (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يقيمون الصلاة) ولا شك فى الفارق العظيم بين القوة التى تستند إلى ذات الإنسان وحده ، وبين القوة التى تكون نازلة على العبـــد من ربه مؤيدة له ، ناصرة له ، هادية له فى ظلمات الحياة .

ولقد كانت تلك القوة من السمات التى ميزت الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه على سائر الناس ، كما نبه القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) وعلل سبحانه ذلك الشعور المزدوج من الشدة على الكافر ، والرحمة بالمؤمن ، تعليلا فى صورة الدلالة والعلامة ، بقوله : (تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) .

وإذا كان ذلك هو مثل محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة هو ومن معه

من المؤمنين الأقوياء الذين استمدوا قوتهم من ركوعهم وسجودهم ، فإن مثل قوتهم فى الإنجيل (كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما) .

الصلاة على هذا مصدر قوة للفرد ، لأنها شعور بالقداسة ، له شأن خاص فى الحياة ، فهو يقيمنا دائما على اتصال بالخفاء الهائل من الروح ، وبالصلاة يسمو الإنسان إلى الله ، ويداخل الله سريرته ، وذلك أمر - كما يظهر لأول وهلة - لاغنى عنه للفرد ، ولا للعالم بأسره .

الصلاة تأمل خالص فى أصل الوجود ، وارتفاع بالروح إلى المقام الإلهى عنوانا على الحب والعبادة للمطلق الذى صدرت عنه أعجوبة الخلق ؛ فإذا ماصدقت تلك الحظوة من الإنسان فى سعيه إلى ربه ، فإنه سبحانه سيصدق وعده لعبده حين قال فى الحديث القدسى : « من تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » وتلك الحظوة الكبرى هى خلاصة الآمال ، ولاأمل سواها لأن الركن الشديد الذى يأوى إليه العبد حينئذ عزيز المنال ، لاتدركه قوة فى الوجود ، ولا تزلزله الزلازل التى تعارف البشر عليها وفزعوا منها ؛ بل إنه - تعالى - خالق الزلازل ومسخرها لتمحيص المؤمنين ، وتخويف ضعاف الإيمان .

لقد رسم الشاعر الإنجليزى «كاربنتر» صورة رائعة لذلك السرور والحبور اللذان يفيضان على من يحس حب الله ، ولتلك القوة العارمة التى يؤيد بها الله من أحبه ، حتى لتتضاءل أمامها أشد العقبات عنفا وقسوة حيث يقول :

إنى أصحو من ندى الليل فأهز جناحى .

لم يعد للنواح والدموع وجود ، والحياة والموت محدودان أمامى .

إنى أشم عبير نسمات الأثير الحلوة تهب من أنفاس الله .

إن حياتى عميقة عمق الوجود ، هذا ما أعرفه أنا معرفة لاينتزعها منى شيء ، لايستطيع شيء لى ضرا ولا أذى .

المرح والسرور يصحوان ، فأصحو أنا .

إن من يعرف الله حق معرفته ، وينعم بحبه ، متفائل أبدا .

إنه يقطع المفاوز وعلى ثغره ابتسامة مشرقة ، وأغنية عذبة ، قوى الإيمـان بالله .

إنه ملىء بالحب ، يفيض منه على الجميع .

ولـكن العارف « أبا سعيد الخراز » يحدثنا عن حب الله والأنس به ، من مجال أعلى من مجال الشاعر « كاربنتر » يتطلع منه إلى مواهب أخرى عزت ، وستظل عزيزة إلا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون . حيث يقول :

« من صفات المستأنس بالله ، أن يكون متبرما بالأهل والخليقة كلهم مستعذبا للخلوة والوحدة ، ويكون فى البيت المظلم متبرما بالمصباح إذا رآه يغلق بابه ، ويسيل ستره ، ويواحد قلبه ، ويألف مليكه فيكون به أنيسا ، وبمناجاته منعما ، وبه متفرغا من طارق يطرقه فينغص عليه خلوته .

ثم تراه مستوحشا من ضوء الشمس ، إذا دخل عليه فى صلاته ، فإذا جنه الليل ، ونامت العيون وهدأت الحركات ، وسكنت حواس الأشياء . خلا عند ذلك بمناجاته ، فهاج شجوه ، وتصاعدت أنفاسه ، وطال أنينه ، ونجز الموعود من مأموله ، وقضى بعض أوطاره .

المستأنس بالله تذهب عنه الوحشة فى المواطن التى يفزع فيها الناس ، فيستوى عنده العمران والخراب والقفار ، والجماعة والوحدة ، ويغلب ماسواه من العوارض الظاهرة والباطنة .

فهذا ظاهر الأنس الذى يمكن أن يذكر ، وما بقى من مقامات الأنس أكثر وأعز من أن يذكر فى كتاب ، إلا أن يجرى منه شىء عند المذاكرة مع أهله » .

وليست تلك القوة العجيبة التى يشعر بها المستأنس بالله عازلة للفرد عن مجتمعه ، معطلة لمصالح العمران ، كما يظن البعض ، وإنما هى قوة تعزل العابد عن الأمل فى الناس ، وفى مظاهر الحياة كلها ، حيث يعمل كما أمره الله ، ويأخذ ما وهبه الله على أيدى العباد ، ويسعد بالقليل ، ويقنع بما لم يقنع به فاقد الأنس بالله والثقة به ، لأنه وجـــد من جمال الأنس ما يغنيه عن كل جمال .

وفى هذا المشهد يقول « الحارث بن أسد المحاسبى » لتلميذه « جنيد بن محمد البغدادى » حينما أمره بالخروج من خلوته إلى الملأ ، فاعترض الجنيد على أستاذه قائلا :

« عزلتى أنسى ، وتخرجنى إلى وحشة الخلق ؟ ! »

قال الحارث : « كم تقول : عزلتى أنسى ! ! والله لو أن نصف الخلق بعدوا عنى ما استوحشت لبعدهم ، ولو أن نصفه الآخر اقتربوا منى ، ما وجدت أنسا لقربهم » .

ومن هذه القوة الروحية الهائلة نستطيع أن ندرك سر اقتران إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة فى الإسلام ، واعتبار تلك الزكاة حقا من حقوق المسلم الفقير ، لا هبة تقترن أحيانا بالذلة والخضوع . فحينما يمد المصلى بذلك الجمال الغامر ، ويعقد آماله كلها على ربه ، وييأس من نائل الناس ، فلن تكون به حاجة إلى الجزاء والشكور إذا أطعم أخاه ، أو بذل له الزكاة ، أو الصدقة الحرة ، بل إنه سيقف من الفقير موقف من يسد دينا فى ذمته ، وسيحاول أن يستر عن أخيه صدقته ، إن كان من أولئك الذين كانوا

يدسونها لإخوانهم من خلال أبواب بيوتهم ونوافذها ، كما كان يفعل جعفر الصادق مع فقراء المدينة ، ولم يعرف عنه ذلك طيلة حياته إلا حينما مات وانقطع هذا الصنيع الذى أقام عليه عمره كله مع فقراء دار الهجرة .

وكلما أمعنت روح المصلى فى ذوق جمال الأنس بالله ، انحلت قبضته على المادة ، وبذلك يسهم فى بناء القوة النفسية للمسلمين ، تلك القوة التى تحررهم من إراقة ماء الوجه ، وذل السؤال ، وتخلصهم إلى ربهم ، وتحميهم من الشرك الذى يطل عليهم من الخضوع والتقرب للعبيد .

وعلى هذا الأساس الدقيق بنى الإسلام قوة الجماعة الإسلامية ، وترابطها المتين السليم ، فصلاة الجماعة خمس مرات فى المسجد تفضل صلاة المسلم فى بيته بسبعة وعشرين ضعفا ، وفى مسارعة المسلم إلى هذا الفضل العظيم تفقد لأحوال أهل المحلة أو القرية ، وتأصيل لمبدأ الإخاء والحب بينهم ، واستمرار لتلك القوة الفردية التى هى أساس القوة الجماعية .

ثم يتجمع المسلمون فى كل أسبوع مرة فى المسجد الجامع ، فى القرية أو فى المساجد الجامعة فى المدن ، لبناء رابطة أوسع وأشمل ولتجديد عهد البناء القوى بصورة أقوى من تلك الصورة اليومية ، فى يوم الجمعة الذى يعتبر عيدا أسبوعيا للمسلمين ، تضاعف فيه الأعمال ، وتتنزل الرحمات ، وتفيض البركات .

ثم تتسع قاعدة البناء الجماعى للمسلمين فى كل عام مرتين ، حيث يخرج الجميع إلى خارج البلد متجردين من كل رق يربطهم إلى المادة ، باذلين لحوم الأضاحى ، أو الصدقات الحرة لإخوانهم متفقدين لأحوالهم حتى يتمكنوا من تأسيس جماعات صغيرة تقوم على شئون المعوزين من المسلمين طوال العام ، وحيث يبتكرون من المشروعات الدائمة ما يسد تلك الخلة التى تمزق وحدة المسلمين كما يشهد بذلك القانون الجنائى والمدنى والواقع المحسوس .

وبهذه الروح الطاهرة النقية التى سادت الغنى والفقير ، تلتئم الوحدة الإسلامية فى مؤتمر عالمى يضم الموسرين والقادرين من المسلمين بعد أن يتجردوا من كل زينة ، مولين وجوههم شطر المسجد الحرام ، طائفين حول البيت الذى يتوجهون إليه فى صلاتهم ، إلى أن يلتئم جمعهم فى « عرفات » الخير ، استعداداً لرجم النفوس الأمارة فى « منى » ، ونحر الضحايا وتركها نهبا للسباع والجوارح ، لأن لحومها لن تنال الله ، ولكن يناله التقوى منهم .

ويمكن لهم بعد ذلك أن يقدموا بنفوس راضية ، وأرواح مشرقة ، على تأسيس المؤسسات العامة التى تتولى شئون المسلمين الفقراء فى أرجاء الأرض إلى جانب تلك المؤسسات الفرعية فى القرى والمدن من كل بلد إسلامى فى العالم ، وذلك مصدر من مصادر القوة الهائلة ، والترابط الرحيم ، والثقة القوية ، والروح السمحة بين المسلمين جميعا ، وأصبح الفقير حارسا على مال أخيه ، لاحاقدا عليه ، يتلمس الفرصة لإتلافه أو نهبه ، فإذا قاموا بعد ذلك استجابة لنداء الجهاد ، قاموا قومة واحدة يتسابق أفرادها إلى الموت حماية لإخوانهم أولا ، وتطلعا إلى نعيم ذاقوا منه اليسير فى صلواتهم ، فإذا استشهدوا أنشدوا ما أنشد أسلافهم :

اليوم نلقى الأحبة
محمـــدا وصحبه

وإن عاشوا عادوا إلى جزاء عميم ، ورزق واسع ، ورغد من الحياة ، تزكو به أرواحهم ، وتسعد جماعتهم ، ويضيفون به قوة إلى قوتهم . وفى ذلك تصديق لقوله تعالى :

(فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة

وإيتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب) .

ولقد ضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه أروع الأمثال التربوية المسلمين ، فلقد كان مع يقينه بمنزلته عند ربه ، وبأنه تعالى يسارع فى هواه لأنه لم يكن ينطق عن هوى كأهوائنا ، كان مع كل ذلك يقوم الليل حتى تتورم قدماه ، وكان يطيل السجود لربه ، حتى يظن من يراه أنه قضى .

وكان كما تروى عائشة رضى الله عنها ، يكون فى البيت كأحدهم ، فإذا نودى للصلاة مضى كأن لم يعرفهم قط من قبل ، وكان صحابته الأخيار يعطون وقت الصلاة ماله من قداسة وانخلاع عن كل مظاهر الحياة . فقد كان أمير المؤمنين على كرم الله وجهه إذا قام للوضوء اصفر وجهه ، فسئل فى ذلك ، فقال : أتدرون بين يدى من أقوم ؟

ويروى مسلم والترمذى ، عن حنظلة بن الربيع الأسيدى ، كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : لقينى أبو بكر رضى الله عنه ، فقال :

كيف أنت ؟

قلت : نافق حنظلة .

فقال : سبحان الله !! ماتقول ؟!

قلت : نكون عند النبى صلى الله عليه وسلم ، يذكرنا بالنار والجنة ، كأنا نراهما رأى عين ، فإذا خرجنا من عنده عافسنا (أى لاعبنا) الزوجات والأولاد والضيعات ، ونسينا كثيرا .

قال : والله إنى لأجد مثل هذا .

فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكرا له ذلك ، فقال :

والذى نفسى بيده ، لو تدومون على ما تكونون عندى ، وفى الذكر ،

لصافحتكم الملائكة على فرشكم ، وفى طرقكم ، ولكن ياحنظلة ، ساعة وساعة (ثلاث مرات) .

ودلالة هذا الحديث واضحة على تفقد الصحابة لهذا الشعور الباطن فى نفوسهم ، والذى هو مصدر قوتهم ، وقوة بنائهم وعلى أنهم كانوا يفزعون من التغير اليسير الذى يطرأ عليهم حين يرعون مصالحهم ، وأنهم اعتبروا هذا التغير نفاقا ، ويروى المحاسبي فى « نصائحه » أن أحد الصحابة شغل فى صلاته بنخيل له ، فكفر عن هذا السهو بأن جعله كله فى سبيل الله .

ليست تلك التصرفات الصادرة من الصحابة رضوان الله عليهم إلا دلالة على ما كان للصلاة عندهم من أهمية بالغة وأثر واضح فى حياتهم الروحية ، ونجاح فى كل ما يقدمون عليه من عمل ، وضمان للضمير الحى الذى يعتبر أصلا فى كل عمل يتطلب أمانة ووعيا ، بل ورغد فى العيش ، وهدوء فى البال ، وصفاء فى الروح ، مما لابد منه لإنسان متوازن متكامل ، وصدق الله العظيم إذ يقول : (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) .

الخير والشر

من غرر القرآن الكريم قوله تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) .

ومن فرائد ممشاد الدينورى رضى الله عنه ، أن قال له أحد الناس : العبد إذا جاع ماذا يعمل ؟ قال : يصلى .

فالصلاة عون للإنسان على ما يصيبه بوجه عام من الأزمات النفسية والروحية والمادية ، وعلاج ناجع لما يسميه الناس شرا فى حياتهم ، وإن اختلفت نظرة القرآن الكريم إلى الشر والخير فى قوله تعالى : (وعسى أن

تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) .

والحق أن الشر لاوجود له بذاته ، بل هو فى حقيقته ، عدم وجود الخير أو نقصه ، فالظلام احتجاب النور ، والفقر احتجاب المال ، والمرض احتجاب الصحة عن أحد أعضاء الجسد ، والخوف احتجاب الطمأنينة والسلام .

الشر هو فقد الوجود ، وحلول العدم مكانه ، أما ما نسميه بالشر فى حياتنا فتلك تسمية قضى بها الحس الذى أهمل جانب المسألة فى أعماقها البعيدة ، ولا شىء غير ذلك .

وهل يعقل أن ينقطع الخير عن المتوجه إلى مصدر الخير ومبدعه خمس مرات كل يوم ؟ وهو الكريم والرحمن والرحيم واللطيف بالعباد ؟

وهل يعقل أن يكون هناك فقد مع التسامى إلى مصدر الوجود على فترات متقاربة ، إلا إن كان فى هذا الفقد وجود لشىء آخر أحب وأعظم وأعز منالا ، فحينما يستغرق المصلى فى الفيض الإلهى وذوق الجمال فيه فإنه يفقد الألم والقلق ، حيث يكون الفقد بعد ذلك وجودا ، والذل لله عزا ، والفقر إليه غنى ، لأن المتوجه المتسامى تحقق تحققا كاملا بخرق العادات ، والغربة بين الندماء .

وإذا كان الشر كما تعارف عليه الناس ضرورة أملتها على القاصرين منهم نزعة الخوف من انقطاع الخير ، أو انقطاعه فعلا ، فإن الشر فى مظهر آخر قد يبدو من تزاحم ألوان الخير لدى الفرد أو فى المجتمع كله ، فإذا ازدحم الخير فى بيئة فردية ، فإنه كثيراً مايدفع هذا الخير الوفير إلى الطغيان والبطر والكبر والانحراف واختلال المثل الخلقية ، والأمراض الخبيثة ، وغير ذلك من مظاهر الشرور الحقيقية ، وإذا ازدحمت مظاهر الخير فى المجتمع فإن المجتمع نفسه ينحل خلقيا وصحيا ودينيا إذا لم يكن مستعدا لمواجهة

تلك المظاهر بزاد الروح ، وإذا كثرت المخترعات باسم الخير للجميع ؛ فإنها تحمل فى طياتها الشرور الجسام ، ولنا فى الدمار والخراب الكامن وراء الكشوف الذرية والهيدروجينية دليل قاطع .

وأساس هذا النوع من الشر هو فقدان الرضا وهواية التعقيد فى الحياة وغرور النفس وكبرياؤها .

ولا شىء فى الوجود يوقف الإنسان على حقيقة نفسه ، ويلزمها مكانها فى الكون ، ويسعدها بالبساطة ، والزهـــد فى التعقيد ، والرضا بالنعمة وشكرها ، غير وقفة صوفية متكررة فى صلاة خاشعة ، توقفك على سر الكون فى وجده وفقده ؛ لأن الشر الذى هو بعينه «الخوف المزعج» قد اعتبره رواد السلوك الروحى الإسلامى من أمهات العوامل التى تسوق الإنسان نحو ربه كما اعتبروا «الشوق المقلق» كذلك عاملا من عوامل دفع الإنسان نحو ربه فى عزم وثبات ، وفى اندفاع الإنسان إلى حمى ربه إيواء له إلى ركن شديد يثق بضمانه ويطمئن إليه ، كما يطمئن الولد إلى أبيه وهو يعلمه السباحة فيتركه للموج أحيانا ، ولكنه يسرع إلى إنقاذه إن حاول الموج أن يتلقفه ؛ ولا شر مع هـذا الشعور الذى تبعثه الصلاة ، وينميه الخشوع والحضور ؛ وفى هذا المعنى يقول ممشاد الدينورى : «لو جمعت حكمة الأولين والآخرين ، وادعيت أحوال الأولياء والمقربين لم تصل إلى درجة العارفين حتى يسكن سرك إلى الله تعالى ، وتثق بضمانه لك فيما وعدك وقسم لك» .

وقد يكون الشر خرقا للحكمة الإلهية عن قصد أو عن غير قصد ، بوضع الأشياء فى غير مواضعها ، بل هو كذلك فى غالب أحواله ، فالفقر من المال ينشأ من وضع المال فى غير مواضعه ، أو فى مواضعه دون نظر ثاقب . والمرض وضع للصحة فى غير مواضعها ، وتحدى الطبيعة بها ؛ واقتحام القانون الكيميائى للتغذية وغضب الله تعالى سببب عن وضع القوى الموهوبة والمكتسبة فى غير ما وضعت له .

لقد استخدم الله تعالى قوى الإنسان فى العبادة بمقتضى القول الحكيم : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبـــدون) ؛ وكان مقتضى ذلك الأمر الإلهى أن يستخدم الإنسان قواه النفسية والعقلية والروحية فى تحقيق تلك العبودية لله تعالى ، والاستغراق فيها استغراقا كاملا ، وذوق مشاهدها ، والبصر بعلومها ، وتصحيح النيات عند مواجهتها ، وتفقد القلب فى نتائجها وأحوالها ، والعلم بآفات النفس والقلب التى تحبطها ؛ إلى جانب ما أقام الله فيه الإنسان من أسباب الرزق حيث أمره الله بالقيام عليها ، وتسليم نتائجها إلى الله تعالى ، والرضا بما يجرى عليه من ابتلاء ، وأكد الله تعالى ذلك المعنى فقال : (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) .

ولكن الإنسان عكس الأمر ؛ فانتكس إلى خضيض من التشويش والانهيار .

جهل كل شىء من مقومات العبادة الحقة ، فلم يبق له منها إلا حركات لاروح فيها ، وعادة لانتيجة لها غير الثرثرة والجهل . ثم سخر كل مداركه وقواه فيما ضمنه الله له ، وأكده وأقسم لعباده على صدقه فى وعده حيث قال : (وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) . ومثل هذا الإنسان المعكوس ، قد يظفر حسب التخطيط الذى وضعه الله تعالى بنصيب وفير من المال ، ولكنه فى الوقت نفسه يكون مصدرا من مصادر الشر فى المجتمع ؛ وقد يظفر الإنسان المعتدل بنفس النصيب الوافر من المال ، ولكنه مع ذلك يكون نبعا من ينابيع الخير فى المجتمع ، وقد لاينال الإنسان المنتكس حظا من المال فيثور على المجتمع . ويسهم بثورته هذه فى تأسيس القرصنة وتهديد الأمن الجماعى فى الأموال والأنفس والأعراض . وقد لاينال الإنسان القويم حظا من المال . ولكنه يعتصم بالرضا من كل شر . بل ويفيض بالخير والرضا على أمثاله من العابدين .

والمتقون الذين يقيمون الصلاة لهم من تقواهم وصلاتهم الهدى والبصيرة التى تنفذ إلى أعماق الأمور ، فتضعها فى مواضعها ، وتجنب الإنسان تلك الشرور والآلام ، التى كان أساسها خرق الحكمة الإلهية ، وصدق الله تعالى حين يقول : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

وأخيرا ليس الشر سوى تمام للخير الذى يوجد مقارنا له ، فلا معنى للرحمة بدون الألم ، ولا للشجاعة بدون الخطر ، ولا للصحة بغير المرض ، ولا عصمة للإنسان الذى يدخل فى تلك التجربة القاسية سوى الصلاة ، التى تنجد المكروب باللطف المقارن للبلاء ، فيرى الإنسان فيما سماه الناس شرا خيرا كثيرا : (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) . (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) . أما الشعور بالشر دون صلاة ، أو مع الصلاة الخالية من الروح الحية البصيرة ، فهو دليل على نسيان الله تعالى للعبد لأنه نسى ربه . ونسيان الله تعالى لعبده كما يقول العارف الكبير سيدى على وفا ، فى كتابه نفائس العرفان : « هو تجلى الله للعبد بصورة المغايرة ، والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره .

وإذا لم تجد من صلاتك هذه النتائج التى أشرنا إليها ، أووجدت نفسك تحمل صلاتك بحاجاتك ومطالبك المادية ، كأنما أنت سائل تقف بباب الله تطلب حاجة بعد حاجة ، فلا تجزع .

احذر الجزع . لأنه يردك عن الطريق بعد أن وضعت قدميك على أوائله دع عنك الوساوس ، وامض فى طريقك ، وحاول أن تسأل الله تعالى العون على الهداية ، واطلب منه القوة على بلوغ الصفاء الروحى ، واحذر أن تعتقد أنك تستحق ثوابا على صلاتك ، فإنما هى مفروضة عليك ، وكل مايفاض عليك من خير نتيجة لأحكام الصلاة ، فإنما هو بمحض الفضل ، لا بميزان العدل .

وبعد تدريب لن يطول بحول الله ، ستكون صلاتك انتقالا إلى جوار الله ، حتى تمس روحك حجب العظمة ، فتنصهر بنارها ، وتصفو بنورها ، بغض النظر عن الكلمات التى تصاغ منها الصلاة ، فقد ارتفعت الحواجز التى أقمناها بيننا وبين الله ، إذ تصورنا أنه بعيد منا ، وهو فى حقيقة الأمر أقرب إلينا من حبل الوريد .

إن الذين يقفون الآن فى صلاتهم على مشارف الصمدانية ، أو نازلوا هذا المقام ، كانوا مثلك على أول مدارج الطريق ، ولا فرق بينك وبينهم إلا أنك تلميذ صغير ، وهم طلاب كبار ، داوموا على جهادهم ، وتفقدوا أحوالهم ، وراقبوا قلوبهم ، حتى تفجرت أنوارها ، وشقت سدفة التراب المحيطة بها ، وتخللت الأسرار مسالكها ، وجرت مع دمائها ، ونبضت بها الخلايا والعروق ، فانفعلت لهـــم الروحانيات الجسام ، فضلا عن عوالم الأكوان .

الصلاة تتراجع بازدياد إلى الاكتفاء بتحسين الشخصية ، والمحافظة على الروح المعنوى فى الفرد والجماعة ، وبهذه المثابة لا يستطيع علم النفس أن ينكر جدواها على اعتبار أنها من الإيحاء الذاتى ، ومع هذا فلها مزية الإرشاد إلى مزاولات عملية تزيد من قابلية النفس للاستجماع ، والاستيحاء ، ويمكن تلخيص أصولها النفسانية فى العودة إلى الاسترسال مع التفكير الذى يسر ويرضى ، وضرورة الاحتفاظ بالوازع الأخلاقى لمجازاة الذين عجز العدل الإنسانى عن مجازاتهم فى هذه الحياة .

القرب والشهود

(واسجد واقترب) .

(ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) . (سورة ق) .

« اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . « حديث شريف »

وسيلة القرب من الله تعالى وشهوده الإحسان الذى أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى حديث جبريل عليه السلام ، ووسيلة الوصول إلى مقام الإحسان هو معرفة النفس ، « فمن عرف نفسه عرف ربه » ، فليكن بحثنا فى هذا الموضوع الدقيق قائما على :

ا — معرفة النفس .

ب — مقام الإحسان .

حـ — حقيقة الرؤية والشهود .

ا — معرفة النفس :

يقول الله تعالى : (وهو معكم أينما كنتم) . ويقول جل جلاله : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق) . ثم يحدد سبحانه درجة المعية التى قررها فيقول : (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

فليست معرفة النفس هى معرفة عبوديتها لبارئها كقضية بلا دليل يضرب بجذوره إلى أعماق الحقيقة الكبرى ، ولكن معرفة النفس فى الحقيقة ماهى إلا معرفة حقيقة قرب الله تعالى منا ، ذلك القرب الذى أشار إليه الله تعالى بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد ، وما حبل الوريد إلا أنبوب الدم الذى يدفعه إلى العروق والخلايا من أبداننا .

فمعرفة النفس من ناحية العبودية فحسب معرفة ناقصة ، أو هى معرفة

جزئية تعتبر من الوسائل والمقدمات لمعرفة النفس على حقيقتها، والتى تعتبر فى الوقت نفسه معرفة للرب سبحانه وتعالى .

واللفتة القرآنية الكريمة التى تشير إلى المعية الأعمق فى القرب من حبل الوريد هى المرادة وحدها دون غيرها بمعرفة النفس على حقيقتها، وما التفسيرات العادية التى لا تتجه إلى هذه الوجهة بعينها إلا مبادىء تهىء الإنسان لتلك المعرفة الكبرى .

ولا حرج على من لا يستطيع الوصول إلى سواها، لا فى دينه ولا فى دنياه، إلا أن ينكر كل ما خالف اتجاهه، ويقيم على العقل وحده فى تلك المسائل التى يعجز العقل فيها عن الوصول إلى ما وراء حدوده. أى إلى مجال المطلق عن الحدود .

ونظرة الروحيين من الصوفية إلى العقليين ليست نظرة تسفيه وإهمال لجانب من جوانب الفكر الإنسانى لا بد أن تنال حظها من الاحترام. بل إنها نظرة تقدير لتلك الجهود التى بذلت وتبذل من جانب العقل فى سبيل الوصول إلى الحق، والتى لا بد منها للتدرج على سلم المعرفة الحقة، ولكنهم ينصحون بألا يصر العقليون على موقفهم، فلا يتعدونه إلى غيره من مناطق الفكر البشرى، فضلا عن تسفيه كل مجال فكرى غير مجالهم .

لقد درس الصوفية فلسفات العالم المحيطة بهم، والتى وصلت إليهم فى كل العصور، وارتحلوا فى طلب تلك الفلسفات، ودخل بعضهم من بابها إلى ميدان النظر الروحى، كما أوضح حجة الإسلام ذلك فى كتابه « المنقذ من الضلال »، وتمثل بعضهم تلك الفلسفات العقلية تمثيلا كاملا مع نظره الروحى، وحذر من خداع العقل الذى أصبح مقررا فى علم النفس الحديث، كما فعل الشيخ الأكبر : محى الدين بن عربى .

ويرشد العارف الكبير، سيدى عبد الغنى النابلسى، فى كتابه « خمرة الحان، ورنة الألحان » إلى أن الإنسان قد يكون مستعدا لمقام من مقامات

المعرفة ، ولكنه يشعر فى باطنه مع استعداده هذا ، وتعطشه إلى منازلة هذا اللون من المعارف بأن حجابا رقيقا يحول بينه وبين التمكن من ذلك المقام ، ويشعر أحيانا بإشراق يلمع ثم يخبو ، ويطول به الزمن .

ويرى أن مطالعة كتب المقامات والمعارف الروحية ، قد يلتقى فيها هذا الحائر فجأة بما تعطشت إليه نفسه ، وتفتحت لاستقباله ، فيتبدد هذا الحجاب ويقيم الحائر فى مكانه من المعرفة ، عارفا بأسراره ، حيث يتعطش إلى سواه ، وهذا يدرج الإنسان على سلم المعرفة إلى مالا نهاية له منها .

ونرجو أن تنال تلك النصيحة الغالية من العارف النابلسى رضوان الله عليه ، مكانها من العناية بها لدى المثقفين وطلاب المعرفة ، فيهبوا هذا اللون بعض اهتمامهم ، وسيسهمون بذلك فى إقامة أضخم نهضة فكرية خلفها لنا الإسلام خاصة ، والأديان كلها بوجه عام .

إن العقل أقام على البحث مئات السنين طلبا لسعادة الناس ، وقد بذل فى ذلك جهودا جبارة ، جاء بعضها بالخير ، وجاء بعضها بالشر ، بل وجاء الشر من ازدحام خيرات العقل التى تصارعت هى الأخرى فى مظهر وحشى شرير ، لأنها فقدت الضابط الروحى الذى يتبلور فى (الرحمة) حينما يتجه الإنسان إلى الحياة مع أخيه الإنسان .

إن العالم اليوم يقف على هاوية سحيقة ، حائرا يجتاز أعنف الأزمات وأقساها ، وفى حومة هذا الصراع المرير ترتفع بعض الأصوات تنادى بوجوب التحول إلى الروح والإيمان ، لعل فيهما حلا لتلك الأزمات ، وأمنا لهذا العالم المضطرب ، وهى نداءات صائبة مافى ذلك من شك ، لأننا حين نقف على حقيقتنا سنعرف مكاننا ، ولن يجمع بنا العقل إلى مكان سواه .

إن أهمية معرفة النفس تمس الصلاة مسا مباشرا ولذلك سنضطر إلى تبسيط أخطر نظرية فى التوحيد ، وإن اختلفت فيها الأنظار ، وما التوفيق إلا بالله .

إن حبل الوريد اللاصق بالإنسان ، تمتد فروعه إلى كل خلية وكل ذرة فى جسم الإنسان ، ويسيطر على حركاته وطاقاته ، سيطرة كاملة ، بما يجرى فيه من دم لاحياة للإنسان بدونه ، بحيث لايخرج أى نشاط يتصل بالجوارح أوالعقل أوالروح عن سيطرة حبل الوريد بأى حال من الأحوال.

ويستعين حبل الوريد بالقلب الذى يدور عليه أهمية تنظم حركة الدم فى أنحاء البناء البشرى ، وأى اضطراب فى عمل القلب يؤدى بالهيكل إلى التدهور ، وأى توقف منه عن العمل ينذر بفناء الهيكل إلى الأبد .

الله تعالى ليس قريبا منا قربا يشبه قرب حبل الوريد وإلا لأدركته الأبصار ، وتناولته العقول ، والحق أنه لاتدركه الأبصار ، وليس كمثله شىء مما يجرى عليه حكم العقل والوهم .

ولهذه النكتة الدقيقة كان التعبير القرآنى أعمق من هذا النظر الظاهرى فليس الله تعالى لاصقاً بنا لصوق حبل الوريد وأجهزته المادية ، بل إنه تعالى أعمق فى بواطننا من هذا العرق الذى تتغلغل فروعه فى بواطننا بلا حلول ولا اتحاد ، لأن الحلول والاتحاد من ظواهر المادة التى تجاوزناها بالتفسير الذى ذكرناه .

(الله نور السموات والأرض) والنفس الإنسانية إذا تفتحت وجدت فى حناياها الروح ، وسلمت بأنها شىء آخر غير العقل ، وأسمى منه ، وأقوم منه سلوكا ، وأجدى على المجتمع ، إلا إن عمل العقل على ضوئها و هداها .

والنفس والروح فى الحقيقة شىء واحد من عين نور السموات والأرض وقد صار هذا الشىء الواحد اثنين « نفسا وروحا » لاتصافه بوصفين ، وهما الصفاء والكدر ، فالنفس مادامت مكدرة لايصدق عليها إلا اسم النفس ، وإذا ذهب كدرها ، وصفت وتجوهرت ، صدق عليها اسم الروح ، وكل منهما قريب من الآخر عاشق لصاحبه .

وإذا أراد الله أن يتولى عبدا من عباده مكن روحه من نفسه ، فرجعت

عن هواها الذى بعد بها عن موطنها ، وسلبها جمالها وبهاءها وشرفها وما أمدها به مولاها ، فأنكرت أصلها . وحين تتمكن الروح من النفس تستطيع أن تسعد بالنور وشهود النور فى كل شىء ، فيهون على النفس بعدئذ التخلى عن كل ما يحجبها عن تلك اللذة التى لو عرفها الملوك لقاتلوا أصحابها عليها بالسيوف .

وسنحاول تقريب المسألة بأمثلة مما يقع عليه الحس ، مع اعترافنا بفارق القياس الكبير بين الحالين .

إذا وضعنا مصباحا أمام مرآتين متقابلتين ، فإننا نرى عددا من المصابيح لا مصباحا واحداً ، وليست هذه المصابيح المتعددة هى المصباح الرئيسى ، ولكنها ليست وهما ولا خيالا فى الوقت نفسه ، إنها هى وليست هو وكذلك الحق فى أعماقنا هو وليس هو . إن نور السموات والأرض الذى يتغلغل فى كل شىء هو وليس هو ، وقد تدركنا الحيرة من أمثال هذه التعبيرات ، وهذه الحيرة هى عين المعرفة ، لأننا حينئذ تجاوزنا المحسوس والمعقول فى محاولة إدراكنا للحق فأصابتنا الحيرة ، كما أصابتنا حين حاولنا أن نفهم أنه تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد الذى تتغلغل فروعه فى كل أنحاء الجسد ، فتجاوزنا حينذاك الفهم المادى المعقول للمسألة .

حينما تشرق الشمس وينعكس ضوؤها على البحر ، وعلى كل نقطة منه إذا انفصل بعضها عن بعض ، كذلك ينعكس نور المطلق على صفحات العقل الكلى ، وعلى كل ذرة من ذرات ذلك العقل أى على النفس وإذا انعكست الشمس على بحر العقل الكلى فهو نور المطلق الأحد ، وإذا انعكست على قطرة من العقل الكلى التى يقال لها النفس ، صارت تلك النفس روحا ، وتجاوزت وسائل النظر النفسى والعقلى إلى وسائل النظر الروحى ، أى تجاوزت الحس والعقل إلى الذوق ، أى إنها انتقلت من نظر البصر إلى نظر البصيرة .

ليس الذى يبدو من الانعكاس هو الشمس نفسها ، ولكنه كذلك فى الوقت نفسه ليس غيرها وليس مزيفا ؛ إن الشمس قد أرسلت من حرارتها

ومن ضوئها ومن نورها ، والبحر والقطرة يتلقيان الحرارة والضوء والنور وروح القطرة هي معجزة السر ، وسر الحيرة ، وعين المعرفة .

فعلى حين تكون الشمس حاضرة فى القطرة ، إلا أن الشمس نفسها بعيدة عنها ، وليس الحاضر منها إلا مظهرا فقط . إن من يرى الانعكاس فى القطرة يرى الشمس شكلها ونورها ، ومع ذلك فالشمس فى السماء ، وهكذا نرى الشمس فى القطرة وهى فى السماء ، ونرى الشمس فى السماء وهى فى القطرة .

هذا هو اللغز الإلهى الذى يحمل فى طياته الواحد المتعدد ، والمتعدد الواحد ، الحق الكل الذى يبدو منفصلا ولا انفصال .

تنعكس الشمس على ملايين القطرات ، فإذا ملايين الشموس ، ومع أننا نرى فى كل قطرة شمسا ، إلا أن الشمس واحدة وهى فى السماء .

ومن يستطيع أن يدرك سر هذا اللغز ، يستطيع أن يدرك سر الصلة بين الروح والمطلق ، وبين المتعدد والواحد وبين الواحد والأحد ، ويدرك خفاء قرب الله تعالى فى نفوسنا ، كما يدرك أخيرا ما فى باطن الروح الإنسانى من سر استحق الإنسان من أجله تكريم الله سبحانه وتعالى .

تلك هى رسالة الوعى الروحى ، وهى أن كل خطوة تجعلنا نشعر بأن الكل واحد خير من الحظوة التى لا نشعر فيها هذا الشعور بنفس الوضوح ؛ وتلك هى الوحدة الصوفية التى تختلف فى كل مظاهرها عن الوحدة الفلسفية .

وثم تشبيه آخر يقرب المسألة من الأذهان ، ذكره « راماشاركا » فى كتابه « فلسفة اليوجا » بعد أن قرر سخف كل مقارنة بين فعل الله وفعل الإنسان . حيث يقول : « كما يولد الطفل ويكون فى صورة بسيطة أول الأمر ، ثم ينمو فيعى ويدرك ، فكذلك هذا القرب الإلهى ، يبعث فى أبسط شكل من أشكال الروح (وهى نفخة الروح الإلهية فى آدم) وكلما نمت وارتقت وبلغت ذرا الارتفاع التى يصاب العقل فيها بالدوار ، تبلغ آخر الطريق ، فتجد نفسها أمام بيت ربها أى أمام موطنها الحقيقى ، فتقرع الباب

فيفتح لها وتدخل ، وتلق بنفسها بين يدى بارئها وأصلها ، الذى يسعى إليها كما سعت إليه ، ثم تغلق الأبواب فلا نعلم عما يجرى شيئا » .

ب ـ مقام الإحسان :

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الإحسان فى حديث جبريل عليه السلام فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عزة هذا المقام ، وأنه لن يظفر به كل إنسان ، بل هو من أحوال الخاصة من أهل العناية ، حيث جعله فى المرتبة الثالثة بين الإسلام والإيمان ، وكأنه ميرات عنهما ، وثمرة للتحقق بهما .

والإحسان كما جاء فى الحديث الشريف نوعان : نوع يعبد الإنسان فيه ربه ، كأنه يرى الله ، وهى أعلا الإحسان ، وهو إحسان الخاصة . ونوع يعبد الإنسان فيه ربه ، كأن الله يراه ، وهى منزلة الجمهور من العباد الصالحين .

والنوع الأول وهو إحسان الخاصة يشير إلى حال « المراقبة » ، وإلى أن العبد مستعمل بربه على بساط الشهود ، فيجب أن يلزم سره آداب الحضرة ، حتى يرسم فى مراسم أهل القرب والشهود ، ومن تلك الآداب أن يكون سرك ناظراً إلى ربك ، وبصيرتك عاكفة على شهوده ، وعزمك قائما على امتثال أمره ، والمصير له عند صدوره ، كما قيل لبعض المتكلمين : « إذا أمرتك فامض لما أمرتك به ، ولا تنتظر علم أمرى ، فإنك إن انتظرت علم أمرى ، فللعلم أطعت لا الأمر » .

وإذا مضى العبد لعلمه بالأمر ، فقد انحجب عن الأمر ، فمصرفه على الحقيقة علمه لا ربه الذى أمره ، فلا يتحقق بالعبودية صرفا من لزمه هذا الحال .

نقول ذلك تنبيها على أن المضى إلى العبادات للعلم بما فيها من أسرار مرتبة نازلة عن مرتبة من يمضى إليها الأمر المجرد ، دون نظر إلى شىء آخر وراء ذلك ، وكلاهما داخل فى مقام الإحسان .

فالعبودية الحقة الخالصة أن تمضى لأمر الله ، ولا تسأل عن علمه . وكذلك حال أهل حضرة الله من ملائكة العزائم : (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) .

والنوع الثانى : وهو إحسان جمهور العباد الصالحين ، يشير إلى حال «شهود المراقبة» لا المراقبة نفسها فإذا علمت أن الله تعالى يراك وأنك بمرآى منه ومسمع ، وأنه منك بالمرصاد ، كان ذلك داعيالك إلى الخوف من جلاله ، والحياء من مخالفته وركوب شهوتك ، والإعراض عن أمره فيقودك ذلك إلى الاستقامة معه ، والتحقق بآداب العبودية معه .

ونسيان الإحسان ، والغناء عنه ، مقام لمثله فليعمل العاملون .

ح — حقيقة الرؤية والشهود :

لعل القارىء يستطيع أن يدرك من خلال هذا الفصل كله ، ماهية الشهود والمشهود ، ولكن كثيرا من العلماء يعترضون على ما يرد على ألسنة العارفين من مسائل الشهود ، وينكرون عليهم مقامهم ، وينسبون إليهم العظائم . وحديث جبريل صريح ، وإجابة الرسول صلى الله عليه وسلم واضحة ، وعلو مقام العابدين المشاهدين لربهم ظاهر من سياق الحديث . فما حقيقة الشهود ، وما حقيقة رؤية الله سبحانه وتعالى ؟ ويحيل القارىء فى هذا الموضوع على صاحب «منهاج العوارف فى شرح مشكل الحديث»[1] حيث يقول :

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية ؛ وقد نسب فى الفهرس إلى القاضى عياض بن موسى اليحصبى ، صاحب «الشفاء» ، ولا نعلم مستندا لهذه النسبة ، فليس فى ثنايا الكتاب ولا على صحيفة العنوان ما يدل على المؤلف ، ولم نعثر عليه فى فهرس القاضى عياض ، ولم نقف على سند من الأسانيد فى الكتاب يؤيد تلك النسبة ، ولا زلنا بصدد البحث عن المؤلف الحقيقى لهذا الكتاب الرائع ونرجو ممن يقف على معلومات خاصة بمؤلف هذا الكتاب أن يسعفنا بها مشكورا .

، إياك ياأخى أن تركن إلى حضيض التقليد فيتحقق فيك حينئذ قوله تعالى : (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون) وقوله تعالى : (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) .

واعلم من انتهى إلى عالم الحس ووقف معه ، ولم يخترقه إلى ما وراءه ، فهو بالله من الجاهلين ، فكيف يطمع بالفوز بلذة النظر إلى وجهه الكريم ، وهو لايدرك إلا ماله صورة وشكل ؟ فأحذرك هذه البيداء المهلكة ، فإنك إن لزمتها ، وبقيت فيها . أخرجتك من الدنيا مطبوع القلب عن مراقى عوالم الآخرة ومطالعها ، من النظر إلى جمال الله تعالى ، والالتذاذ بشهوده ؛ وغير ذلك من مسارح عالم الأرواح ، وتبقى مؤبدا مع خصوص الجسوم والنفوس ، فبؤسا لك وسحقا سحقا ، نسأل الله سبحانه السعادة .

واعلم أنك إن لزمت طور الحس ، وجعلته نهاية المطلوب ، لزمك قطعا تكذيب العقل ، وتكذيب الرسل عليهم السلام فى أكثر ما أخبروا عنه من عوالم الآخرة ، لأنهم أخبروا أن هناك من أمر الله مالايستطيع الحس أن يؤمن به إذا لم يشاهده ، وهو لايؤمن إلا بما شاهد ، أو شاهد مثالا منه يستدل به عليه ، وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن الملائكة وهيآتهم والجنة والنار ومارآى فيهما .

فإن نفعتك هذه الوصية ، وأعطيت فهم هذه الأسرار الربانية ، علمت علما اضطراريا ، أن العارفين بالله سبحانه وتعالى فى هـــذه الدار ، وأهل الفهم عنه ، الذين تسامت أسرارهم إلى الغيوب ، وشهدوا من جمال الربوبية والكمالات الإلهية ، والنظر إلى أسرار الأمور الرحمانية ماشهدوا ، وقد نالوا أعلا منالات الخلق من الحق ، ووجدوا من لذة ذلك ، ومن نعيم الأرواح ما خلصوا به من نيران الجهالات ، وظلمة الشكوك والعمايات ، وحجب البراهين والدلالات ، وعاينوا الموعود على الشهود ، وأيقنوا إيقانا أمنوا بعده من الكفر والجحود ، فدعتهم حقيقة المعرفة إلى الخوف من جلال

مليكهم ، والهيبة من عظيم سلطانه ، ووقر فى أسرارهم من عظمة الله وكماله ماتضاءلت عنده أقدارهم .

وربما غلب عليهم فى أطوار أخرى سر التأنيس والإدلال ، فتاهوا واشتاقوا ، فهم بأمره ورسله الباطنة إليهم على بساط الأنس يعملون .

خوفهم فخافوا ، وتيهم فتاهوا ، وشوقهم إليه فاشتاقوا . فليت شعرى أيها الأخ : أدخل هؤلاء الجنة المعجلة وذاقوا نعيمها ؟ أم بقوا فى ظلمة الحس وحجابه ، والحضيض النارى وعذابه ؟ كلا والله إنهم ههنا فى الجنة . أحياء يرزقون وبزيادة المدد من الله فى اللحظات يغدون ويروحون .

ثم يذكر مؤلف هذا المخطوط العجيب أمثلة لبعض الأولياء الذين عبروا عن رؤيتهم لله تعالى فى اليقظة . بل وفى دار الدنيا فى غير جهة ولا مكان حيث يقول :

قال بعض الأولياء : رأيت الله .

فقيل له : فى المنام ؟

فقال : بل فى اليقظة .

فاختلف حينئذ طوائف العلماء . فمن مصحح ومن مبطل . فسئل عن ذلك .

فقال : اندرج بصرى فى بصيرتى ، فصرت بصرا فرأيت الله .

وأخبرنى بعض أصحابنا أن الفقيه « أبا العباس النقال » من أهل فاس ، وكان من محذقى العلماء والمجيدين فى الأصلين ، وفى علوم الشريعة ، كان يمشى لزيارة هذا القائل كل يوم خميس ، ويعطل درسه ويقول لمن يختص به : نمشى لمن أتعلم منه التوحيد ، يعنى القائل الذى حكينا عنه ، وهو « ابن عثمان الورياكلى » نزيل فاس رحمه الله .

وكلامه فى قوله : « اندرج بصرى فى بصيرتى » كلام متمكن إلى نهاية ؛ وكان من لقينا من العلماء يستحسن هذا الكلام ويقول : إنه من متين العلم وقد قيل فى معناه :

إذا ماتجلى لى فكلى نواظر   وإن هو ناجانى فكلى مسامع

واندراج البصر فى البصيرة معناه نفى الرؤية البصرية ، بل واختفاء حاسة البصر وتحولها إلى بصر القلب ، كما يغلق السمع كذلك ويستحيل إلى سمع بالبصيرة والقلب ، وهو أمر مقرر فى التصوف الإسلامى يضرب بجذوره إلى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث سمى هذا النوع من الناس « بالمكلمين » وعد منهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وقد أشار الله تعالى إلى الشهودات والمرئيات التى ينالها أهل الاختصاص فى قوله : (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) ، وأشار إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر » وهو أمر عام يدخل فى معنى قوله تعالى : (لهم ما يشاءون عند ربهم) وذلك هو نعيم الرؤية والمشاهدة غير المحسوسة ، مما تنطوى الكمالات كلها فى جنبه :

كانت لقلبى أهواء مفرقة
فاستجمعت مذ رأتك العين أسواى
وصار يحسدنى من كنت أحسده
وصرت مولى الورى مذ صرت مولاى
تركت للناس دنياهم ودينهم
شغلا بحبك يادينى ودنياى

وهذه المسائل كلها كما يقول سيدى « عمر الشبراوى » فى كتابه « تنوير الصدر » : « خارجة عن الفتوى ، لايعرفها غير أهلها » .

صلوا صلاة مودع

قصص الاستغراق فى الصلاة ، والغيبوبة والبكاء ، بل والموت فى أثنائها(١) ، تزخر بها كتب الرقائق وسير الصالحين والسلف ، بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ، كان يطيل السجود حتى يظن من يرقبه أنه قضى ، وكان صلى الله عليه وسلم يتغير تغيرا مفاجئا حينما يستمع نداء الصلاة ، حتى أنه كان يمضى لتوه وكأن لم يعرف أحدا ممن كان يحدثهم بالمنزل من قبل ، كما روت عائشة رضى الله عنها ، وكان على رضى الله عنه يصفر وجهه إذا توضأ كما ذكرنا من قبل ، وروى مثل ذلك عن كثير من الصحابة والسلف رضى الله عنهم(٢) .

فما حقيقة هذا الاتجاه فى سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، والسلف من المؤمنين ؟

يصف الله تعالى أهـــل الإحسان بأنهم (الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وبأنهم فى خلواتهم هـذه : (يخرون الأذقان يبـكون ، ويزيدهم خشوعا) وبأنهم بوجه عام (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) وإذا ازدادوا إيمانا ازدادوا وجلا عند ذكر الله لأن الوجل نفسه من صفات المؤمنين كما يشهد بذلك سياق الآية الـكريمة ، ولأن زيادة الإيمان إنما هى زيادة فى ميراثه وثمراته لا زيادة أصله ، وهى زيادة تثبت أقدام المؤمن على سلم المعرفة بحول الله .

---

(١) راجع الباب الأخير من كتاب : « روضة التعريف بالحب الشريف » للسان الدين بن الخطيب ، تحت الطبع .

(٢) راجع الجزء الأول من « الطبقات الـكبرى » للإمام الشعرانى ، فقد روى فيه كثيرا من تلك الحالات .

ثم تتبلور تلك الحقيقة فى قوله تعالى عن الصلاة : (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) .

ثم يؤيد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة ، بقوله : « صلوا صلاة مودع لا يصلى بعدها غيرها » .

ويكاد يظهر لنا بعد هذا البيان السريع سر هذا الستار الذى كان يضرب فجأة بين الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبين أحب الآخذات عنه أم المؤمنين عائشة وغيرها من الأحبة والأصحاب ، وسر تغير لون أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، وبكاء خاصة المؤمنين حينما يخرون الأذقان سجدا لحضرة الله ، ووجل قلوبهم لذكره .

لم يكن ذلك إلا تفتح للوعى الروحى ، أسسه الله ورسوله فى الإسلام وما كانت الصلاة إلا المدرسة الكبرى الذى يتم فيها هذا التدريب المؤمنين بعد عصر الإسلام الأول .

ولما استحكمت الحرفية البغيضة تحت تأثير الخداع النفسى ، والجهل بالهدف الذى شرعت له الصلاة ، أهمل الناس روح التشريع بل وأهملوا الوسائل التى قررها التصوف الإسلامى لتنمية هذا الوعى ، حتى تؤتى الصلاة ثمارها للفرد والمجتمع كما أوضحنا من قبل .

إن نصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم هى أن يصلى المصلى وهو متلبس بمشهد رهيب ، هو مشهد المودع للحياة ، الذى يلقى النظرة الأخيرة على دنياه ، استعداد للدخول فى مشهد آخر يمعن فى العمق بعيدا عن النطاق المادى للحياة ، ألا وهو الدخول فى نطاق روحى خالص ، تشير إليه الكلمات الشريفة فى ألمعية بارعة « صلاة مودع » .

ومشهد التوديع هذا هو الذى أخذ به « النقشبندية » من رجال التصوف حيث يستحضرون مشهد الموت قبل الدخول فى خلواتهم الذاكرة ، وينتهى

إليه « الخلوتية » فى سلوكهم الصعودى ، وينزل إليه « الشاذلية » فى سلوكهم النزولى .

وأعتقد أن الذين ينكرون التدريب على الوعى الروحى الصوفى ، لتحقيق روح العبادة ، سيرجعون عن إنكارهم بعد أن أعدنا هذا الوعى والتدريب عليه إلى أصول قرآنية وحديثية ، وبعد أن نزيدهم ثقة بصحة هذا السلوك من ناحية قد يكون لها عندهم سحر بالغ ، وإن ظهرت متأخرة عن مدارس التصوف التى بدأت منذ القرن الثانى الهجرى ، وذلك أنه أسست معاهد فى أوربا وأمريكا لدراسة الروح وأسرارها وتنمية الوعى الروحى بطريقة لاتزال بدائية ، ولكنها قطعت شوطا لا بأس به فى بحث ماوراء المادة ، ومن تلك المعاهد :

١ — كلية البحث الروحى فى الولايات المتحدة الأمريكية .

٢ — الكلية البريطانية للعلم الروحى .

٣ — معهد « ماجناجويسون » .

٤ — المعهد الدولى للبحث الروحى بلندن .

٥ — كلية أد نبرة الروحية .

٦ — المعهد الدولى لما وراء الروح بباريس .

٧ — فروع فى جامعة لندن ، تملك معملا للبحث ، هو الأول من نوعه فى العالم .

٨ — فروع فى جامعة « كمبردج » ، وجامعة « ديوك » فى الولايات المتحدة وجامعة « بون » بألمانيا الغربية . . إن الذين يتمثلون مشهد الموت وهم أحياء ، يدخلون هذا الميدان العسير من أوسع أبوابه وأيسرها ، فالناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وتلك قضية روحية بحتة ، يؤيدها القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم

وأنهم إليه راجعون » ، فلم يقل أحد إن مجرد الظن بأن المسلم سيلقى ربه ويرجع إليه يكفى لتصحيح العقدة عند العامة فضلا عن الخاصة ، فتلك مسألة لابد فيهامن الإيمان واليقين ، إذن فالمراد من الظن فى قوله تعالى: (يظنون أنهم ملاقوا ربهم) هو التدريب على الخشوع بتمثل الموت ، وهو ماتعطيه لغة الآية الكريمة وسياقها ، الذى يحث الحى على ظن الموت وتمثيل مشهده حتى تموت بذلك شهوة النفس ونوازعها ، فيصبح الخشوع والحضور فى رحاب الله ، وحتى يكون ذلك الشعور ملكة من ملكات المؤمن ، يلازمه فى عمل يقصد به وجه الله .

لقد ظفر الصوفية جميعا بنفوسهم وعقولهم ، وطوعوهما لأرواحهم ، ولم يتركوا وسيلة لإنماء هذا الوعى إلامارسوها فى دقة بالغة ، حتى استحال مشهد الموت عندهم إلى عشق خالص ، وحب صـــاف لربهم ، ولكل مايقربهم إليه .

يقول « ملا عبد الرحمن الجامى » رضى الله عنه فى كتابه الرمزى عن « ليلى والمجنون(١) » « أيها الساقى هذه أنفاس الفجر كالمسك الخالص وقد أخذت تهب أنسام الصباح ، وتهب من الخمارة(٢) رائحة الشراب ، فاصح واجذب إليك دنا من تلك الخمر التى تحرق بنورها فراشة العقل ، حينما تتقد بها شموع الروح ، وعندما يحترق العقل ينمو العشق ، ويموت عصفور العقل لترفرف العنقاء بأجنحتها ، فتحرر من وسائل العقل وكن طليقا من عقاله ،

---

(١) ترجمة : غنيمى هلال : ١٧

(٢) الخمر عند الصوفية رمز للوجد ، ومن عجب أن مترجم الكتاب يدعى أنهم تأثروا فى هذا المعنى بـ « فيلون » اليهودى ، وتلك نغمة قديمة بكل أسف ، وما قول سيادته فى قوله تعالى (وأنهار من خمر لذة للشاربين) وهل هذا الرمز القرآنى هو الآخر مقتبس من « فيلون »؟!

حتى تربح فى تجارة العشق ، وتطمئن فى ظلاله ، فالعشق أينما كان طهر وزهد والعقل حيثما كان مكر وحيلة .

أى جامى : بجنون الاشتغال بالعشق ، خلص نفسك من التصنع ، وإذا لم تبلغ شرف تلك الرتبة ، ولم تمارس أصول جنون العشق ، فاجلس واتل القصة ، وانثر السحر من حديث ذلك الإنسان الذى جن من العشق .

ويقول سيدى عمر الشبراوى : إنه « لايعرف الله المعرفة الحقة إلا من فنى واستهلك عن بشريته فى وجود الحضرة الإلهية ، لأن المحبوب الحقيقى إذا توجه بجماله إلى عبده السالك فى طريقه تعالى ، نور قلبه ، فتضمحل رسوم ذلك العبد ، فيموت الاختيارى بموت نفسه كما قال سبط ابن الفارض :

فإحياء أهـل الحب موت نفوسهم
وقوت قلوب العـاشقين مصارع[1]

تلك هى النتائج العملية لتمثل الموت والتوديع قبل الدخول فى الصلاة ، موت تام لأهواء العقل والنفس ، وحياة كاملة للعقل الروحى الذى صور الأديب النمسوى « فرانز ويرفل » نتائجه فى قوله : « ويل للإنسان شك أو آمن إذا فقد القدرة على جيشان الروح ، فكل من جمد على يقين قانع فهو فريسة الشيطان ، أو هو شر من فريسة الشيطان ، هو بمزق سياسة ، ولقد تكون ثورة اليائس حينا من الأحيان خيرا وأقرب إلى القداسة من صلاة الجمود » .

وموت نزعات العقل والنفس وأهوائهما هو الطريق إلى إحكام « الاستجماع » الذى توحى به حروف الصلاة ، بالمادة اللغوية للصلاة (ص ل ى) أو (ص ل و) موضوعة لأصل واحد ، وملحوظة لمعنى مفرد

(١) تنوير الصدر ١٦٠

وهو (الضم والجمع) ، وجميع تفاريعها راجعة إلى هذا المعنى ، ، وكذلك سائر تقاليبها ، فحيثما تصرفت وتقلبت كان مرجعها إلى هذا المعنى .

(فالصلا) وسط الظهر من الإنسان ، ومن كل ذى أربع ، وقيل ماانحدر من الوركين ، وكل ذلك لما فيه من الانحدار والانضمام والاجتماع ، ومنه (صلاه بالنار) شواه ، لأنه ينضم وتجتمع أجزاؤه ، و (صلا يده) سخنها وأدفأها لانضمام الحرارة إليها ، و (صلاه) خاتله وخدعه . لأنه ينضم ويجتمع لخداعه كانضمام الصياد ، ومنه (الصلاية) لمدق الطيب ، يجمع فيه الطيب لدقه ، و (المصلى) من أفراس الحلبة ، يجمع مع السابق ، و (الصلاة) كنائس اليهود ، لاجتماعهم فيها .

و (الصول) تقول منه (صال على قرنه صولا) إذا سطا عليه ، ووثب إليه ، و (الصولة) المكنسة لأنه تجمع بها الكناسة ، و (الصلية) بالكسر عقدة فى العذبة ، و (المصول) شىء يجمع فيه الحنظل وينقع لتذهب مرارته ، و (التصويل) كنس نواحى البيدر ، أى جمع ماتذرق فيه .

و (اللصى) و (اللصو) : تقول منه لصاه يلصوه ، ولصا إليه ، إذا انضم إليه لريبة ، وكذلك (لصى يلصى) كرمى يرمى ، و (لصى يلصى) كرضى يرضى .

و (اللوصى) تقول منه (لاص لوصا) إذا لمح من خلل الباب كالمختفى ، وكذلك (لاوص ملاوصة) و (اللصوص . واللواص . والملوص) الفالوذج لانعقاده وانجماعه ، و (اللواص) أيضا العسل ، لاجتماعه فى الخلية ، و (لاص) حاد عن الطريق ، كأنه طلب الاستجماع والاختفاء ، وكذلك (ليص) .

و (الوصل) تقول منه (وصله وصلا وصيلة) و (وصله) لامه ، و (وصل الشىء ، ووصل إلى الشىء)وصلا ، ووصلا وصلة ، بلغه واجتمع به ، وانتهى إليه ، ومنه (الوصيلة) ، وهى الناقة التى وصلت بين عشرة

أبطن ، والشاة التى ولدت سبعة أبطن عناقين عناقين .

ويظهر من ذلك معنى (الاستجماع) فى جميع مواد الـكلمة ، وهو روح الصلاة ، لأن أفعالها المشروعة فيها اجتماع الجوارح الظاهرة ، والخواطر الباطنة ، وإزاحة جميع المفرقات والمكدرات عن النفس ، واجتماع المقاصد الحسنة ، والخيرات العظيمة فيها . كما توحى لفظة (الصلاة) كذلك بكونها أم الصناعات ، وأصل العبادات ، ومجتمع الأسرار المتفرقة فى العبادات الأخرى . فلا روح فى الصلاة إلا بالاستجماع ، ولا استجماع إلا بموت أهواء النفس المفرقة المكدرة ، ولا موت لهذه الأهواء إلا بتمثيل مشهد الموت ، وصلاة المودع .

وقد صور (الملا الجامى) فيض الله تعالى على من تخلص من أهواء نفسه ، واستجمع شتات روحه ، بأسلوبه الرمزى الساحر حيث يقول : «إنى غريق فى بحر القلزم ، فكيف بالتراب أتيمم ؟ . وإنما أغترف من بحر همتى ما أغسل به عن وجهى هذا الغبار . وذو الجود المطلق هو فياض كل إلهام . وكل طلب من سواه عيب وامتهان . وإذا استطعت الحصول على جوهرة من معدنها ، فمن الضعف أن تلجأ إلى الجوهرى ، الدجلة ملك يمينى حقا ، فلا يليق بى أن أطلب ماء من سقاء ، ولا تخاذ كفى جاما ، والارتواء بها من وشك مائى ، خير من الارتواء بـكأس من ذهب من حياض سقاة آخرين . وحين تفيض اللجة فلا إمساك خشية الإنفاق ، ومائى الجذب خلو الذهن من الخاطر ، وإذا أريد إمساك ماء المورد سدت عينه بحجر من الأحجار ؛ وقد طهرت عين إلهامى من السداد ، ليعم فيضها ، وينساب فى كل جهة ماؤها ، حتى أروى ، وأروى سواى ، سأروى بلحن الغيب ، وأجعل فضل شرابى صدقة »(١) .

إن الأهواء العقلية والنفسية تخضع لأحبولة خبيثة من أحابيل الشيطان ،

---

(١) المرجع السابق : ١٢

قامت عليها سائر المذاهب الوضعية ، والفلسفات الفردية ، وحجتها فى ذلك : أن الشيء يساوى نفسه ، (س = س) فالأمة وليدة الإقليم الجغرافى ، والفرد محكوم بظروفه ولا شيء غير ذلك ، إلى آخره .

وبمثل هذه التفسيرات فسر العقل الشرائع ، وتبع على هذا التفسير آلاف من المشتغلين بالمسائل الدينية فى سلوكهم العملى ، إن لم يكن فى السلوك العلمى كذلك ، ومثل هذه التفسيرات هى مفتاح كل باب عندهم ، فليس فى العالم أسرار ، وكل مافيه من أسرار هو مايفهمونه وحدهم ، لأن العقل لا يوحى بسواه ، وقد نجح الشيطان ـ بكل أسف ـ فى ترويغ الأصول الأولى من المسألة بهذه الأحبولة ، فصرف البصائر عن أصول الخلق والكينونة ، ومنبع الفيض ، وهو الله ، وان تتحقق الروحانية بأى حال إلا بالإلحاح كل الإلحاح ، على المسألة من جانبها هذا .

ويثبت ذلك « رسل والاس » الذى كان شريكا «لداروين» فى إعلان مذهب « النشوء والارتقاء » بعد أن عدل عن مذهب « داروين » فى « الانتخاب الطبيعى » فيقول : « إن فى الكون الروحانى أنماطا من العوامل الفعالة ، من القوى العليا إلى الأرواح الكامنة فى الخلايا الحية ، وربما تعذر إثبات ذلك بالبرهان القاطع ، ولكنه فيما نرى أصلح لتوضيح الوقائع من أى تقدير كان ، ويغلب على النظر الصحيح أن الوقائع الروحية أثبت من الوقائع المادية ، وبذلك تنطق تجارب العلماء ومعادلاتهم ، فالكهرب مثلا ، وإن لم يكن قابلا للتصور فى كيانه المادى فإنه أثبت فى آثاره من قطعة الخشب » .

وقد يشعر كبار الشعراء ، وقديسو الأرثوذكس ، والبراهمة ، واليوجيون وفلاسفة الصين ، بهذا الوعى الروحى ، بنتيجة لنوع من «الاستجماع» غير المنظم ، أو غير الخالص من كل الشوائب النفسية والعقلية ، ولذلك لا يستمر عندهم سوى لحظات ، ثم يعودون إلى حال غير حالهم الأول ، باحثين عن تلك

اللمحة البارقة التى مضت وخلفت لهم الشقاء ، ولكن إحكام الوعى الروحى فى الإسلام ، يجعل المسلم يعيش فى تلك السعادة ساعة وساعة حسب الخطط الذى رسمه الرسول صلى الله عليه وسلم لحنظلة والصديق معا .

إن الوعى الروحى فى غير الإسلام قائم فى معظم حالاته على الرياضة النفسية فحسب ، أما فى الإسلام فالذى يفجره فى الأعماق ماهو إلا جامعة الصلاة ، التى تضم الطلاب من روضة الأطفال إلى كبار المعلمين .

وما على المصلى الذى تسقط بصلاته الفريضة فحسب ، دون أن ينعم بثمرات الاستجماع فيها من حرج ، ولكنه تلميذ صغير يجب أن يستمع إلى إرشاد المعلمين ، حتى يرتفع بنفسه إلى مجال روحه ، ويسلم نفسه إلى ذلك المجال ، فينعم بالسعادة فى ذاته ، ويسعد بها غيره ، وهو عمل اجتماعى جليل فوق مايحرزه من رضا وحب وإشراق .

ويؤكد « أينشتين» هذا المسلك الروحى حيال الكون كله حيث يقول : « إن الإنسان الذى لم يختبر وقفة من وقفات الصوفية حيال ذلك العالم ، ولم يشعر نحوه بالروعة ، هو حى حكمه حكم الميت » . وهى حالة الدوام على الصـــلاة التى شرحناها من قبل فى قوله تعالى : (والذين هم على صلاتهم دائمون) .

ويعجب الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى من ذلك الإحكام الذى تهدف إليه طقوس الصلاة ، ويشير إلى مشهد الموت فيها بقوله : « عجبا : ألا ترى أن كل عبادة لاتمنع من قامت به التصرف فى بعض أسبابه إلا الصلاة ، فإنها تغلق على من قامت به جميع أبوابه ، فمقامها الغيرة ، ومشهدها الحيرة ، أنية المحتد والمولد والمشهد ، وهى أسنى تكليف يعقد ، ولما كانت محل إدراك المنى ، طولب المكلف فيها بالفنا » .

وهذا الفناء الذى يطالب به المكلف فى الصلاة هو الموت الاختيارى الذى أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ؟) .

والآية الكريمة تحتمل أن يكون المراد منها ـ والله أعلم ـ أن الأرواح كلها كانت حية يوم العهد الميثاق حين أشهد الله المخلوقات على أنفسهم فلما عمرت الأنفس الأجسام الطبيعية فى الدنيا فارقها العلم بمعرفة الله وتوحيده ، فبقيت ميتة موتا روحانيا ، فحاول العقل والهوى النفسى أن يحييا النفس بنوع من العلم العقلى ، فضل العقل وأضل النفس ، فإذا أراد الله بعبد خيرا وفقه إلى موت تلك النزعات العقلية والنفسية وجعل له نورا يمشى به فى الناس .

إن كل ما سوى الروح حجاب ، وليس هناك شىء غير الروح سوى الجسد ، فالجسد المادى الكثيف هو الحجاب الذى يحول بين الإنسان وبين شهود الروح الإلهى المنقوح فى أعماقه ، وهو الذى يحول دون الموت الاختيارى الذى يدفع الإنسان إلى عالم النور ، وليس معنى هذا أن نقتل الجسد ونقضى عليه أو نعذبه ، أو نهمل بناءه ، بل إننا نريد ألا تتعلق الهمة بمطالب الجسد ، حتى تخف كثافته ، ويتخلص إلى آفاق الشهود العليا ، وهو ما عبرت عنه الشريعة « بالزهد » .

وأول درجات الزهد ألا تبالى بهوى النفس على أى حال أمست أو أصبحت (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) وأن يمنع الإنسان نفسه من الاستغراق فى الشهوات ، حتى يتيسر لها ترك الهوى .

ويرى وكيع بن الجراح ، وسفيان الثورى ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم ، أن الزهد هو « قصر الآمال » لأن من قصر أمله كانت الغفلة منه بعيدة .

وقال بعضهم : الزهد فى الدنيا هو الرغبة فى الآخرة ، فالرغبة فى الآخرة يدفع إلى العزوف عن الدنيا ، وإلى السخاء بها لتحصيل الآخرة ، وهذا المقام نازل عن مقام كبار العارفين ، لأن هؤلاء الكبار قد زهدوا فى ثواب الآخرة ؛ بل زهدوا فى الجنة كذلك ، وقنعوا بمشاهدة الله وقربه والبعد عن مكارهه ، وحب محابه . وليس هذا المسلك غريبا عن الإسلام كما يتوهم

البعض ؛ فقد أقره الرسول صلى الله عليه وسلم ، لما عرض حارثة حاله عليه قائلا :

إنه عزفت نفسه عن الدنيا فأظمأ نهاره وأسهر ليله .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مؤمن نور الله قلبه ، عرفت فالزم » .

الزهد لايكون فى الإسلام عن عدم. بل عن وجود . فالزاهد المسلم يخرج قيمة الأشياء من قلبه وهو يعيش فيها و بين زخارفها ، يضعها فى يده ، وينتزعها من قلبه ، يستخدمها ولاتستخدمه ، ويستعبدها ولاتستعبده ، إذا فقد لم يحزن ، وإن وجد لم يفرح ، الوجد والفقد عنده سواء ، لايذم الدنيا ولا يمدحها .

وأعلى أنواع الزهد أن يستوى عند الزاهد الحجر والذهب ، ولم يتحقق ذلك إلا لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، لأنه امتاز عن سائر المؤمنين بشىء وقر فى قلبه كما نبه على ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم .

والزهد يجعل الهموم هما واحدا و « من جعل الهموم هما واحدا كفاه الله سائر همومه » .

فحقيقة الزهد : هى الزهد فى الحلال ، وهو أن تخرج حب الأشياء من قلبك ، وحينئذ ترتفع أكثف الحجب عن قلبك فينطلق إليه نور الروح السارى فى جميع الأكوان .

ولاتجزع إن عاودك الحنين إلى شىء من هوى النفس ، فإنما هى انتفاضة المذبوح الذى يلفظ أنفاسه الأخيرة إنه نوع من الجوع الكاذب إلى الشهوات وما عليك إلا أن تصبر قليلا حتى يشرق عليك نور الروح ، وتغمرك السعادة وتهون فى عينيك كل لذة من لذات النفس وتستعذب فى سبيل لذة الإشراق الروحى كل شدة ، هدانا الله جميعا لكل خير برحمته .

الذين أخلصوا دينهم لله

قال أبو سعيد الخراز : رضى الله عنه . « لا تغتر بصفاء العبودية فإن فيها نسيان الربوبية » .

فقيل له : « فما الخلاص ؟ » .

قال : « أن تشهد صنع الربوبية فى إقامة العبودية ، فتنقطع عن نفسك وتسكن إلى ربك ، وهناك تسلم من الاستدراج » .

تلك آفة دقيقة من آفات الإخلاص ، هى « الغرور بصفاء العبودية » وهذا الشعور بصفاء العبودية لا يعتبر فى ذاته قادحا فى الإخلاص ، ولكنه قد يجر العبد إلى الاستدراج الذى يجر بدوره إلى رؤية النفس وملاحظتها ، والوقوف عند هذا الصفاء ، ونسيان الرب الفعال لكل شىء ، ولذلك كان علاجه كما أوصى أبو سعيد الخراز : أن يشهد العبد دائما صنع الله تعالى فى إقامة العبودية ، أى أن حركات العبادات كلها متى قامت بالإنسان ، فالحقيقة أن العابد لم يقم بها بنفسه ، وإنما أقامه الله فيها ، وحركه إليها ، وأتم عليه نعمته بها ، وفى ظلال هذا المشهد الدائم يسلم الإنسان من الاستدراج الذى يؤدى إليه الغرور بالصفاء فى العبادة .

وقال أحمد بن أبى الحوارى ، لأبى سليمان الدارانى : « صليت أمس صلاة فى خلوة ، فوجدت لها لذة » .

قال أبو سليمان : « وأى شىء ألذ منها » .

قال أحمد : « كونه لم يرنى فيها أحد » .

قال أبو سليمان : « يا أحمد إنك لضعيف ، حيث خطر بقلبك ذكر الخلق ،

وتلك المحاورة تشير إلى آفة أخرى من آفات الإخلاص ، هى « أن يخطر ذكر الخلق بقلب العابد » فيما يتصل بعبادته ، حتى ولو كان قد أخفى عمله عن الخلق إخفاء تاما ، وليست تلك الآفة محبطة للعمل ، بل إنها دلالة على الضعف بالنسبة لكبار العارفين لا بالنسبة لعامة المؤمنين ، وهى فى الوقت نفسه دلالة على الدقة البالغة فى تفقد أحوال القلب وتمحيصه من كل شبهة ، حتى ولو كانت من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

وقد وضع يحى بن معاذ الرازى رضى الله عنه ، قاعدة عامة للأعمال الصالحة التى تتوافر فيها أركان الإخلاص فقال : « العمل الصالح هو مايصلح للعرض على الجليل ، ولا يستحى منه فى تلك المشاهدة يوم البكاء والعويل ، ثم قال ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

ويذكر الجنيد رضى الله عنه ، قاعدة أخرى أوضح تخصيصا فيقول : « لا يتم الإخلاص فى العمل إلا بارتفاع رؤيتك ، وفنائك عن فعلك » . وتكاد تكون تلك القاعدة إيضاحا توضيحا لرأى أبى سعيد الخراز الذى ذكرناه أول هذا الفصل ، فالعمل الخالص هو الذى يخلو من نظر الإنسان إليه على أنه عمل صدر فعلا بإرادة فاعله ، ثم ينسى العبد عمله نسيانا تاما ، فلا يقع فى ورطة ذكره أمام الناس ، أو بينـــه وبين نفسه . ولذلك كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إذا خطب واستحسن خطبته قطعها ، وإذا كتب الكتاب ، واستحسن عبارته فيـــه خرق الصحيفة ورمى بها لمعرفته بآفات الكلام .

وكل هذه القواعد تهدف إلى تخليص الإنسان من رياء الإنسان لنفسه ، فالرياء أساس عدم الإخلاص وهو نوعان : رياء الإنسان لنفسه ، ورياء الإنسان لغيره . وقد كان السلف رضوان الله عليهم من أشد الناس تحريا لصحة أعمالهم ، وتخلصها من الرياء .

ويقول عبد الله بن المبارك فى فضل الخلاص من الرياء : « لو صح لعبد

فى عمره نفس بغير رياء ولا شرك ، لأثر بركات ذلك عليه آخر الدهر) .

ويروى فى الآثار أنه قيل لامرأة متعبدة : (فى أى درجة أنت ؟) . قالت : لاأطلع قميصى الذى على جلدى على الدرجة التى أنا فيها ، مخافة أن أسلبها .

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه حذر من الشرك ، فلما سئل : هل تشرك أمتك بعدك ؟ قال . (إنهم لايعبدون شمسا ولا قمرا ، ولا وثنا ولا حجرا ، ولكن يراءون الناس بأعمالهم ، وإن يسير الرياء شرك) . والشيطان يوسوس للإنسان فى صلاته بخمسة ألوان من الوسوسة .

ا – يدعوه إلى القعود عن الصلاة والكسل عنها .

ب – إذا لم يفلح فى منعه دعاه إلى التعجيل بها ، وعدم الإطالة فيها ، فلا يقيمها إقامة كاملة .

حـ – مراءاة النفس والناس بالصلاة ، حتى يحسن ظنهم فيه .

ء – العجب بالصلاة ، واعتقاد الفضل على الغير فى إتقانها وإحكامها .

هـ – اليأس من قبولها وقبول صاحبها .

وقد حذر الخليفة عمر بن الخطاب من لون من الانحراف يجره على الإنسان خوفه من الرياء حيث يقول : (خشينا أن يدخلنا خوفنا من الرياء فى تسعة أعشار الرياء ، ومعناه أن يترك العبد كثيرا من الأعمال الصالحات خوفا من دخول الرياء فيها ، وترك العمل لأجل الناس شرك واضح .

والإخلاص هو أن تستوى أعمال العبد فى الظاهر والباطن ، فإذا خشع ظاهره ولم يخشع باطنه ، أو صلى بظاهره لله ، وبباطنه لحب المحمدة

بين الناس ، أو أعجبته نفسه فغفل عن إصـــلاح نيته ، كان مرائيا لا إخلاص فى عمله .

والإنسان المخلص يكتم حسناته كما يكتم سيئاته ، لأن التحدث بالحسنة يحمل معنى طلب المحمدة عليها ، وهو قادح عظيم فى الإخلاص .

ومن دقائق تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم ، مارواه أبو أمامة : (كنا نمشى خلف الرسول صلى الله عليه وسلم ، فسمع خفق مقالنا ، فوقف وقال : امشوا . فلما مشينا قال : إنى سمعت خفق نعالكم فخفت أن يدخل قلبى شىء) وما يروى من أنه لبس ثوبا له أعلام ، ونظر إليه مليا ، ثم خلعه وقال (ايتونى بأنبجانية) ، ومن أنه خلع خاتماكان صنع له ليختم به الكتب مخافة أن يعجبه ، وما روى عن عمر بن الخطاب حينما ركب فرسا ، فاختال به ، فنزل وركب حمارا ، لئلا يعجب بنفسه .

وهذا التعليم هو محاولة لسد جميع منافذ الرياء ، قبل أن يدخل إلى القلب ، والوقاية خير من العـــلاج ، وهو مايجب أن يسير على هداه المؤمنون جميعا .

وروى أبو طالب المكى ، أنه سئل بعضهم عن الفرق بين إخلاص العبودية ، وإخلاص الهمة ، وإخلاص التوحيد . فقال : إخلاص العبودية صفاء التوجه إلى الله مع صحة العمل ، والتبرى من الحول والقوة ، وإخلاص الهمة قطع العلائق من القلوب ليصفو من التشتت فى أعيان الغفلات ، وإخلاص التوحيد إفراد الله بالتخلص وسقوط الدعاوى .

ثم يعلق المكى على ذلك بقوله : (كيف يخلص العمل وأنت باق فى العمل ، تشهد العمل ، وترى حركاتك فى العمل ، ولا يخلص عملك حتى تفنى عن رؤية عملك ، ثم تبقى بعد الفناء بربك ، ثم تفنى بعد البقاء فى بقائك ،

فهناك يخلص لك العمل ، ويرفع لك المحل ، وتنزل فى المقام الأجل .

وليس من الإخلاص عقد النية عـــلى عمل فيه نقص التماسا للفضل والقرب ، كما روى أن رجلين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تآخيا على العبادة ، واعتزلا الناس ، فقال أحدهما لصاحبه : هلم اليوم فلنفرد عن الناس ، ونلزم الصمت ، ولا نـكلم من كلمنا ، فإنه أبلغ فيما نريد من القرب إلى الله تعالى ، فاعتزلا فى خلوة وصمتا ، فمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم عليهما ، فلم يردا عليه السلام ، فسمعا (حين جاوزهما يقول : هلك المتعمقون ، هلك المتنطعون ، فاعتذرا إلى النبى وتابا من ذلك .

وقد يعقد العابد نيته على عمل يقصد به وجه الله ، كالصلاة فى الجماعة ، ويدوم على ذلك زمنا ، ثم تعزب نيته ويبقى على عادته ، لئلا يخرج عن عرف الناس له ، فيعمل لاستدامة تلك الحال ، على التكلف ، بحـكم العادة ، فيدخل فى إرادة الدنيا بالشهوات ، أما إذا كان ابتداء العمل بحـكم العادة فإنه يذهب بلا ثواب ولا وزر ، وفى ذلك إضاعة للوقت كما هو ظاهر .

والتحدث بالأعمال يعارض الإخلاص ، إلا إذا كان المتحدث إماما يقتدى به ، ويتحدث بذلك للتعليم وحفز الهمم على العمل .

أصول الحضارة الإسلامية

البيئـــة

المدرسة الأولى التى تعلم فيها الرواد الأوائل للحضارة الإسلامية على يد الرائد الأعظم سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، هى « مكة المكرمة » .

والمدرسة الأولى التى تلقى فيها الرائد الأعظم ، صلوات الله وسلامه عليه ، درس الحضارة الأول ، على يد الروح الأمين جبريل عليه السلام ، هى غار فى ظاهر مكة ، يسمى « غار حراء » .

والذى يدرس طبيعة « غار حراء » المبارك دراسة طبيعية يطالعه عجب عجاب ! ! .

الطريق إليه بالغ الوعورة لايتم الصعود إليه إلا بجهد جهيد وقفر بباب لا أثر فيه لما يقيم الحياة ، وصخور صلدة ليس فيها من الجمـــال إلا جمال القطرة ، وسكون يملأ النفس رهبة وجلالا ، ويغلق على من يقيم فيه كل باب من أبواب الحسن إلا باب التأمل العميق الصامت ، والاستبطان البعيد الأغوار ، والحساسية الممعنه فى العمق لكل حركة مهما قل شأنها ، ولكل صوت مهما خفت وحيه ، وبل وحساسية هائلة للصمت نفسه ، توحى بأكثر ما توحى به الحركات والأصوات المسموعة .

تلك هى المدرسة الأولى التى تلقى فيها الرسول الأعظم ، صلوات الله وسلامه عليه ، درسه الأول : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم) .

والذى يستطيع أن يدرس طبيعة « مكة المكرمة » ، فإنه يرى بلدا تحيط الجبال من كل جانب ، صاعدة من حولها فى علو شاهق ، حيث تستقر

(أم القرى) فى مكان ينخفض عن مستوى البحر انخفاضا غير قليل ، حيث يقل الماء وتجدب الأرض وتتحجر التربة أو تجف ، وتمتد الجبال من حولها إلى مسافات شاسعة ، تتناثر فى أرجائها مراع هزيلة لا تصلح لإقامة البدو إقامة دائمة ، وعلى مقربة من (أم القرى) ينساب (عرفات الخير) فى يسر وسهولة غريبة عن تلك البيئة الوعرة ، حيث ترقد الأسرار منذ أحقاب التاريخ البعيدة ، وحيث احتفظ هذا المكان الطاهر بقداسته التاريخية ، رغم ابتدال العقيدة السائدة بين الناس فى ذلك العصر ، وعلى مرمى النظر تبدأ الصخور والجبال الصاعدة نحو (الطائف) إحدى القريتين حيث الخصب والنماء ، والتقليد المنحل لمدنيات فارس ، وبيئة الصحراء ، وفى قلب (أم القرى) وفى مكان منخفض جدا يقبع أول بيت وضع للناس ، ومن حوله الحرم الآمن الذى احتفظ بقداسته هو الآخر ، وإن شذت العقيدة ، واضطرب الفكر الروحى لدى العرب فى ذلك العصر .

ومن حول هذا البيت العتيق يحاه بالقوة النابعة من معين الطبيعة الخالص ؛ والذى لا يعتمد بعد السيف والدرع إلا على نوع الترابط القبلى وتمجيد البطولة ، والشعر الذى يحفز الأبطال إلى البذل والفداء :

وكانت هناك قبائل تعمل فى التجارة بين الشام واليمن وغيرها من البلدان وتتلقى إنتاج الفرس والروم والهند ، وتتنقل فى رحلات تجارية منظمة ، لا تلبث بعدها أن تعود إلى مكة لتمارس نشاطها القبلى ولياليها الصاخبة بين صمت الصحراء وبريق النجوم ولتقارف مباذلها التى اعتادتها على (الخمار) أبى مريم فى الطائف وغيره البلاد الأخرى ، ولم تكن هناك ثقافة مستقر فى أعماقهم إلا ماورثوه فى البيئة من معارف عامة وما شهدوه فى تنقلاتهم التجارية ، وما اقتبسوه من عادات القبائل المجاورة والبعيدة ، حينما يجتمعون فى (عكاظ) و (مجنة) و (ذى المجاز) فى موسم الحج من كل عام ، أو فى غيرها من المناسبات التى كانت تدفعهم إلى اللقاء فى حلف مقدس أو تجارة قوافلية .

لم يكن هناك أمل فى استعمار ثقافى يصل إلى مكة ، ويتأصل فيها ، نظرا لعسر الحياة ، وحاجة تأصيل المذاهب الثقافية إلى استقرار طويل ، إذا استثنينا اقتباس الأصنام من الشام - إن صح هذا القول - لأنه كان تحت ضغط الحاجة المضطربة إلى الإيمان والحماية التى توحيها بيئة البداوة العميقة .

كان هناك بعض الرهبان القلائل قد انعزلوا عن الحياة فى كهوفهم ، أو فى صوامعهم ، كما يحدثنا التاريخ عن « ورقة بن نوفل » و « قس بن ساعدة الإيادى » ، ولم يكن هؤلاء الرهبان القلائل فى حالة استعداد لنشر المبادىء المسيحية بين قبائل مكة ، أو على الأقل لزعزعة الإيمان بالأصنام ، إذا استثنينا خطبة قس بن ساعدة فى عكاظ ، إن صحت روايتها .

وكانت المذاهب الغريبة تتخذ مدارسها فى أصقاع أخرى تبعد عن مكة من الجزيرة العربية .

كانت اليهودية فى اليمن ، وفى المدينة المنورة ، وما يليها شمالا إلى جهة الشام ، وكانت المسيحية فى نجران جنوبا ، وبعض القرى الشمالية المجاورة لمملكة « أبى قابوس » الصغيرة ، وكانت مذاهب الدهرية وما أشبهها من مذاهب الفلسفة تراود عرب نجد ، لقربهم من « إيران » وما تاخمها .

وعلى هذا فالمكان الوحيد الذى ينعزل ثقافيا وقوميا عن العالم ، بحيث لا يتأصل فيه مذهب ثقافى معين ، ولا جنس غريب عن الجنس العربى ، إلا ما كان من الموالى والعبيد ، هو « مكة المكرمة » أم القرى ، وذات البيت العتيق .

وكانت لديهم بعض المعلومات التاريخية عن القبائل القديمة والمعاصرة ، فتخصصوا فى معرفة الأنساب تخصصا يندر أن يوجد بين غيرهم من الأمم .

ومن أجل انعزال مكة هذا ، من الناحية الثقافية والفكرية ، كانت

أصلح مكان فى العالم المعروف حينذاك ، لتكوين « رجل الفطرة » القابل لشحنات الروح ، المتعطش لامتصاصها وتمثيلها ، والتى لا يمكن أن تتخذ طريقها إلى فاعلية جدية ، إلا فى بيئة فطرية كهذه البيئة القابلة لكل تعليم مركز .

ولم تكن البيئات المادية التى تتمثل فى « بنى أمية » صالحة لزعامة الوعى الجديد ، لما تدين به من غطرسة وكبرياء وغرور وحب للسيطرة ، وهواية للزعامة ، إذا استثنينا قلة منهم سيطرت على البيئة ، كذى النورين « عثمان بن عفان » وعمر بن عبد العزيز ، وقليل مثلهما رضى الله عنهما .

وكانت البيئة الوحيدة الصالحة لزعامة الأمر الجديد ، هى بيئة « بنى هاشم » لصلاتهم القريبة بالبيت الحرام وسدانته وسقايته ، وغير ذلك من خدماته وانتشار مذهب « الحنفاء » بين أفراد منهم ، كنتيجة حتمية لخدمة البيت الحرام ودراية تاريخه وتاريخ المذاهب التى تعاقبت عليه ، وحنينهم إلى أبى الحنفاء « ابراهيم » عليه السلام .

وكانت البيئة الصالحة لتكوين الفصل الأول من مدرسة الحضارة الكبرى هى بيئة الفقراء والعبيد ، والصفوة الرشيدة من أغنياء قريش ، الذين أضفى عليهم رشدهم مبدأ خلقيا يؤمنون به ، كالصديق رضوان الله عليه ، وذى النورين صاحب الحياء والإيمان .

ومن هنا نستطيع أن نركز أصول البيئة التى رفعت مشعل الحضارة الإسلامية ، فأضاءت العالم كله فى ربع قرن من الزمان ، لا يكفى لإصلاح قرية واحدة من القرى ، فى عصر المدنية والعلم الحاضر ، فى :

ا) الانعزال الثقافى .

ب) البيئة الطاردة .

حـ) المادية الضيقة .

ء) قبس من التاريخ الروحى يكاد يخبو .

وفى الوقت نفسه ، هى تلك الأصول التى تعد إنسانا فطريا ، يستطيع قهر البيئة ، والسيطرة عليها ، وتطويعها لتعاليمه ، إذا أتيح له قدر معين من الوعى النازل من السماء .

أما ذلك الرجل الذى تحتويه البيئة ، وتسيطر عليه ، وتطوعه لتقاليدها فذلك هو « رجل المال » والاستقرار ، والصلات الثقافية غير الناضجة أو رجل أحد هذه العوامل ، أو أكثرها ، والذى ملأ فراغ نفسه بليالى الصحراء ، وحوانيت الخمارين ، وخيام القوادين الحمراء .

ومن هنا نستطيع أن نلفت الأنظار إلى خطأ يقع فيه أساتذة الأدب العربى ، حينما يعرضون أثر البيئة فى الفكر كقضية عامة محكمة الأطراف لاشذوذ فيها .

ونستطيع كذلك أن نركز أصول البيئة التى تصلح لزعامة الوعى الجديد وقيادة جحافله ، ممثلة فى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فى :

ا) الانعزال عن المجتمع إلى حد كبير .

ب) الزهد فى المباحات .

حـ) الفطرة الطاهرة النقية .

ء) قلة النصير من الأهل والمال .

هـ) ثوران فى داخل النفس ، يدفعها إلى العمل والتلقى فى إبهام وخفاء وعمق وثبات .

وذلك الرجل هو الذى يستطيع دفع الشرارة الروحية التى يتلقاها من العالم المبهم إلى قلوب المستعدين بقوة الإيمان ، فتستحيل تلك الشرارة إلى نور يشع فى عالم الظلام ، فيثل العروش ، ويجترف الممالك ، وينشر العدل الإلهى فى أقرب وقت ، وفى حركات خاطفة سريعة ، تنصر بالرعب مسيرة شهر ، وتهيء القادة الراشدين لأن يخطب ودهم أعظم الملوك فى أعظم دول العصر ، كما حدث مع الفاروق رضى الله عنه .

الروح

تتصارع فى داخل الإنسان قوى ثلاث هى :

ا) الغريزة (أو النفس) .

ب) العقل الغريزى .

ج) العقل الروحى (أو الروح).

وبالتالى ، يتخذ هذا الصراع بين القوى الثلاث شكلا رهيبا فى المجتمع حيث تختلف الأهواء والنحل ، وتتكدس الآراء الإصلاحية على مر السنين فتتخذ شكلا متحجراً ، لا يستطيع الإنسان الذى يواجهه أن يفلت من إساره أو إسار بعضه ، أو الحيرة بين الآراء المتصارعة على الأقل .

ومن مظاهر هذا الصراع الرهيب أن يسيطر على التوجيه الثقافى التجارى أشكال من أنصاف ذوى الوعى ، لهم ضجيج ، وفى خصومتهم لدد ، وبين ثنايا عقولهم تعصب مرذول ، يرون معه الفساد صلاحا ، وتخريب التاريخ تجديدا ، وتعقب المثل العليا بالهدم والتحطيم تقدما . (إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) . (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون).

وقد تندفع المجتمعات من جراء ذلك الصراع إلى الصدام المسلح فى كثير من الحالات التى وعاها التاريخ ، والتى ما زالت تطل علينا منها حالة تنذر بالدمار الشامل ، وفى بيئة كهذه البيئة يضيع صوت الحق بين جلبة أنصاف العلماء ، وبين زئير الشهوات فى أعماق النفوس .

أما فى بيئة فطرية كتلك البيئة التى أوضحناها فى الفقرة السابقة ، فإن الطاقات المتفجرة عن المعين النبوى الفياض ، التى يمكن أن نطلق عليها « الوعى

الروحى ، تتخذ مكانها إلى أعماق النفوس المتلقية ، فإذا بها فى لمحات سريعة أرواح خالصة ، تعمل فى نشاط و بلاغة بالله ولله و بعقل الروح .

والعقل الروحى الذى نقصده هو ذلك الجانب المباشر للروح ، حيث يسيطر فى نفس اللحظة على الجانب المباشر للنفس بل على النفس ذاتها .

وليس معنى كلامنا أن النفس تفقد قواها ومشاعرها وغرائزها فى ظلال الحضارة الإسلامية ، ولكنها تخضع لسلطان الروح التى توجهها ولا تقتلها ، تحد من حريتها المطلقة لئلا يتعدى شرها إلى الغير ، تقنعها بالمثل العليا ، وتربطها إليها بوسائل مختلفة لئلا تتصادم الجماعات والأفراد لأسباب تافهة . إن النفس فى الإسلام مثلا لا تفقد الغريزة الجنسية ، ولكنها تمارسها فى ظل النظام الإسلامى بإيجاب وقبول ومهر وشهود .

وفى بيئة معاكسة للبيئة الإسلامية الأولى ، تقع تلك "طاقة الروحية لا على أعماق الروح ، ولكن على ظاهر النفس ، حيث تكون بأهوائها قد استحكمت وسيطرت على الروح ، فلم يبق فى الكيان البشرى إلا النفس وعقل النفس ، أو الغريزة وعقل الغريزة ، ذا قابلية من ذلك الحطام إلى أى تعاليم أو مثل أخرى .

أما العقل فى غالب الأمر فإنه تابع للغالب ، يسوغ له هواه فى هذه الحالة الأخيرة ، ويتخذ فى سبيل ذلك طرقا ملتوية من التأويل والتضليل .

المسألة إذن ليست علما مطلقا كما يظن بعض الدارسين ، وإنما هى علم موجه نحو التسامى ، لأن كثيرا من نماذج العلماء يعطينا الدليل القاطع على عدم توفيق القائلين بمبدأ العلم المطلق كأصل من أصول الحضارة الصحيحة عامة ، والحضارة الإسلامية بوجه خاص ، إنه علم العارف ، أو عرفان العالم .

(واتقوا الله ويعلمكم الله) .. (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

(شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) .

وسنزيد هذا الموضوع بيانا فى الفقرة القادمة بحول الله وقوته .

والذى حدث فعلا فى تأسيس حضارة الإسلام الأولى فى أول خطوة من خطواتها ، وأول بناء فى أعمدتها ، هو انطلاقة روحية تلقاها النبى العظيم صلوات الله وسلامه عليه ، فى غار حراء ، فسيطرت على منطقة الإبهام الثائرة فى أعماقه ، ونفخها النبى بدوره فى تلك الهياكل المحطمة ، والأشلاء المتناثرة ، والبيئة الممزقة ، فقامت على ساقها قومة رجل واحد ، تحدوها الروح وعقل الروح ، إلى قمة التاريخ البشرى كله .

لافقر . فقد انحلت قبضة النفس على المال ، فأعان الأنصارى أخاه المهاجر ، وبلغ التعاون قمته حينما خير الأنصارى أخاه المهاجر بين زوجاته ، لينزل له عمن يريد منهن فيتزوجها .

لا أنانية . فالكل يعمل لا لنفسه ، ولكن للمجموع ، دون حاجة إلى قانون رادع ، ولا قابلية للتهديد ، وقصة بناء مسجد المدينة وتسابق الصحابة إلى القيام بأكبر جهد ممكن فيه ، خير شاهد على ذلك ، إن لم تكن فى الحروب دلالة لدى البعض على الإيثار والفداء .

لانفس ولا هوى ـ فقد غرق الاثنان فى أمواج النور الروحى ، وغمرتهما السعادة حتى فقد الرواد الأوائل الألم حيث يكون الشعور بالألم من عقبات الوعى الروحى المدمرة ، ولذلك ماسمعنا بلالا يئن من العذاب الوحشى الذى ناله من سادته الكفار ، بل كان يردد قوله الأسمى « أحد . أحد » . ولذلك أيضا لم تمت دعوة الوعى الروحى مع الأهوال التى لاقاها شيوخها فى عهدى الأمويين والعباسيين .

وإذا وازنا بين الحضارة الإسلامية فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعهد الصديق والفاروق رضى الله عنهما ، والعهد الذى بدأ من مقتل عثمان رضى الله عنه وقيام الأمويين للاستيلاء على الحكم ، والعهد الذى بدأ بتولى يزيد بن معاوية وما بعده ، فإنا نستطيع أن نقول : إن

العهد الأول هو عهد الروح الخالص ، وإن العهد الثانى هو عهد الصراع بين الروح والعقل ، وإن العهد الثالث هو عهد سيادة النفس والغريزة . إذا استثنينا عهد عمر بن عبد العزيز .

كان أمير المؤمنين على كرم الله وجهه يمثل سيطرة الروح ، فلم يقدم رشوة للجيش ، لأن الرشوة انتصار للمادة على الروح ، وكان يرى بعض الكبار من جيشه يدعونه حيث المال والرغد جاء فى غير مكانه وزمانه ، وكان يعلم ماينتهى إليه أمره ، ولكنه كان يدرك دورة حتمية لابد أن تتم ، فآثر أن يكون موقفه الدقيق تسجيلا لأسس الحضارة الإسلامية ، حتى كتبه الله تعالى فى قلوب المؤمنين بدم الحسين سيد الشهداء .

وكان العهد الأموى ومابعده دور التدهور والانحلال ، بالرغم من ازدهار الحركة العلمية والأدبية والعمرانية فى العصر العباسى ، فقد كان ازدهارا نفسيا عقبه ارتطام فى هوة الانحطاط من الوجهة الحضارية الحقيقية ، أى أنها كانت مدنية ولم تكن حضارة ، إذا اعتبرنا المدنية وحى العقل النفسى ، والحضارة وحى العقل الروحى .

ومن هذه المظاهر نستطيع أن نقرر أن حضارة الإسلام الزاحفة لا تتأصل إلا على أساس متين من الوعى الروحى ، يكون الرائد الأول لجميع تصرفات الإنسان المسلم ، فإذا ماكان رائده الوعى النفسى فهو فى دور الانحلال ، إن لم ينته به الانحلال فعلا إلى الاستعمار وعبودية الإنسان للإنسان .

ونستطيع أن نقرر أن خطر أنصاف العلماء ـ مهما كانت شهادات العلم الرسمية تملأ جدران بيوتهم ـ فى عهود الانحلال أو فى الدور الذى يسبقها لايقبل فى بشاعته عن الانحدار نفسه .

إن الروح هى الطاقة الهائلة التى دفعت جيوش العدل إلى منتهى مدها . فلما ضعفت تلك الطاقة عادت رويدا تلك الجيوش إلى نهاية جزرها .

العلم الموجه

(اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم) .

(واتقوا الله ويعلمكم الله) .

(إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

(شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) .

تلك هي الأصول الأولى للعلم الذى يعتبره الإسلام أصلا لحضارته النموذجية ، التى اقتحمت أقطار الشرق فى ربع قرن من الزمان ، وكان يمكن أن تقتحم هذه الحضارة الإسلامية النموذجية بقية أرجاء المسكونة ، فى قرن واحد من الزمان ، (حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله) . فإذا ماتراجعت أمواج الحضارة الإسلامية ، فإنما هى تراجع الاستعداد لقفزة أخرى يصدق الله وعده فيها بتحقيق السيادة العالمية لحضارة الإسلام ، تلك السيادة التى بدت بشائرها فى العصر الحديث بحول الله وقوته .

التقوى هى مدرسة العلم الحضارى فى الإسلام .

أكبر العلماء لايزال طالبا فى مدرسة التقوى ، يتلقى فيها من الله ، ما دامت الخشية تخالط قلبه .

العلم الحق فى الإسلام هو العلم الذى يضع صاحبه فى ترتيب تنازلى بعد الملائكة الآخذين عن الله ، وهو العلم الذى تسيطر عليه الروح لا النفس ، أى العلم النازل من السماء لا الصاعد من الأرض ، والتقوى والخشية فى النصين الكريمين الأولين هما من خواص الروح ، لامن خصائص النفس ، ولا خصائص العقل الغريزى .

والسلوك الثقافى الذى يجب أن يتناول المجموعة الإسلامية كما تناولها فى العصر الأول ، هو « العمل بالعلم » حتى ولو لم يستكثر المسلم منه ، فكثير العلم بدون عمل شهوة نفسية ، و « من عمل بما علم أورثه الله علم مالم يعلم » .

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) .

(لمثل هذا فليعمل العاملون) .

« اعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » .

ويقول مالك بن دينار : « إذا تعلم العبد العلم ليعمل به كثر علمه ، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فجورا واحتقارا للعامة » . وقد نهض الرعيل الأول بالعلم ، وحثوا المجتمع كله على تعلمه ، فهاهو عروة بن الزبير ، يقول لأولاده : « تعلموا العلم فإنكم إن تكونوا صغار قوم ، فعسى أن تكونوا كبار قوم آخرين ، ما أقبح الجهل سيما من شيخ » ، وفى هذا القول مايحتم على المجتمع الإسلامى الأول أن يكون العلم عدته الأولى فى بناء الحضارة الجديدة .

والعلم النافع ليس هو الذى يدفع صاحبه إلى الغرور ، واحتقار من دونه ، والحقد على من فوقه (١) ، وذلك حماية للمجتمع العلمى من أهواء النفوس التى كان يخشى منها فى بيئة قد استجابت للعلم حتى نبغ فيه العبيد والموالى ، من أمثال : عطاء بن رباح ، ويزيد بن أبى حبيب ، والحسن البصرى ، وابن سيرين ، ومكحول ، وطاووس ، والنخعى ، وميمون بن مهران ، والضحاك (٢) .

ومن أجل ذلك رفع الإمام أحمد بن حنبل همة العلماء فوق الأهواء

---

(١) ترجمة عبد الله بن عمر فى « الطبقات الكبرى » للشعرانى .

(٢) ترجمة عطاء بن رباح من « الطبقات الكبرى » للشعرانى .

الشخصية ، وربطها بالمدبر الأعلى للكون ، حيث يقول : « خزائن العلم لايقسمها الله إلا لمن أحب ، ولو كان يخص بالعلم أحدا لكان أهل النسب أولى » .

والعالم البناء فى الحضارة الإسلامية ، يجب أن يحتفظ لعلمه بخاصية القابلية لدى الناس ؛ تلك القابلية التى تعتبر ركنا رئيسيا فى فاعلية العلم فى المجتمع ، ولا شىء يؤدى بالشعب إلى فقدان تلك القابلية التى تعتبر عنصرا هاما من عناصر الإفادة ؛ إلا أن العلماء يبذلون علمهم لأهل الدنيا ، لينالوها منهم ، فهانوا فى أعينهم ، وزهدوا بالتالى فى علمهم . ويجد حينئذ خطر آخر هو مباهاة الجهال بما يشبه العلم ، وتغايرهم على التقدم عند الأمراء كما تتغاير النساء على الرجال . وحماية العالم وطالب العلم من الفقر كذلك من الشروط الرئيسية التى تحفظ للعلم فاعليته فى المجتمع . فيقول سفيان الثورى فى ذلك : « أحب لطالب العلم أن يكون فى كفاية ، فإن الآفات وألسن الناس تسرع إليه إذا ذل وافتقر » .

ولقد كان للعلماء سلطانهم الذى يفوق كل سلطان ، حتى سلطان الخلفاء على الشعب فى عصور النزول من قمة الحضارة ؛ فيروى أن الرشيد قدم الرقة ووردها فى اليوم نفسه « عبدالله بن المبارك » فأسرع الناس إليه ، حتى تقطعت النعال ، وارتفع الغبار ، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج قصر الخشب فلما رأت الناس وزحامهم حول ابن المبارك ، قالت : ماهذا ؟ ! قالوا : عالم خراسان . قالت : « هذا والله هو الملك لاملك هرون الرشيد ؛ الذى يجمع إليه الناس بالسوط والعصا ، والشرط والأعوان »(١) .

والعلم الناهض هو الذى يعبر عن حال العالم وذات نفسه ؛ أى العلم المبتكر الذى لايمثل وجهة نظر الغير من العلماء ، فى حدود النصوص والقوانين

---

(١) ترجمة عبد الله بن المبارك فى « طبقات الشعرانى »

الشرعية السلوكية ، فحكاية أقوال الغير والإسراف فيها ليست بشيء فى الميزان الحضارى ، لأن الشعب حينئذ سيكون نسخا مكررة من كتب قليلة ، إن لم يكن نسخة واحدة من كتاب واحد لا يقوم على ساق فى بناء الحضارة ؛ ومثل هذا العلم الزائف سماه الصوفية « علم الأوراق » أما العلم الحق فسموه « علم الصدور والأذواق » .

والعلم فى نظر الإسلام هو الذى يهدى الإنسان إلى طريق الخشية ، وهى حال من أحوال القلوب ، ويقول « أبو محمد ماجد الكردى » فى ذلك : « كفى بالمرء علما أن يخشى الله ، وكفى به جهلا أن يعجب بنفسه ، والعجب فضله حمق ، يغطى به صاحب عيوب نفسه فلا تتغطى » .

ولكن الحال الناتج عن العلم وحده هو الذى يدفع إلى العجب بالنفس ، والتشبث بأهوائها ، أما الحال الناتج عن العلم والعمل فهو الرائد الصادق لجحافل المؤمنين ، وفى ذلك يقول « أبو إسماعيل السلمى » : « كل حال يكون نتيجة علم فإن ضرره على صاحبه أكثر من نفعه » .

ولعل « أبا عبد الله الروغندى » حينما قرر : « أن الأحوال الروحية لا تصح إلا إذا كانت عن نتائج العلم ، وأنه لولا العلم ماخاف القلب ولا اطمأن ولا سكن » ، كان يقصد العلم الذى يلازمه العمل لا مجرد العلم الذى يتخذه صاحبه للجدل والمراء ؛ فهذا النوع من العلم كان مصدر قلق فى المجتمع بعد عصر الازدهار الذى حددناه بظهور الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى مقتل عثمان بن عفان ، ولكنه كان قلقا واضح الأسباب ، لا يخفى على أهل الوعى الروحى ، الذين بدأوا صراعهم مع أهل الأهواء من العلماء ، وقد نبه « أبو المواهب الشاذلى » رضى الله عنه على ذلك ، حيث يقول : « احذروا زخارف أقوال أهل الرضا عن النفس ، خصوصا الذين اتخذوا العلم حرفة وشبكة لصيد الحرام ، مع تكبرهم على الناس ، فإنهم قد حرموا خيرى الدنيا والآخرة ، ولهم نعوت ممقوتة ، وأحوال مزرية ، لم تبق لهم بين الناس حرمة ولا شفاعة ، اتخذوا حسن الزى شعارا وتكبروا بذلك استكبارا » .

ويقول « أبو السعود بن أبي العشائر » : « بقاء النفس هو الذى صعب على العلماء الإخلاص فى تعليمهم ، فإن النفس إذا استولت على القلوب أسرتها ، وصارت الولاية لها ، فإن تحركت تحرك لها القلب ، وإن سكنت سكن لها القلب ، وحب الرياسة والدنيا لايخرج قط من قلب العبد مع وجودها ، فكيف يدعى عاقل حالا بينه وبين الله تعالى مع استيلائها ، أم كيف يصح لعابد أن يخلص فى عبادته وهو غير عالم بآفاتها ، فإن الهوى روحها ، والشيطان خادمها ، والشرك مركوز فى طبعها ، ومنازعة الحق والاعتراض عليه مجبول فى خلقتها ، وسوء الظن وما ينتج عنه من الكبر والدعوى وقلة الاحترام سمتها ، ومحبة الصيت والشهرة حياتها ، ويكثر تعداد آفاتها ، وهى التى تحب أن تعبد كما يعبد مولاها ، وتعظم كما يعظم ربها ، فكيف يقرب عبد من مولاه مع بقائها ومصالحتها ؟ ومن أشفق عليها لايفلح أبدا » .

وليس العلم فى الإسلام مقصورا على العلم المتعلق بالعبادات فحسب ، فعلوم العبادات والعمل بها ، وتفقد القلب ، والاتصال بالله سبحانه ، كل ذلك يهيء الإنسان الصالح والضمير الحى ، واليقظة الدائمة للمجتمع الإسلامى ليكون إنسان الحضارة الإسلامية بعد ذلك صالحا للعلم والعمل فى شئون العمران ، دون خوف من آفة الغش والخداع ، وقد أشار القرآن إلى ميادين العمل العمرانى فى آيات كثيرة منها :

(انظروا ماذا فى السموات والأرض) .

(امشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) .

(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ، وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ، سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) .

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) .

(فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) .

(وسخر لكم مافى الأرض جميعا) .

(وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة) .

فالعلم الحضارى فى الإسلام هو طاقة روحية يندفع بها المسلم إلى بناء حضارته ، القائمة على أساس البحث والتنقيب والعمل فى باطن الأرض وظاهرها ، واكتشاف مافى داخلها من ذخائر ، واستخدامها فى نشر العدل الإسلامى القائم على الروح ، وفى إشاعة الرخاء بين كل الشعوب التى تخضع لحضارة الإسلام .

وهناك بعض القواعد العلمية كان واضعوها يهدفون إلى التخفيف عن المسلمين فى تلك العصور التى كان أهلها يتسابقون إلى الخير فى المندوبات والمستحبات وغيرها ، ولكنها فى عصور الانحلال التى تحلل فيها الإنسان من الغرض والواجب آتت ثمارا عكسية بكل أسف .

ومن تلك القواعد قاعدة « فرض الكفاية » التى لعبت فى مجتمع الانحلال دورا كبيرا فى جذب تلك القوة الروحية البناءة إلى الأرض ، وأخضعتها لمناقشات العقل التى أفسدت قوة الدفع الروحى ، وحولتها إلى نوع من الجدل لاغناء فيه .

لقد تواكلت الشعوب الإسلامية تحت تأثير قاعدة « فرض الكفاية » التى ألقت كثيرا من مبادىء البناء الحضارى على المجموع ، بحيث لو قام بها البعض سقطت عن الباقين ، ولقد كان هذا البعض فى العصور السابقة هو من يبلغه فرض الكفاية بدون استثناء إلا فى حالات الضرورة القصوى ، أما فى عصر الانحلال فإن هذا البعض يصدق أحيانا على أفراد قلائل ممن بلغهم فرض الكفاية ، وبذلك ضاعت

تبعة (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) ووضع قواعد الإصلاح بين المجموع ، حتى اكتفى أهل الإجماع ببعض المقالات أو الخطب الفردية لأن الفريضة سقطت بذلك عن المجموع . أما تأسيس فروض الكفاية فى كل بيت وفى كل معهد وفى كل مجتمع صغير أو كبير ، فذلك أمر أراح العلماء أنفسهم منه اعتمادا على أنصاف العلماء ، وجملة العباد ، فانهارت الروح ، وسارت مبادىء الجدل العقلى الفارغ ، وتاهت معالم الحضارة بين ذلك الدخان الخانق ، وعاش الشعب الإسلامى على فتات الجهل السائد .

ولقد هالت بوادر ذلك التراجع عالما جليلا من علماء القرن الثالث الهجرى ، هو « الحارث بن أسد المحاسبى » فسجل رأيه صريحا فى « وصاياه » وتنبأ بالمستقبل المظلم الذى يؤسسه « نفاية الأمة وفقراء آخر الزمان » من أشباه العلماء .

ولا يقل الخطر الناشىء عن مسألة « فرض الكفاية » عن الخطر الناشىء عن مسألة « السنن غير المؤكدة ، ومسألة المندوبات والمستحبات » . فقد لاقت فى المجتمع الحاضر إهمالا شائنا حرمنا كثيرا من الفضائل التى يجب أن تسود فى المجتمع .

ولم يكن العلماء الذين وضعوا هذه الأحكام لهذه الأعمال يريدون التهوين من شأنها ، أو التقليل من أهميتها فى المجتمع ، بل كانوا يريدون أن يوقفوا الإنسان على الحدود ، من حيث هى حدود يعاقب المسلم على تركها ، أو يعاتب أو يثاب ، أو ترتفع درجته عند الله ، فى عصر كانت عقوبة العتاب عند أهله تقشعر لها الجلود .

وكان هؤلاء العلماء الذين وضعوا أسس التشريع والأحكام من أشد الناس استمساكا بالمندوب والمستحب ، والمؤكد وغير المؤكد من السنن ، وسار على نهجهم رواد الوعى الروحى ، فى القرن الثانى وما بعده ممن عرفوا

حينذاك باسم « الصوفية » وقاسوا على المندوب والمستحب كل عمل يزيد من ترابط المجتمع الإسلامي ، وألزموا أنفسهم بكل تلك الأعمال ، فاحتفظوا بالروح الأولى لعصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فدبت الحياة فى القلوب برؤيتهم ، بينما ماتت الأرواح والنفوس بصحبة اولئك الحرفيين الذين يتلمسون من قريب أو بعيد مايحررهم من مبدأ العمل .

ليست هذه المندوبات والمستحبات إلا صورا تشيع الجمال فى المجتمع ممثلا فى مظهر المسلم ، أو فى علاقته بأخيه ، أو بغيره من أهل الكتاب ، وتلك الصورة الجميلة لاغنى عنها لمجتمع يؤسس الحب ، ويؤصل الجمال فى مجتمع وثب إلى التاريخ على أساس الحب والنظام والجمال .

وإذا كان الترتيب فى الوضوء سنة مثلا فى بعض المذاهب ، فليس هناك مسلم أو غير مسلم ينكر جدوى التزام الترتيب فى تأسيس النظام فى كل عمل من أعمال الحضارة وتخطيطه ، ومحاسبة النفس على كل مرحلة من مراحله ، كما لا يوجد إنسان فى الوجود ينكر خطر الفوضى التى يعانى منها الإنسان الساقط من قمة الحضارة فى عصرنا الحديث .

إن إلزام الإنسان نفسه بإنشاء السلام ، وتفقد الجار ، وترتيب الأعمال وتنظيمها ، والنظافة والطيب ، والذكر والابتهال الوارد عقب الصلوات ، وصلة المسلم لأخيه المسلم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغير ذلك من فرائض الكفاية والسنن والمندوبات ، أمر بالغ الأهمية فى بناء حضارة الإسلام ، فليس هنالك من يقر حضارة بين شعب ممزق الأوصال ، غارق فى الفوضى ، ساكت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، منفر للعين والقلب بما يغشاه من قذر ودرن .

الصلاة والحضارة

الصلاة والبيئة

أوضحنا فى فصل سابق ، أن البيئة الصالحة للتفاعل مع الروح ليست إلا بيئة « الفطرة » التى تقل فيها مظاهر الزخرف ، وألوان المدنية ، وتنعزل عن ميدان الصراع بين المذاهب المختلفة ، والأهواء المتباينة ، هى بيئة الصفاء والهدوء والطمأنينة والسكون ، حيث الوحشة التى توحى بالتعطش إلى إيحاء جديد ، يملأ فراغ الروح ، ويسيطر على النفس والعقل ، ويسيرهما على هدى الوعى الجديد .

وليس هناك دليل على خطورة مظاهر الزينة التى عبر عنها الصوفية بكلمة « الأغيار » وأنها نذير الخراب لكل حضارة ، وأنها إذا استقلت بحياة المؤمن مقدمة للتجبر الذى يتلوه خراب محتم ، من الإشارة القرآنية فى قوله تعالى : (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس)

ونستطيع أن نقرر بكل إيمان أن المسلم فى العصر الحاضر لا يصلح بحالته الراهنة لأن يسهم بطريقة فعالة وسريعة وناجحة تماما فى بناء الحضارة التى بدت بشائرها فى صورة انتفاضات متوالية ، ولمحات إصلاحية تتركز فى بعض الأقطار ، وتلمع فى بعضها ، ثم تختفى بين موجات الصراع بين دورتين حضاريتين ، دورة ناشئة فى بلاد الإسلام ، ودورة شاخت فى بلاد لا تعترف بالإسلام .

إن الإنسان المسلم فى العصر الحاضر قد استعمل كلمة « الحرية » استعمالا خاطئا ، وفى الوقت نفسه اندفع بسحر هذه الكلمة وعمومها إلى لون من الفجور الفكرى ، والبله العقلى ، والترف الجسدى ، حتى سادته نزعات

منحطة ، دفعته إلى بيئة عجيبة ، نستطيع أن نطلق عليها « بيئة السقوط من قمة الحضارة » .

والإنسان الساقط من قمة الحضارة يتشبث بمذاهب فكرية تليق بمتاحف الآثار العقلية ، ولا تليق بإنسان متجدد ، ويستمسك بهذه المذاهب استمساكا يدعو إلى الغرابة ، ويدل على جهل فاضح ، وليس أدل على ذلك من أن بقايا الحضارة من المثقفين فى البلاد الإسلامية عموما ، وفى أقطار الشرق الأوسط خصوصا ، لايزالون يناقشون فى بلاهة وضعة مسألة وجود الله سبحانه وتعالى ، ويرجحون المذهب المادى ، تقليدا لمذهب كان قد ساد فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، ثم تخلى عنه معتنقوه إلى القول ببطلان مذهب المادة وبالإيمان بوجود الله ، وأصالة التفسير الروحى للكون كله .

ومثال واحد نسوقه آسفين مستغفرين من بشاعته ، لعله يقع من أولى الأمر موقع الاهتمام :

بينما كانت القذائف تدوى فى سماء القاهرة ، والدخان ينساب إلى مروج مصر الخضراء ، حاملا معه الفزع والتصميم إبان الاعتداء على مصر عام ١٩٥٦

وفى الوقت الذى كان فيه إنسان الحقل الأقرب إلى الفطرة يهجر أولاده وماشيته وحقله إلى ميدان القتال فى سبيل الله ، والشباب من طلابنا ينسابون فى براءة كالموج مستجيبين لنداء الحرية ، كان الإنسان الساقط من قمة الحضارة ممثلا فى بعض مأجورى أساتذة الجامعات فى مصر منهمكا فى إعداد استفتاء بين الطلاب عن وجود الله أو عدم وجوده ، وإذا كان موجودا ، فما الضرورة التى تدعو إلى وجوده ، إلى غير ذلك من الأسئلة التى نعف عن ذكرها إحتقارا لذلك الحطام الذى أنتجها بين ظلام الدن والماخور . وكانت النتيجة التى أذيعت فى الأيام الأولى للاعتداء على مصر تدعو إلى الحسرة والأسف .

تلك ظاهرة نشرت فى الصحف فى هذا الوقت العصيب ، وكان لها دلالتها التى كان يجب أن يفطن الإنسان المتبقى من الحضارة ، والذى اعتمدنا عليه فى بناء الحضارة الناشئة ، ولكن ـ والأسف يملأ القلب ـ لم يفطن إلى هذا الخبر القصير إلا القليل ، ولم يفطن إلى دلالته الحقيقية إلا النادر ممن يتلمسون أسباب السقوط فى أصغر الأخبار لافى واجهات الصحف .

والإنسان الساقط من قمة الحضارة يقيس براعته الفكرية بمقدار مايحفظ من مصطلحات المنهج الحديث ، لا بمقدار مايتقن من روحه وأغواره ، وبمقدار ماينقل من آراء ودلائل الحضارة الشائخة فى أوربا فى عصور الردة والانحلال ، لافى عصور التوبة والإنابة أى فى القرن التاسع عشر الميلادى ، لأنه بكل أسف ـ وهو يتصدر إرشاد الناشئة ـ لايتابع تموجات العقل فى الحضارة الشائخة أولا بأول ، وفى أدق تموجاتها ، بل يكتفى بعموميات لأنه يعيش مع نفسه فى حالة عمــــومية كلية لاتعنى بالتفاصيل والتجزئة ، والدليل القاطع على صدق مانذهب إليه ، هوذلك التحذير الذى وجهه وزير التعليم العالى فى مصر فى عام ١٩٦٤ من انحدار المستوى الجامعى فى عصر المذكرات والجندات والمفكرات والملخصات .

والإنسان الساقط من قمة الحضارة يحمل بين جوانبه طاقة مادية هائلة ، تتصارع فيها الرغبات النفسية ، وتزدحم فيها خيرات المـادة ، حتى تتخذ مظهرا من مظاهر الشر المستطير الذى ينذر بفساد شامل لتلك العقول الناشئة التى تحاول الاعتماد عليها فى بناء الحضارة الجديدة .

لقد سمعت فى مدرج « على باشا مبارك » فى عام ١٩٤٨ بإحدى كليات جامعة القاهرة ، من أستاذ يبلغ أواخر العقد الخامس من العمر ، حلا حاسما يراه هو لمشكلة المراهقة ، ويهيب بطلابه أن يتخذوه قانونا ، لأنه خلاصة اطلاع وتجربة . فما هو هذا الحل ؟ ! !

هو أن تتعرف عائلتان لدى كل منهما مراهقون ومراهقات ، بعضهما على بعض ، وبين الحين والحين ، يقيمون حفلات عائلية يجتمع فيها الآباء والأمهات والأبناء والبنات ، ثم يغمض الآباء والأمهات أعينهم بعض الشيء عن تصرفات الشبان والشابات ، بعد إفساح المجال لهم بعيداً عن مجلس الكبار تحت المراقبة العامة ، وحينئذ ينعم الفتى والفتاة بمراهقة هادئة لاخطر فيها ، ورعاية لحق الرجل - رحمه الله - سندع التعليق على هذه الواقعة سائلين الله له المغفرة .

والإنسان الساقط من قمة الحضارة يرى فى المؤهل الجامعى نهاية العلم ، أما الذين يعتبرونه جوازا لصلاحية التعلم فهم قلة نادرة لاتكفى وحدها للنفخ فى تلك الأشلاء الممزقة ممن انتفخوا كبرياء ولدوا فى الخصومة وانتصارا للنفس ، وتسفيها لكل عظيم ، وتحطيما لكل بناء ، ورغبة فى تعقب القيم العليا فى كل مجتمع وفى كل زمان ، حتى أغلقوا مجال العمل على غيرهم ، وتضافروا على الإشادة بمبادئهم نفاقا ورياء ، ولكن (بأسهم بينهم شديد) .

والإنسان الساقط من قمة الحضارة قد يعرف وبال طريقه ، ويؤمن فى قرارة نفسه بفساد مسلكه ، ولكنه يأبى بدافع الغرور أن يرجع إلى طريق الحق . .

قيل لأبى محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الرازى المتوفى عام ٣٥٣ هـ :

« مابال الناس يعرفون عيوبهم ، ويحبون ماهم فيه ، ولا ينتقلون عن ذلك ، ولا يرجعون إلى طريق الحق ؟ » .

قال : « لأنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم ، ولم يشتغلوا باستعماله ، واشتغلوا بأبحاث الظواهر ، ولم يشتغلوا بأبحاث البواطن ، فأعمى الله قلوبهم عن النظر إلى الصواب ، وقيد جوارحهم عن العبادة » .

وبعض هؤلاء يحاول إصلاح نفسه ، والعودة بها إلى النهج القويم ؛ ولكنه بكل أسف يتخذ طريقا خاطئا لإصلاح نفسه عن طريق نظريات علم النفس الحديث ، التى داخلتها نظريات اليهود الهدامة ، التى تهدف إلى تشويه القيم الفكرية والدينية بينما وضع علماء الإسلام من الصوفية أسسا نفسية إصلاحية بارعة قبل أساتذة الجيل من النفسانيين الأجانب .

وهذا عالم النفس العملاق ، الأستاذ « أبو السعود بن أبى العشائر » يصف أسس الإصلاح النفسى فى قوله : « يجب على السالك ألا يشتغل بالكلية بمقاومة نفسه ، فإن من اشتغل بمقاومتها أوقفته ، كما أن من أهملها ركبته ، بل يخدعها بأن يعطيها راحة دون راحة ، ثم ينتقل إلى أقل من ذلك ، ومن قاومها وصار خصما لها شغلته ؛ ومن أخذها بالخدع ، ولم يتابع هواها تبعته » .

ثم يقول : « إذا لبست النفس على إنسانا حالا ، وأدعت الترك للهوى وأن عملها وتعليمها خالص لله تعالى ، فيجب عليه أن يزنها بالميزان الذى لا ينخرم ، والمعيار الذى لا يظلم ، وهو تصوير ذمها بعد مدحها ، وردها بعد قبولها ، والإعراض عنها بعد الإقبال عليها ، وذلها بعد عزها ، وإهانتها بعد كرامتها ، فإن وجد عليها التغير والانعصار فقد بقى عليه من نفسه شىء فيجب مجاهدتها » .

ومثل الإنسان الساقط من قمة الحضارة فى رفض هذه المبادىء الأصيلة فى دينه وتاريخه مثل جملة المتعبدين الذين يرفضون هم الآخرون الانقياد لإرشادات العارفين ، ويرحم الله العلامة « طلحة بن مصرف فقد كان مع جلالة قدره ، إذا رفعوه على أحد أقرانه ، يذهب إليه ، ويقرأ عليه ، ويجلس بين يديه ، ليدفع ما توهمه الناس من أنه أعلم منه ، وقد جرى على هذا السنن عشرات من رواد الحضارة الأوائل رضى الله عنهم أجمعين .

أقول : إننا فى عصر النهضة نعيش فى بيئة ليست منعزلة ثقافيا ، بل إن

خليطا عجيبا من الثقافات الغربية والمذاهب الهدامة قد غزا العقول والكتب ومجتمعات العلماء ، وليست بيئة قانعة ، بل إن الشره والنهم يكاد أن يقضيان على ما بقى لدينا من مثل ، كما أن بريق المدينة قد أعشى الأبصـــار ، ورنين الذهب قد غلف الأفئدة ، فلا أمل فى استماع ولا انقياد مع هـــذا الاضطراب المدمر .

ثم أقول إنه لابد من العودة بالإنسان الحضارى الجديد إلى البيئة الأولى التى وثب منها بدو الصحراء على مسرح التاريخ ليصنعوا معجزة البشرية الكبرى فى ربع قرن من الزمان .

ولا أمل مطلقا فى فاعلية تلك الشرارة الحضارية التى تكافح فى سبيل البقاء فى تلك الأيام إلا بالعودة بالإنسان المسلم إلى ميدان يشبه ميدان التجربة الأولى ، إلى بيئة الاستعداد لامتصاص شحنات الروح ، التى يقوم عليها بناء الحضارة المتين السريع ، الذى سطره التاريخ منذ ثلاثة عشر قرنا ، والذى جعل من أشلاء الجزيرة وحدة فولاذية عجزت كل القوى عن فصمها ، حتى ساد منطق العقل وحده بعد معركة صفين ، فتحول الحج من المسجد الحرام إلى قبة الصخرة فى العصر الأموى .

إننا فى بناء نهضتنا الحاضرة لابد أن نأخذ بعين الاعتبار والاهتمام مبدأ المقارنة التاريخية ولا نغفل التجربة التى نؤمن بها وبرائدها صلى الله عليه وسلم ولذلك يجب أن نفسر التاريخ تفسيرا روحيا ، لا تفسيرا ماديا ، فالإسلام له رسالة خاصة ولون حضارى خاص أجريت تجربته بنجاح تام حاسم على أساس الروح ، فلا معنى مطلقا لبناء الحضارة الإسلامية على أساس التفسير المادى للتاريخ فتلك دعوة الشيوعية الإلحادية ، وإذا فسرنا التاريخ تفسيرا روحيا فإنا سنحصل على نتيجتين هامتين :

١ ـ تحقيق النتائج العملية لمذهب التفسير المادى ولكن تحت رقابة

وازع من أعماق الضمير يفتقر إليه المذهب المادى البحت .

٢ ـ تغيير حكمنا على عصور التاريخ . وتصحيح القيم التاريخية للدين الذى شرع للناس كافة ولسيادة المسلمين وميراثهم للأرض .

لقد كانت سياسة تقارب الطبقات ، والدعوة إلى ضغط الاستهلاك فى مصر خطوة جريئة فى سبيل العودة بالإنسان إلى البيئة الأولى ، التى انطلقت منها حضارة الإسلام ، لأنها دعوة لاتخرج عن كونها حدا عمليا لحاجات الإنسان حتى ينعزل ماديا عن جلبة المدنية الفارغة المعـــوقة عن الصعود .

ولـكن الإنسان الساقط من قمة الحضارة قد يصاب بموجة خالقة من الحقد ، فيبطىء فى سيره إلى منبع الحضارة الأولى ، بينما نريد أن يندفع إلى هذا المعين بكل مداركه لتسرع به نتائج مساعيه إلى بوارق الحضارة التى تملأ النفس عزة وكرامة .

إن صدق إنسان الحضارة الجديدة ، فلا عون له على هذا العمل الجبار إلا الصلاة .

فالصلاة إنما شرعت لحماية المؤمنين من غوائل المظاهر المادية التى تدفعه بعيدا عن الإحساس بمسئولية الروح فى بناء الحضارة ، ولتدريبه على العودة إلى بيئة الانعزال بالروح ثقافيا وماديا ، حتى لا تفقد قوتها تحت ضغط المادة والعقل فى جلبة الحضارة الغربية وزحمتها .

الصلاة هى « الخلوة فى الجلوة » (١) كما يقول الصوفية ، وما تلك الحالة

---

(١) مصطلح صوفى يقصد به أن يعيش الإنسان فى الحياة بمظاهرها جسديا أما قلبه ففى خلوة عنها مشغول بمشاهـــدة ربه فى كل مظهر من مظاهر الحياة « ما رأيت شيئا إلا رأيت الله فيه » .

إلا ماتريده الآية الكريمة : (واسجد واقترب) الصلاة تحقق المؤمن فى مقام الفقر إلى الله فى فترات متقاربة ، ولا يخشى مع ذلك بعد ولانسيان ، والفقر إلى الله هو كما أوضحه « بقاء الدين بن بطو » : « تجرد القلب عن العلائق ، واستقلاله بالله تعالى وحده والتخلى عن الأملاك أحد أوصاف الفقر ، لأنها شواغل وقواطع لكل عبد سكن بقلبه إليها ، وعلامة صحة التجرد عن الأملاك ألا يتغير عليه الحال بوجود الأسباب وعدمها ، لافى القوة ولا فى الضعف ولافى السكون ولافى الانزعاج ولاتؤثر فيه المهالك ، فإن كان كذلك فهو فقير لايأسره رق الأسباب ، ولايهزه وجودها ، ولا يستفزه عدمها ، فإن ملك فكأن لم يملك ، وإن لم يملك فكأن ملك .. فهو مشتغل بربه ، واقف بلا طمع ، ولا يسقط بالرد ، ولا ينهض بالقبول ، ومالم يصل العبد إلى ربه لايصل إلى حقيقة هذا الموقف » .

ومن هذه النظرة الدقيقة ندرك أن صنعة الفقر إلى الله هى بعينها الانعزال المادى والعقلى عن الأكوان المادية مع ممارستها والحياة فى زحمتها ، وأن الفقر إلى الله لايتم مطلقا إلا بوصول العبد إلى معرفة ربه والهيبة له ، ولا تتحقق تلك المعرفة إلا بتكرار الخشوع له تعالى فى الصلاة على فترات متقاربة من كل يوم . وهو سر من أسرار الصلاة فى الإسلام .

الفقر إلى الله هو الشعور بالحاجة إليه وحده . دون غيره من الأسباب ، وهو نفس الحال الذى يشعر به من يعيش فى بيئة قابلة للحضارة الروحية ، كما أوضحنا من قبل ، وهو نفس الحال الذى أراد الله أن يحفظه على المسلمين بالصلاة ، فالصلاة فى كل أعمالها تدريب على انقطاع الكلى عن كل شىء يحيط بالمصلى من مظاهر الحياة ، وانقطاع كلى عن الخواطر العقلية والنفسية التى توحيها مظاهر المدنية وحاجات النفس .

وإذا كانت خلوة الرسول صلى الله عليه وسلم فى « غار حراء » انعزالا كليا عن العالم ، واستعدادا لتلقى الوحى المعلم ، وإذا كانت البيئة المكية

قد عزلت الرواد الأوائل عن كل مظهر يعكر تلك النفحة السماوية التى قامت على أساس الحضارة الإسلامية فقد شرعت الصلاة بعد ذلك ، حينما اضطرهم بناء الحضارة إلى العمل مع الناس ، ومزاولة الأعمال المادية ، وتصريف الأموال حفاظا على تلك النفحة من الانهيار تحت ضغط العمل العقلى والمادى الذى تستلزمه الحضارة الجديدة ، وتأصيلا للخلوة فى الجلوة فى قلوب بناة الحضارة فى كل زمان ومكان ، ولذلك لا يملكنا العجب من الهول الذى استولى على قلب إمام العدل « عمر الفاروق » رضى الله عنه ، حينما عرضت عليه كنوز كسرى فى مسجد الرسول بعد فتح فارس وظهور الدين الجديد فيها وغير ذلك من الأحداث التى تعتبر فى عرف الإنسان الساقط من قمة الحضارة خرافة من الخرافات ، وهى فى حقيقتها نفور من المادة ، ورغبة صادقة فى الانصراف عنها (١) .

إن الصلاة عبادة الملائكة الذين يعيشون فى بيئة الروح (لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون) . وفى الوقت نفسه هى عبادة جميع الخلائق ناطقها وصامتها ، سواء أحسوا بذلك أم لم يحسوا : (ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها ، وظلالهم بالغدو والآصال) . وهى منتهى آمال الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، فقد كان دعاء ابراهيم عليه السلام : (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى) . ومن خصائل اسماعيل عليه السلام ، أنه (كان يأمر أهله بالصلاة) وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

ولا يوصف بالكفر من ترك شيئا من الأعمال الصالحة سوى الصلاة ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من ترك الصلاة فقد كفر » وإذا استعرضنا العبادات الأخرى وأحكام تاركيها ، وجدنا أن من امتنع من الزكاة أخذت منه قهرا ،

---

(١) راجع الجزء الأول من « سير أعلام النبلاء » للذهبى .

ومن امتنع من الصوم حبس فى مكان موثقا حال وجوب الإمساك ، والحج والزكاة والصوم يسقط عن العبد بأعذار معروفة فى كتب الفقه ، أما الصلاة فهى ملازمة للعبد فى كل حال ، قائما وقاعدا وعلى جنبه ، وراكبا وماشيا ومحاربا وبالإشارة من غير خلاف بين الأئمة ، واتفق الأئمة كذلك على قتل تارك الصلاة ، والممتنع من النطق بالشهادتين . إلا أن يعطى الأخير الجزية عن يد وهو صاغر .

وليس عبثا تلك الأهمية البالغة فلا بد أنها هى أساس الحضارة والنجاح فى نشر العدل بين الجميع ، أضف إلى ذلك أن الصلاة أجمع خصال الدين ، وذلك أن أولها الطهارة سرا وجهرا ، ثم جمع الهمة وإخلاص السر وهو النية ، ثم الانصراف عما دون الله إلى الله بالقصد إليه . ثم الإشارة برفع اليدين إلى نية مايربط العبد بالله ، ثم إن أول الأذكار فيها هو التكبير ، وهو غاية التعظيم لله تعالى ، والاعتراف بأنه لايوجد شىء فى الوجود يستحق أن يتوجه إليه العبد إلا الله ، وأول ثناء فيها لا يشوبه شىء سواه ، وهو قول المصلى : « سبحانك اللهم وبحمدك وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » ثم قراءة كلامه وهو الفاتحة ، التى جعلها الله بينه وبين عبده ، يقرؤها قائما منتصبا قد زم جوارحه هيبة وخشوعا وإجلالا وتعظيما ، ثم يحقق ماعبر عنه بلسانه ، مترجما عن ضميره من التعظيم لله ، فعلا وحركة ، وهو السجود والركوع وأذكارهما تنزيه الله عز وجل ، بقوله : « سبحان ربى العظيم » و « سبحان ربى الأعلى » .

فالتشهد أضاف جميع الأعمال إلى الله سبحانه وتعالى ، ثم يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم . . وقد اشتملت الصلاة على أعمال القلوب والجوارح والألسن فرضا وندبا على مالم يشتمل عليه غيرها ، ونهى فيها عن أعمال وأقوال لم ينه عنها فى غيرها ، وجعلت لها مواقيت متقاربة لئلا يبعد عهد العبد بها ، قال الله تعالى : (أقم الصــلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل)

وقال : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) . وقال : (وأقم الصلاة لذكرى) . وكان ابن شهاب يقرؤها : (للذكرى) .

ومن هذا البيان السريع لأعمال الصلاة يتبين مدى أهميتها فى العزل الفكرى والمادى للمؤمن عن إسار مطالب البدن وفى جمعها للعبد على الله ، حتى يتحقق له الفقر إلى الله ، الذى هو نتيجة الحياة فى البيئة القابلة للوعى الروحى البناء للحضارة الإسلامية .

الصلاة والروح

أوضحنا فى فصل سابق كيف تتصارع القوى النفسية والعقلية والروحية فى داخل الإنسان ، وأن الروح هى القوة التى يجب أن يخضع لها العقل والنفس فى الإسلام ، حتى تتخذ جميع الأعمال الإنسانية طابعا روحيا قبل أن يكون عقليا .

وليس معنى هذا أن نهدر العقل ، ونقتل نشاطه ، ولكننا نؤيد السلوك الذى رسمه الله تعالى لعمل الإنسان فى الحضارة والإصلاح ، وهو عمل العقل تحت سيطرة الروح ، لاتحت سيطرة النفس .

لقد وضع الخالق جل وعلا شروع إنشاء العالم وما فيه ، وسجل ذلك المشروع فى القرآن الكريم ، وفسرته السنة المشرفة قال تعالى : (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم) .

ويقول : (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا :

أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال : إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) .

ولقد سجل الله تعالى فى مشروع العالم كل صغيرة وكبيرة ، قبل أن يخرج المشروع إلى خير الوجود .

(ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لايحب كل مختال فخور) .

ويقول جل جلاله : (قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) .

ولقد وضع الله تعالى هذا المشروع للعالم بما فيه قبل أن يوحى بالرسالات إلى الأنبياء ، ولم تكن تلك الرسالات لتخرج فى قليل ولا كثير عن توضيح تلك الحقائق ، مضافا إليها ما يجب أن يسير عليه الإنسان فى سلوكه ، حتى يكون عضوا صالحا فى بناء الحضارة الإلهية الحية الواقعية : (ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) .

أقول إن هذه الأصول الإلهية هى أساس بناء الحياة الحرة على وجه الأرض ، وقد أنزلها بطريق تربوى متدرج على رسله ، ثم أكملها على يد الخاتم الأعظم ، صلى الله عليه وسلم ، (لئلا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) . وأن أى تغيير فى نصوصها سيؤدى إلى فوضى وآلام ومتاعب لاحصر لها ، ولا طاقة لإنسان على حلها ، وتلك الحقائق الإلهية يمكن أن نجملها من تلك النصوص فيما يلى :

١ ـ الكفر بخالق الكون محظور ، ويقتل معتقده .

٢ ـ قضى الأمر فى كل سماء قبل وجود الإنسان .

٣ ـ الإنسان خليفة الله فى الأرض .

٤ ـ الإنسان يمكن أن يزيد عن الملائكة قدرا بعلم الأسماء وتجلياتها فى الكون ، ويمكن أن ينحط عن الحيوان بسفك الدماء والفساد فى الأرض .

٥ ـ كل مايصيب الكون من آلام مكتوب منذ الأزل ، فلا داعى للأسى على مافات ، ولاللفرح بما هو آت .

٦ ـ الفخر والخيلاء مكروهان عند الله ، مكروه أصحابهما .

٧ ـ وجه نظرك إلى الأرض ففيها مادة البناء للحضارة الإلهية .

٨ ـ مقتضى الربوبية عبودية الإنسان لربه ، لالشىء غيره ، فهو الخالق لا غيره .

٩ ـ النصر والعزة والرخاء وميراث الأرض والسيادة لجميع العاملين فى هذا البناء .

ولقد كان من نتائج زحام الخير الذى أنتجته الأرض والعقل العامل فيها بروح منحرفة عن تلك النصوص ، خرق للحكمة الإلهية فى نصوص كثيرة كاستعمال هذا الخير فى مكاره الرب الأعظم ، واهب النعم ، ومديل الأمم ، وكان نتائج زحام الخير كذلك شرور أخرى نشأت من الصراع القائم على عدم الاعتراف بالحكمة الأصلية ، فكان الغرور والاختيال والفخر أساس تلك الشرور مما غطى على الأصول الأولى مع الزمن ، فنسى الإنسان ، أو علم وتعصب لهواه ، إرضاء لنزعة الخيلاء فى باطنه وقرارة إدراكه .

ولن نسير على روح التعصب هذه بحول الله وقوته ، لأنها تزيد من تعقيد

المشاكل ولا تؤدى حلا سريعا ، ولكننا نهيب بالقارىء الكريم أن يقرأ هذه السطور بروح صافية رائدها الحق ، لا الغرور الذى يكرهه الله ويكره صاحبه ، اقرأ بروح القاضى المنصف ، لا بروح المحامى الذى يتلمس السقطات ويصر على وجهة نظر معينة .

لقد ساد العالم لبناء الحياة الإنسانية على وجه الأرض ثلاثة مذاهب وإن كان أولها من وضع الله تعالى ، ولكنه خضع للعقل من وجهة معينة ، هى وجهة التأويل ومحاولة التبديل ، لا لمحاولة التطويع . وهذه المذاهب هى:

ا) مذهب الديانات السماوية .

ب) مذهب الضمير والإلهام .

ج) مذهب المنفعة .

ولكل مذهب من هذه المذاهب أنصار تعصبوا له وحده دون غيره ، فكان الاضطراب الفكرى ، تابعا طبيعيا لهذا التعصب تحدثنا عنه الوقائع التاريخية الصحيحة ، والطبائع النفسية الواضحة فى تصرفات الإنسان المتعصب .

ويجب أن نلاحظ أننا حين نتحدث عن مذهب الديانات السماوية ، إنما نقصد أولئك الذين اتجهوا إلى نصوص الدين ولم يصبوا قدرا كافيا من وعى الروح يمنحهم أفقا أوسع وأشمل وأطوع مرونة لفهم النصوص الدينية .

ويرى كل فريق من أصحاب الديانات أن دينهم الذى نزل به كتابهم على النبى الذى بعث إليهم هو دين الحق ، وأن ماعداه باطل ، دون وعى قابل للتطويع الشامل لوحدة البناء الذى بناه الواحد الأحد قبل أن يبرز هؤلاء إلى الوجود ، ودون نظر فاحص إلى التدرج الذى يسير بالعالم مقدمة إلى مقدمة أخرى ، حتى يصل إلى قمة الدستور الإلهى الذى ختم به الدساتير ، وأغلق به الدساتير ، وأغلق به باب النبوة والرسالات .

ثم اختلف رجال كل دين فيما بينهم فى تفسير النصوص السماوية ، وأدى

الخلاف إلى أن أصبح كل دين شيعا وأحزابا ، وأصرت كل شيعة على أن تفسيرها للنص هو الصحيح ، وهو الذى يستند إلى ما أنزل على رسولهم . ثم عادت كل شيعة إلى ما بأيديها لحرفت الكلم عن مواضعه ، لتلائم التطور الذى وصلوا إليه بعقولهم ، ومع الزمن أصبحت مبادىء الأخلاق ، وقواعد السلوك وقد استندت على التفاسير ، لا على واقع ما أنزله الله .

هذا ما يقوله المعارضون لمذهب الديانات السماوية .

أما ما يقوله المعارضون لمذهب الضمير ، فهو أن أصحاب هذا المذهب يتجاهلون حقيقة مسلما بها ، هى أنه لا يمكن أن يتطابق ضميران لشخصين مختلفين تمام الانطباق ، وأن الأخذ بمبدأ الضمير من شأنه أن عدد مبادىء الأخلاق بعدد أفراد المجتمع ، لأن لكل فرد ضميرا يختلف قليلا أو كثيرا عن ضمير الآخر ، فتختلف المثل الأخلاقية ويتسع الخلاف إلى ما لا نهاية له . وقد اختلف أصحاب هذا المذهب كذلك فى تفسير المراد من الضمير فاضطرب المذهب ، وتعـــذر الوصول إلى حقيقة واحدة يستمسك بها المجتمع كله .

أما المعارضون لمذهب المنفعة الذى يقول : « إن الفضيلة هى ما تمليه المصلحة أو سعادة الأغلبية » فيرون أن القانون الوضعى الذى يحمى المصلحة وسعادة الأغلبية ، متخلف دائما عن الرأى العام ، لأنه يزيد على متوسط القوة العقلية ، ولا يراعى المثل العليا ، وهذا التخلف يجعل فى القانون ثغرات ومنافذ ، ينفذ منها من يريد الخروج عليه ، إذا أراد أن يعتدى على أى مبدأ من مبادىء الأخلاق التى تطور إليها المجتمع ، وبدون أن يقع تحت طائلة القانون .

ويقول : « بلاك ستون » الشارح الكبير للقانون الإنجليزى : « لو أن عقلنا كان دائما صافيا لكان الأمر سهلا وجميلا ، ولما احتجنا دليلا سواه هاديا ، ولكن الذى انتهى إليه الإنسان بعد التجربة والاختبار ، هو أن

العكس هو الصحيح ، وأن عقل الإنسان غير صاف ، وأنه مشوش التفكير خاطىء الفهم والتقدير ، ملىء بالأخطاء ، يسوده الغباء والجهل » ، وفى هذا القول حنين إلى صفاء العقل ، وماهو فى الحقيقة إلا نتيجة لصفاء الروح .

وإذا كان الضمير يسمو على عقل الإنسان خطوتين ، فإن القانون دائما متخلف عنه خطوتين ، فهو لايخرج عن كونه قوة تمنع المتخلفين من الزلل.

وقبل أن نعرض لرأينا فى هذه المسألة ممثلا فى « هداية الروح » أو «العقل الروحى وموقفه من السلوك الحضارى» يجب أن نسجل هذه الآيات الكريمة تحت نظر القارىء :

(وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون) .

(قل أغير الله أبغى ربا ، وهو رب كل شىء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولاتزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) .

(وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى)

(ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) .

(ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

ومن هذه الآيات الكريمة تتبين لنا طبيعة الخلاف بين الناس ، وأنه لحكمة ليس هذا موضع الخوض فيها ، وعلى المؤمن ألا يفزع من هذا الخلاف مادام مستمسكا بالعروة الوثقى . تحت لواء الخالق الأعظم .

مذهب الروح يؤمن بأن الأديان السماوية ، والضمير والإلهام ، والمنفعة

حق لاغبار عليه ، ويرى أن كل مذهب من هذه المذاهب يستحق كل تقدير واحترام ، لأن النفوس تنمو ، والتطور الروحى دائب فى حركته ، وللنفوس أمس يمعن فى القدم ، ولها غد بعد غد إلى مالا نهاية له فى الأبدية، يرتفع إلى مستوى أرفع من سابقه (كل يوم هو فى شأن) (بل هم فى لبس من خلق جديد) والاختلاف فى تقدم النفوس يتبعه اختلاف فى حاجاتها، وتقدم المثل العليا تبعا لاختلاف حاجات النفوس إيذان بأن الاعتقاد فى انفصال نفس المؤمن عن نفس أخيه ، واستقلالها بكيانها ، اعتقاد خاطىء أشرف على الزوال بظهور الإسلام الذى وجد بروحانيته بين مشاعر المؤمنين وأحاسيسهم ، (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) .

(لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم)

(وكونوا عباد الله إخوانا) .

(مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) .

وهذه الوحدة لم تتم فى مذهب سلوكى سماوى كما تمت فى الإسلام قولا وعملا : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا) .

* * *

وإذا كان القرآن الكريم قد قرر أن الله خلقنا (من نفس واحدة) فإن العموم فى أن الله خلقنا (من ضعف ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) لا يتجه نحو الخلقة المادية فحسب ، لأن الضعف والقوة أمران متعاقبان على الإنسان الفرد ، وعلى المجتمع الإنسانى فى قواه المادية والعقلية والروحية على السواء .

والرباط الوحيد الذى يربط بين المجتمعات الدينية منذ أحقاب التاريخ البعيدة إلى الآن ، ويربط بين أفراد المجتمع الإنسانى فى الإسلام . الذى ختمت به الشرائع السماوية ، ما هو إلا رباط « الوعى الروحى » الذى يعتبر فى الحقيقة أمانا من الخلاف ، وعصمة من الزلل وشرور التشيع والحزبية اللذان جرهما العقل وحده ، أو أهواء الوعى الغريزى وحده ، أوهما مجتمعين ومنعزلين عن « حبل الله » الذى أهاب بنا الله تعالى أن نعتصم به لئلا نتفرق .

إن الوقوف فى جمود أمام النص الدينى لايحرم صاحبه من الاحترام والتقدير ، لأنه مرحلة طبيعية من مراحل الفقه الدينى ، سواء أكان تفسير النصوص الدينية عقليا بحتا ، أو يخضع لتفسيرات السنة وأسباب النزول ، أو للتأويل مهما اختلفت درجاته .

وليس معنى احترامنا لهذه الاتجاهات كلها أنها تتمتع بدرجة من الصحة تؤهلها لأن تكون قانونا لتسير عليه الحضارة المتطورة، ولكن معنى احترامنا لها – مادامت أركان العقيدة قائمة – أنها تطور طبيعى نضج بعضه على سلم الارتقاء ، كما هو الحال مع أهل السنة ولازال بعضه يخضع بعض الشىء لما كان عليه الإنسان فى مراحل الطفولة البشرية . ولأنهـــا مع مابينها من خلاف – تفتح الباب أمام آفاق تعلو على أهواء النفس والعقل ، هى وحدها التى تمسك بتلك الخيوط المتباينة ، لتجمعها مع التطور فى وحدة يسودها الوئام والصفاء ، إلى قفزة جديدة من قفزات الحضارة ، سادت زمنا فى مدى ربع قرن من الزمان ، ثم انحدرت مرة أخرى استعدادا للسيادة العالمية الموعود بها فى القرآن الكريم والتى لم تتحقق كلمـــا فى الفترة الأولى من الحضارة وقد أشار إليها الله تعالى فى قوله : (وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله) .

وليست تلك الآفاق التى أشرنا إليها ، والتى تؤهل لخوض تلك المعركة الفاصلة شيئا من نزوات النفس ، وإنما هى الروح الخالصة ، التى ترتبط بنص الدين ، ولا تفزع من الخلاف ، مادام الفزع من الخلاف شيئا يزيد من شقته ويوسع الهوة بين مجتمعات المؤمنين .

(ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم) .

(ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

وإذا كانت هذه المبادىء الروحية السامية قد دفعت المؤمنين الأوائل إلى قمة الحضارة حينما سادت فى معاملة المؤمنين والمنكرين ، فلا شك فى أنها ستدفع المؤمنين دائما إلى قمة الحضارة الموعودة التى يكون الدين فيها كله لله حينما تسود بين طوائف المؤمنين ، ونجاحها بين المؤمنين أسرع وأسهل من نجاحها بين المؤمنين والمنكرين ، وبقى علينا أن ندرك التجربة الأولى ، ونتفحص ظروفها القاسية ، لنسرع إلى التجربة الثانية ، ونتفحص ظروفها المواتية السهلة مادام « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه » .

وعلى هذا الأساس الذى أوضحناه كان رواد الحضارة الأوائل ، لا يفزعون إذا اقترف البعض أعمالا تخالف القانون الدينى مادام ستر الله مسدولا عليها — لأنها ليست إلا نداء من نداءات الوحش القديم الكامن فى الإنسان سواء أكان اقتراف هذه الأعمال من المسلمين . أم من المنكرين لأن روح المجتمع قد ارتقت حتى صارت لا تعبأ بهذا الجبان ، الذى يتستر حينما يقارن المعصية ، بل إنها ترى فى تستره هذا بشير خير منتظر ، لأن الدافع الذى دفعه إلى التستر ما هو إلا يقظة روحية تحدثه فيها الروح فى خفاء عن بشاعة هذا العمل الذى كان بالأمس البعيد لا يخشى منه ، ولا يلحق بفاعله أدنى عار .

أما وقد تحركت الروح إلى أفق أعلى ، جعله يخشى سلطانهـا السائد ، فلا خطر فى ذلك على الإطلاق ، ولكن الإنسان إذا تحدى المجتمع ، وجهر باختراق القانون ، وتعـدى حدود الله ، فالحدود الزواجر وحـدها هى الحاجز الوحيد بين ذلك المجاهر وبين العمل الذى تهواه ؛ ولا حرج بعد إقامة الحد من الصلاة عليه ، إن كان الحد رجماً حتى الموت ، أو قتلا بالسيف كما فعل النبى صلى الله عليه وسلم بعد رجم « ماعز » الذى زنى « بالغامدية » .

ولقد نهى صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة عن لعن نعيمان ، بعـد ما أقام عليه حد الخمر للمرة الرابعة قائلا : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » .

إن هذه الروح هى السر الذى يختفى وراء التعاليم الدينية منذ عهد موسى عليه السلام ، حتى عهد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، هذا السر الذى أخفى فى طيات التعاليم الظاهرة التى وضعت لسواد الناس ، كما هو الحـال فى الطواف حول الـكعبة ، ورمى الجمرات والركوع والسجود ، والتوجه نحو الـكعبة فى الصلاة والوضوء قبل الشروع فيها وغير ذلك من طقوس الشريعة الإسلامية .

* * *

وتهدف تلك الشرائع فى الحقيقـــة إلى إزاحة الحجب عن النفس الحيوانية .

الروح نور الله يتسلل من خلال الحجب التى تحيط بالنفس ، تلك الحجب التى نشأت عن المطالب الحيوانية للنفس ، واستحكامها من حولها .

ويمكننا أن نصور نور الروح بمصباح مضىء ، ونصور الحجب بلفافات من القماش تحيط بذلك المصباح ، ولا شك فى أنه كلمـا تـكاثرت الحجب حول المصباح ، فإن الضوء النافذ من المصباح يصدر ضعيفا ، ويصير هـذا النور هو الضمير الروحى الذى يحسه الذات المستقبل للضوء ، بحيث يعتقد

أنه هو الضمير الأمثل الذى لا ضمير بعده ، فإذا ما رفعنا لفـافة أخرى ، فإن الضوء سيقوى عما كان عليـه من قبل ، وحينئذ يحس الذات المستقبل للنور بقوة أخرى فى الضمير الروحى ، يرى معها بطلان ماكان عليه من قبل ، ولـكنه يعتقد أنه ارتقى إلى نهاية الضمير ؛ وهكذا حتى ترتفع جميع اللفافات فيغمر النور الذات المستقبل ، ويصل إلى القمة الحقيقية للضمير الحى الذى يصلح حينئذ لتقدير المنفعة الصالحة وغير الصالحة .

وحينئذ يندرج مذهب الضمير ومذهب المنفعة فى مذهب العقل الروحى الذى يستمسك بالدين السماوى ، ويقوم على إقامة طقوسة بروح العقل أو بعقل الروح .

ويتطلب شيوع هذا المذهب بين الأمة شيئا هاما هو « القدوة الحسنة » فالقدوة الحسنة قاعدة مقررة فى تأسيس مذهب الروح كان أساسها الرسول صلى الله عليه وسلم : (لقد كان لكم فى رسول الله قدوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) . ثم حمل خلفاؤه الراشدون من بعده لواء « القـدوة الحسنة » ثم تفرقت القدوات الحسنة بين الزهاد والعبـــاد والشيوخ والمؤسسين لمذهب الروح فى كل زمان ومكان ، و بقيت مدرسة الروح بلا طلاب فى كثير من الحالات .

الصلاة توحى بالوحـدة أولا ، ثم ترفع الحجب على النفس حجاباً بعد حجاب .

أما إيحاؤها بالوحدة فهو واضح من الإسراع إلى المساجد لشهود الجماعة ثم توجه أبناء كل مدينة أو قطر فى أوقات متقاربة إلى وجهة واحـدة هى البيت الحرام ، وهم جميعا على طهارة الظاهر وجهاد فى تطهير الباطن .

الصلاة تؤسس وحدات صغيرة فى صفوف الجماعة ، ووحدات أكبر فى القطر كله ، ووحدات أشمل فى نفس العمل مع وحدة الهـدف فى بلاد الإسلام كلها .

هى تدريب للمسلمين على النظام ووحدة الهدف ، حيث يقرأ الكل كلاما واحداً ، ويذكرون ذكراً واحداً ، ويقفون صفوفا موحدة يكره أن توجد فيها فرجات ، ويتجهون اتجاها واحدا بظواهرهم وبواطنهم ، أما صلة ذلك بالحضارة وبالروح فلا داعى لتكراره ، فهو على كل حال تدريب على وحدة الإحساس والشعور والهدف وهى من خصائص الروح لا من خصائص العقل .

فى الصلاة إزاحة لكل الخواطر والأفكار الغريبة التى تتصل بحاجات النفس المادية ، وغيبة عن كل هذه المظاهر مرات متتالية متقاربة تبلغ الخمس وقد تزيد عليها بما يقوم به العبد من صلاة الضحى والليل والنوافل غير المؤقتة ، وفى ذلك محاولة لإزالة الحجب عن النفس حتى تحس بالنور الخالص للروح الخالص يغمرها فى سعادة وصفاء ، حيث يشرق هذا النور على الطبقات اللاشعورية من الوعى ، وحيث يتحول الشعور بالمنفعة لدى العبد إلى شعور بالرغبة فى نفع الغير ، لأن باب المنفعة الشخصية ، والأنانية الفردية قد أغلق إلى الأبد بإشراق نور الروح ، وبالشعور بالوحدة .

ويغلب فى آيات الصلاة كما أوضحنا من قبل أن تقترن بالزكاة المفروضة ، أو الإنفاق الحر ، وتلك لفتة قرآنية نحو مواطن الداء فى المجتمعات المريضة ، أو الهابطة من قمة الحضارة .

الإيثار لا الأثرة هو علاج المجتمع المريض ، ويبدأ الإيثار بالدرس الأول الذى هو الزكاة المفروضة المقدرة بربع العشر على النصاب ، ثم بالتدريب على الإنفاق الحر من بعض مارزقك الله ، أو بالنزول عن نصفه أو ثلثه أو عنه كله حسب درجة الشعور بالفيض الكلى ، والانصهار بناره والسعادة بنوره .

الشعور بآلام الغير غاية ما يرجى من الصلاة ، ومن الاستفادة منها فى بناء الضمير والوعى الروحى ، وإن وقائع الحياة الحديثة تفتح أعيننا

على إحساس مغلف متبلد ، لا يحس بآلام أخ ولا أب ولا أم ، ولا شقيق في الإسلام ، وما ذلك إلا لأن ضمائرنا لا زالت متبلدة ، وما تبلدت ضمائرنا إلا لأننا لم نتقن درس بناء الروح في مدرسة الضمير والروح وهي الصلاة .

ووقائع الحياة الأولى لبناء الحضارة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، تفتح أعيننا على صحائف ناصعة لأطهر طائفة ظهرت في التاريخ البشري كله .

أين ذهبت أموال الصديق ؟

أين ذهبت أموال ذي النورين ؟

من أين كان يعيش أهل الصفة ؟

كيف عاش المهاجرون في المدينة المنورة ؟

كيف جهز هؤلاء الفقراء الجيوش التي هزت جبابرة المال في مكة ، وفي فارس والروم فيما بعد ؟

كيف أهاب القرآن بالصديق أن يصل الرجل الذي أسهم في حديث الإفك عن سيدة النساء عائشة ؟

كيف رفض عثمان ربح تجارة من تجاراته أملا فيما عند الله فوهبها أهل المدينة ؟

كيف وهب عبد الرحمن بن عوف قافلة تجارية كاملة لأهل المدينة خوفا من حديث حدثت به عائشة ؟

عشرات ، بل مئات من لوحات الشرف التي أشرق بها تاريخ الإسلام ، كانت مدرستها الأولى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وصلاة الجماعة ، حيث بنى الضمير الروحي الذي تبلورت على ضوئه أسس المنفعة في الإسلام .

إن نجاح المسلم في إقامة الصلاة على وجهها الصحيح يدفعه راضيا مسارعا إلى الزكاة ، ثم إلى الإنفاق الحر الذي يجتث أصول الداء من مجتمع الإسلام ، وما ظن المسلم الحديث بالزكاة المفروضة ومحاولة التخلص منها

بمختلف التأويلات الفاسدة ، وفشله الذريع فى الإنفاق الحر ، إلا لفشله الفاضح فى إقامة الصلاة ، وتلقى درس الضمير فى جامعتها .

اسجد للنجم الخافت فى قلبك ، ستراه بعيدا أول الأمر ولكنك إن دمت على السجود له والاقتراب منه فسيغمرك النـــور ، نور السموات والأرض ، وحينئذ ستخل قبضتك على بعض المال الذى أتخمك لتسهم به فى قوة الإسلام ، وربط أبناء المجتمع فى مجتمع صاعد .

(وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون) .

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لايعلمون) .

والمنافقون الذين لايعلمون ، هم الذين استكبروا عن العبودية الحقة لله واعترفوا بها بألسنتهم : (ومن يستنكف عن عبادى ويستكبر ، فسيحشرهم إليه جميعا ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فسيعذبهم عذابا أليما ، ولايجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) .

(إن ينصركم الله فلاغالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المتوكلون) .

والبيت الحرام الذى يتوجه إليه المسلمون فى صلاتهم من «حرمات الله» حرم الله فيه القتال والجدال وقطع الشجر والعدوان ، واللدد فى الخصومات وجعله حرما آمنا يتخطف الناس من حوله ، فإذا اتجه إليه المسلمون بأشباحهم وأرواحهم ، ولاذوا بجواره فلا بد أن يكون لهم من هذا التوجه درس عميق ، ومناسبة سامية من هذا الرمز الواضح ، وإيحاء بأن المسلمين إخوة لاخصومة بينهم ولا جدال ولاخلاف ولاحرب ، وبأن الوحدة فى الهدف والضمير والمشاعر والشعارات قائمة فى العمل القلبى واللفظ اللسانى .

الله أكبر الله أكبر .. لا إله إلا الله . محمد رسول الله

الصلاة والعلم

من اليسير على أى دارس أن يدرك أن أساس الرسالات السماوية كلها، هو دعوة الناس إلى التوحيد، وأن الإنسان وقف أمام هذه الدعوات المتكررة على ألسنة الأنبياء والرسل مواقف غريبة من النكث بالعهود، والتحرر من التوحيد بطرق صريحة أو ملتوية، وتنوعت عقوبات الله تعالى لهؤلاء الذين أشركوا به من الخسف والمسخ. والصاعقة والرجفة، وغير ذلك من ألوان العقوبات التى وردت فى القرآن الكريم.

ثم ختم الرسالات برسالة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن الكريم، وعرض حشدا هائلا من هؤلاء الذين نكثوا عهود الله، ونالوا عقوبات الله، ثم جدد بعد ذلك لهم معالم الطريق بصورة شاملة فى كل ما يمس قضية التوحيد من قريب أو بعيد.

وقد كان الرواد الأوائل على علم يقينى، وفقه دقيق بهذه القضايا التى استوجبت مخالفتها غضب الله تعالى على المخالفين وتحطيم حضاراتهم التى كان منها مالم يخلق مثلها فى البلاد، حسبما جاء التعبير القرآنى عن إرم ذات العماد.

ولذلك سنعرض لأمهات المسائل التى تندرج كلها، تحت قضية واحدة كبرى هى قضية «التوحيد والشرك».

* * *

الشرك هو أن يدعى المخلوق لنفسه أو لغيره أمرا خص الله به ذاته، مالم يسمح به الله للناس، وقد حرم الله الشرك به على الناس أو مشاركته فيما قصره على نفسه، إلا ما سمح به لهم، وأنزل بسماحه هذا سلطانا من عنده، فى حدود وصفها بقوله تعالى: (قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن، والإثم والبغى بغير الحق. وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون).

هناك إذن نوعان من الشرك:

١ — نوع لم يسمح به الله مطلقا .

٢ — نوع سمح الله به فى حدود إذا جاوزها الإنسان وقع فى الشرك الذى لا يسمح الله به مطلقا .

والشرك الذى لم يسمح به الله أصلا ، والشرك الذى يكون نتيجة للغلو ، هما الشرك الذى لا يغفره الله أبدا : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما) .

وليس الشرك مقصورا على العمل الظاهر الذى تحدده الحواس والجوارح ولكن منه نوعا خفيا يجول فى الصدر ، ويعتقده الإنسان فى نفسه ، وإن لم تظهر دلائله واضحة ملموسة ، وهو أخفى فى الأمة من دبيب النمل على الصفاة .

* * *

وأم القضايا التى دفعت الناس إلى الشرك « قضية الملكية » .

يقرأ بعض الناس القرآن فيجدون أن الله تعـالى يقول : (لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير) : ويقول : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل ، وكبره تكبيرا) .

وبهذه الآيات وأمثالها ، وهى التى تعرض للحقيقة ، من أن الله مالك لكل شىء ، يخال البعض أنه لا يجوز للإنسان أن يملك شيئا مطلقا ، مادام الملك كله لله ويؤمن بهذا الرأى ، مادام يعتمد على آيات صريحة ، وكيف يدعى الإنسان معها أنه يجوز له أن يمتلك شيئاً فى الأرض ، فيشارك بتلك الملكية ربه فى ملكه ، وعلى هذا فترك الملكية ، وترك الأرض للخراب فى نظر هذا النوع تخليص للنفس من الوقوع فى الشرك الذى لا يغفره الله .

فليعش المسلم على هذا على القمامات ، وسؤال الغـير ، وهكذا يتطرف هؤلاء فى بحثهم موضوع التملك والملكية إلا الطرف الذى يدعى أصحابه أنه لا ملك ولا ملكية .

ويقرأ بعض الناس القرآن نفسه ، فيجدون أن الله تعالى يقول : (قال موسى لقومه : استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين) . ويقول : (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين) . فيتمكن الاعتقاد ممن يزعمون الصلاح ، فى أنهم هم أهل الجنة ، وأن الله قد أورثهم الأرض ، وأنهم عباده المتقون ، وأن العاقبة لهم ، وأن رزقهم هذا ماله من نفاذ ، وهكذا يشاركون الله فى ملكه إلى الأبد .

يمسك النوع الأول بالطرف الذى يقول أصحابه : إنه لاملكية ولاتملك ويمسك النوع الثانى بالطرف الذى يقول : إن الإنسان إذا ملك فقد أورثه الله الأرض والجنة إلى ماشاء الله ، ولكل منهما حجته من القرآن فأين الحق الذى منحه الله للناس ؟

يتضح الحق فى موضوع التملك ، وفى كل موضوع إذا درس الإنسان كل ماجاء عن الموضوع المراد معرفة الحق فيه من القرآن .

حقيقة إن الملك كله لله ، وقد سمح للناس دخولهم حق مشاركته فى ملكه ، وأنزل بذلك سلطانا ، وجعل لهذا الحق حدودا إذا تعداها المخلوق فقد جاوز الحق الذى منحه الله له ، ووقع فى الشرك .

فالأخذ بأحد الطرفين غلو فى الدين منعه الله ، وحذر منه العباد ، أما حد الوسط فهو الحق الذى لايتعدد ، وبين الوسط وكل من الطرفين تتعدد الآراء والمـــذاهب ، متدرجة نحو المغالاة إلى أحد الطرفين وخدمة أعداء الإسلام .

ولقد كان علم الرواد الأوائل فى هذه القضية الشائكة غاية فى الدقة والإحكام ، فأخذوا بالوسط الذى هو عين الحق ، ولم يعطلوا العمران بإلغاء الملكية ، ولم يطلقوا أيديهم وأنفسهم فى عبـــادة الملكية والثبات عليها وإطلاقها .

لقد أخرجوها من قلوبهم ، ووضعوها فى أيديهم ، يقيمون بها المجتمع ويطعمون بها الجياع ، ويجزون بها الجيوش ، لنشر الإسلام ، وإعلاء كلمة الله ، وشراء حرية المسلمين من سادتهم الكفار ، وسد حاجة المسلمين فى الأزمات والمجاعات ، فعلوا ذلك بنفس راضية ، لأنهم كانوا يقيمون على حد الوسط ، يفقهون روح التوحيد فى الإسلام ، ولم يكونوا فى حاجة إلى قوانين رادعة ، تردهم إلى هذا الوسط .

من أين استمدوا حجتهم ؟

هل أشركوا فاتخذوا بأنفسهم لأنفسهم قانونا ؟

بل لقد علموا من نصوص القرآن الكريم أن السبب فى وجود الإنسان ماهو إلا العمل على إصلاح الأرض ، وأن عمل الإنسان بالهبة التى وهبه إياها ليس إلا « تجارة » إذ أنه سبحانه قد وهبهم رأس المال الذى هو : « نفس الإنسان ، وقواه ، والأرض وما عليها ، وما فى باطنها » ليستغلوا ذلك فى أعمال الإصلاح حسب التعاليم . والنظم التى وصفها الله سبحانه وتعالى ، فإذا ما استرد الله رأس المال ، لم يبق للإنسان إلا ماغل من كسب أو خسارة .

وقد أفصح الله تعالى عن هذه الحقيقة واضحة ، ولكن الغلاة المتطرفين كما قلنا لم يأخذوا بالقرآن كله ، بل أخذوا بأجزاء منه تتفق مع أهوائهم وميولهم ، أو مع ميول أعداء الإسلام حيث زخرفوا لهم بها القول وأوحوا إليهم غرورا بهذا الزخرف .

وتلك الحقيقة التى أفصح عنها الله تعالى تتجلى فى قوله الأسمى : (ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) .

وقد تفضل سبحانه وتعالى بسبب ماوضع للناس من اختيار ، وأعلن أنه يشترى مجهود الناس فى هذا العمل الإصلاحى حسب النظام الإسلامى ، فقال : (إن الله اشترى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم) .

وقد جعل الله الرسل والأنبياء خلفاء له ، يرعون تنفيذ ماوضعه من نظام ، وفرض الاحتكام إليهم فقال : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ماأنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيرا من الناس لفاسقون) .

ولقد كانت البيعة التى تتم بين النبى صلى الله عليه وسلم ، وبين من يقبل التقيد بهذا النظام ، قائمة على هذا الأساس ، وقد قرر الله تعالى : أن من يفعل ذلك فهو إنما يبايع الله ، وأن يد الله فوق أيديهم .

وثمن هذه المبايعة والوفاء بها ، هو العز والنصر والسعادة والسيادة فى الدنيا ، والخلود فى النعيم الدائم فى الآخرة : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد) . (وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله يحب المحسنين) .

ولما أباح الله تعالى للإنسان أن يملك نفسه ، وأن يملك الأرض بهذه الشروط التى أوضحناها ، وكان الإنسان شيئا مما على الأرض ، فقد أباح الله للإنسان أن يمتلك أخاه الإنسان ، ويكون هذا التملك بالاستئجار أو غيره .

وقد جعل الله لامتلاك الإنسان لأخيه حدودا وقواعد ، وكان السبب الأول لمنح هذا الحق للإنسان هو اختلاف مقدرة الناس ، وضرورة توحيد قيادتهم ، ليثمر المجهود المشترك الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة ، ويتم التعاون بين الجميع على خير الوجوه .

ولا يسمح الله للإنسان كائنا من كان أن يخضع لأوامر غيره إذا خالفت أمره ، ولا أن يرغم أخاه الإنسان على هذا العمل الممقوت . وإذا أطاع المملوك مالكه فى أوامره الموافقة لأوامر الله لم يكن فى طاعته هذه إلا مطيعا لله ، حيث يستوى المالك والمملوك فى وجوب طاعتها . أما إذا أطاعه فيما يخالف أمر الله ، فقد اتخذ إلها من دون الله ، وأشرك الشرك الممنوع الذى يدخل به تحت طائلة الغضب الإلهى .

والمالك والمملوك سواء فى مسألة الرزق ، فالله هو الذى يرزق الجميع : (ضرب الله لكم مثلا من أنفسكم هل لكم فيما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ، فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) .

وإذا تحقق إسلام المسلم ، وقيد نفسه بتعاليم الله وعمل بها ، تحقق له الخير فى الدنيا والآخرة أما إذا أشرك ، واختار الحرية بمعنى عدم الخضوع لله ، واتخذ من هواه إلها يعبده ويطيعه ، وألزم من ملكه الله إياه من الناس بطاعته فيما ليس لله فيه رضى ، فإنه يذل ويخزى ، ويركبه الفقر والهوان من كل جانب . يقول الله تعالى : (قلنا اهبطوا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، فكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) .

وهكذا نرى الأصول الأولى للعلم فى القرآن الكريم ، تحرم على المسلم الذى يسلم بالتوحيد لله أن يسير على هواه ، وأن يدعى لنفسه « الحرية المطلقة » ، يفعل مايشاء ، ويخضع لما تميل إليه نفسه وتهواه ، إذا أراد أن يظل مسلما مقراً بالتوحيد لله ، مهما تعددت وساطات الأسباب بينه وبين ربه .

إن دعوة الحرية المطلقة أصلا مساوية للشرك ، والقول بأن الإنسان مطلق الحرية مساو للقول بأنه مشرك ، ومن الشرك معنى واحد سمح الله به للناس ، وهذا المعنى هو « الملكية والتملك » فى نطاق الحدود التى حدها الله تعالى لتجارة المسلمين ، التى تنجيهم من العذاب فى الدنيا والآخرة (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا . أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) .

* * *

ولما ظهر النظام الإسلامى على يد خاتم الأنبياء ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كان لابد أن تتوالى الأوامر على الرسول تباعا ، فيتلقاها صلى الله عليه وسلم ، ويقوم بمن معه من المؤمنين بتنفيذها على الفور ، ولهذا كان النسخ والتبدل ، لتتدرج أوامر الله تعالى مع قوة المسلمين ، وكانت الأوامر اللاحقة تنسخ الأوامر السابقة ، ولهذا كان من سلامة الرأى أن يستعرض الإنسان الموضوع الواحد فى القرآن كله ، مراعيا ترتيب تلك الأوامر حسب ترتيب السور التى نزلت فيها ، حتى يكون بذلك على بصيرة من التدرج القرآنى والناسخ والمنسوخ ، حتى لا يقع فيما وقع فيه بعض الباحثين من التمسك بآيات تتضمن أوامر نسختها أوامر أخرى لاحقة لها ، مما أدى إلى اضطراب أمر المسلمين وسياستهم ، وبلبلة أفكارهم .

لقد وضع الله النظام الإسلامى ليعمل الناس بمقتضاه فى إصلاح الأرض التى هى سبب معاشهم وأداة حضارتهم ، وموضوع تجارتهم ، وقد أحكم

الله هذا النظام ليكون فيه الخير لكل الناس ، فإذا آمن به الناس ، وعملوا على تنفيذه ، تحقق لهم الخير فى الدنيا والآخرة .

ولا يرضى الله للناس أن يفسدوا فى الأرض ، ولا أن يتركوا العمل على إصلاحها ، ولذلك يقول تعالى : (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) .

ومن عمل على هذا النظام الإصلاحى فى الأرض ، فهو مؤمن خصه الله بميراث الأرض (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) .

ومن العمل على إصلاح الأرض منع الفساد ، وإبادة المفسدين ، أو تقليم أظفارهم ، حتى لا يتمكنوا من العمل على سيادة مبادئهم بين المؤمنين .

لقد كانت أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) . فلما اطمأنت نفسه إلى الدعوة ، طلب الله تعالى منه أن ينذر الناس ، فأنزل عليه قوله : (يا أيها المدثر ، قم فأنذر . وربك فكبر)

وكان ذلك فى السورة الرابعة من القرآن حسب ترتيب النزول .

وتوالت الأوامر ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتعجل أخذ الناس إلى الإصلاح ، فأنزل الله عليه : (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) . وكان ذلك فى السورة الحادية والخمسين ، حينما كان الرسول بمكة ، ولم تكن لديه القوة التى تمكنه من منع الفساد ، فطالبه الله بالانتظار حتى يأذن الله ، واكتفى منه بالدعوة لدينه باللين ، فأنزل عليه قوله : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل

عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) وكان ذلك فى السورة السبعين .

فلما اشتد ساعد الرسول صلى الله عليه وسلم وأنصاره قليلا ، لم تعد هناك حاجة إلى ملاطفة المتجبرين من الكفار ، فأنزل الله تعالى قوله :(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون) وكان ذلك فى السورة الخامسة والثمانين .

وتمضى الأعوام ، وتقوى شوكة المسلمين ، ويكتب الله عليهم القتال لتقليم أظافر المفسدين ، بقوله تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) وكان ذلك فى السورة السابعة والثمانين .

وهكذا نسخ الله أوامر اللين ، وأبقى مع القتال محاولة أهل الكتاب بالحسنى ، إلا الذين ظلموا منهم ، وفرض على المسلمين القتال لصيانة تجارة المسلمين، التى دلهم عليها سبحانه وتعالى ، ولبقاء كيانهم عزيزا منيعا ، وحياتهم هانئة طيبة ، فقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون) وكان ذلك فى السورة الثامنة والثمانين .

وبدأت بعض النفوس الضعيفة تشعر بثقل أمر القتال ، وتبرز من أعماقها الأهواء ، وتخلد إلى الراحة ، ففضح الله نواياهم ، وأفصح عن الهدف من القتال فى قوله : (يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات

الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون) وكان ذلك فى نفس السورة الثامنة والثمانين .

ولقد حذر الله تعالى من هذه الفتنة التى بدأت تطل برأسها ، والتى ترهص بظهور طائفة منظمة بعض الشيء ، هى فئة المنافقين ، فحذر الله المؤمنين من الراحة ، لئلا تفتنهم عن الاستجابة لما فيه حياتهم ، ونجاح تجارتهم ، وإرساء قواعد عزهم ومجدهم ، فلقد قام هؤلاء الذين يكونون نواة المنافقين ينفرون المؤمنين من القتال ، ويدعونهم ليكفوا عن الاستماع لدعوته ، فليتركوا الناس حينئذ يفسدون تجارة المسلمين ، وليكتفوا بالدعوة إلى الحق باللين ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وليهدم المفسدون مابناه المصلحون ، ولينصح المؤمنون هؤلاء الهادمين بالكف عن الهدم ، ولا يحاولوا منهم بالقوة ، وتلك دعوة غريبة على الإسلام نبه الله تعالى إليها بقوله : (ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ، لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا ، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ، وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عندالله، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا) وكان ذلك فى السورة الثانية والتسعين .

ولما استحكم الإيمان من القلوب ، وازدهرت الدعوة وآتت ثمارها وأخذ النظام الإسلامى الجديد يدرج على سلم الحضارة فى سرعة وقوة ، ولم تعد هناك حاجة إلى مداراة الكفار ، كلف الله المؤمنين الذين يعملون على

على إصلاح الأرض ، ويروجون لتجارة الله ، أن يقطعوا دابر الكافرين حيثما وجدوهم ، ليضعوا حدا فاصلا بين الفساد والإصلاح بإحدى طريقتين إما استئصالهم استئصالا كاملا ، وإما بإخضاعهم والحد من نشاطهم ، فقال تعالى : (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم وأحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم) وقال جل جلاله : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يؤتوا الجزية عن يد وهم صاغرون) . وكان ذلك فى السورة الثالثة عشر بعد المائة .

ولم ينزل بعدها إلا قوله تعالى : (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) .

هذا هو الدرس العملى للزعامة والقيادة فى الإسلام ، وفى سيادة مبادئه التى طولب المؤمنون بنشرها فى كل زمان ومكان ، فقد بدأت الدعوة باللين ، وانتهت إلى الأمر باستئصال الكفر والفساد ، أو شل حركته فنسخت جميع الأوامر الأولى .

وسار الصحابة الفاتحون على هذا النهج ، فانهارت تحت أقدامهم عروش الجبابرة ، وتألق الإسلام فأضاء الشرق والغرب ، فلما اختل النظام التجارى الذى رسمه الله تعالى للمؤمنين ، اهتز أساس الحضارة ، وبدأت تهوى رويدا رويدا ، حتى تمكن الشرك بمختلف أهوائه وألوانه قرونا طويلة من الزمان وبقى الدرس الأول للعلم الحضارى مسطورا فى القرآن ، متلوا على الأسماع فى كل حين .

ويمكن بعد ذلك إجمال الأصول الأولى للعلم الحضارى فى الإسلام فيما يلى :

١ — التوحيد الخالص لله وما يتبعه من عبادات تدل عليه .

٢ — العمل فى إصلاح الأرض واستغلالها . ظاهرا وباطنا .

٣ — الإسهام بكل عمل العبد فى التجارة التى حدد الله أسسها .

٤ — الجهاد لإعلاء كلمة الله ونشر العدل على ضوء القرآن .

٥ — القضاء على المفسدين أو إخضاعهم لقانون الإسلام .

٦ — اليقظة لألاعيب المنافقين .

وحينما تشعبت العلوم واختلفت ميادينها ، كان لا بد للمسلمين أن يخوضوا غمارها ، ولكن بشرط أن يصحبوا معهم القانون الأساسى للعلم كما أوضحه القرآن والسنة ، ممثلا فى القدر الممنوح من الحرية للعباد ، وعدم الاستسلام لاقتباس العلم من الغير دون تفريق بين حق وباطل ، وذلك لحماية المسلمين من التنازع والفشل وذهاب الريح .

* * *

وفى غمرة الفوضى العلمية التى سادت فى العصر الحديث ، احتفظت طائفة من المؤمنين بقانون العلم الأساسى المرسوم فى القرآن أى بمقومات العلم الذى أراده الله لبناة ملكه علـى الأرض ، وتطورت تلك الطائفة خلال العصور والأحقاب ، وابتكرت من التدريب النفسى والروحى ما يحفظ مكان العلم من الإنسان المؤمن نقيا طاهرا من شائبة الانحراف ، مستعدا لزاد الإيمان فى كل عصر .

ولقد نبه الإمام « أحمد بن حنبل » رضى الله عنه إلى فضل هذه الطائفة ، فأوصى ولده قائلا : « ياولدى . عليك بمجالسة هؤلاء القوم ، فإنهم زادوا علينا بكثرة العمل والخشية لله وعلو الهمة » وكان الإمام الشافعى رضى الله عنه إذا اشتبهت عليه مسألة من مسائل العلم يأتى إلى « شيبان الراعى » رضى الله عنه ، ويجلس بين يديه آخذا عنه الحق فيما اشتبه عليه .

ويقول سيدنا « أحمد الرفاعى » رضى الله عنه ، فى كتابه « النظام الخاص » تنبيها لتلاميذه ، لما اضطربت المثل العليا فى عصره : « ليس الزهد أن تختط لنفسك كوة فى الجبل ، وتلبس الخشن ، وتأكل اليابس ، إنما الزهد أن تنفض يدك من الدنيا ، فلا ترفعها إلى قلبك ، ولو ملكتها بحذافيرها ، ومن علامة الزاهد قول الحق ، لأن كلب الدنيا يخاف على جيفته ، فيسكت عن قول الحق » .

ونبه رضى الله عنه على أثر العلم المقتبس من مشكاة النبوة ، وعلى فعله السحرى فى الأمة بقوله : « حكيم ضاء قلبه بقابسة النبوة ، يفعل مالا يفعله العسكر الجرار » .

ويضع الميزان الصحيح الذى يوقفنا على العلم الصادق من العلم الزائف بقوله : « إذا طابت نفوسكم للحكمة فارفعوا بها خواطركم إلى حكمة نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وإلى كلام ربكم جل وعلا ، فإن طابت خواطركم بحكمة النبى صلوات الله وسلامه عليه ، وتنورت بكلام الله ، فهى على هدى ، وإن لم تطب بالحكمة النبوية ، وتشرف بنور القرآن ، فهى صنجيقة الشيطان ، فتوبوا واستغفروا ، فرب علم ثمرته جهل ، ورب جهل ثمرته علم » .

ونبه كذلك على زيف الاقتصار على العلوم المدونة ، التى عبروا عنها « بعلوم الأوراق » ، وضرورة البحث عن العلم الكامن فى داخل النفس المؤمنة بقوله : « الفنون النوعية فى العصابة الإنسانية لاتتناهى ، والفنون العلمية متناهية بالنسبة للمدون ، فمتى قابلت النوعى بالمدون رأيت أنك لو بلغت الغاية فى كل مدون ، فأنت قاصر فيما لايتناهى من النوعى ، هذا نوع الإنسان قال الله تعالى فيه (علم الإنسان مالم يعلم) » ويؤكد رضى الله عنه هذا المعنى فى كتاب « البرهان المؤيد » فيقول : « شيدوا دعائم الشريعة بالعلم والعمل ، وبعدها ارفعوا الهمة للغوامض من أحكام العلم وحكم العمل » .

ويدفع تلاميذه إلى العمل . وعدم التعويل على السؤال فيقول : « سفل اليد أصعب من قطعها . احترف بما تصل إليه قوتك ، ويبلغه إمكانك ، أدنى حرفة من الأعمال لو فقهت أشرف صنعة درج عليها أهل الهمم ، وهى الترفع عن نوال زيد وعمرو » ويروى أن خاله العارف الكبير ، سيدى منصور البطائحى ، رد هدايا بعض أتباعه ، فسأله فى ذلك ، فقال : فيها شيء من مجتمع السؤال ، ولولا ذلك تقبلته عملا بالسنة ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم رد الصدقة وقبل الهدية .

* * *

والعبادة والعمل فيها من أصول العلم الأولى فى الإسلام ، قال الله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وفسر ابن عباس رضى الله عنه العبادة بالمعرفة ، وذلك أن العبادة هى الأعمال البدنية ، وإذا واظب عليها الخلف عن السلف ، صارت كالعادة ، وظن أنها مطلوبة لذاتها ، وحينئذ لا تؤدى المقصود منها ، وهو التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلقه ، ورعاية أحوال القلب والروح فى المعرفة والمحبة ، وعدم الاعتماد على تلك الصور الظاهرة لأعمال العبادة ، ولما كانت الأعمال البدنية غير مقصودة لذاتها كان معنى قوله تعالى : (ليعبدون) هو : (ليعرفون) وبه قال ابن عطاء وجعفر الخلدى وغيرهم ، وأساس ذلك من السنة ما روى أنس بن مالك رضى الله عنه : « أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال له : علمنى غرائب العلم . فقال : وما صنعت فى أصل العلم ، ورأس العلم ؟ حتى تعرف غرائبه ؟ قال : وما أصل العلم ؟ قال : هل عرفت الرب ؟ . فجميع العلوم فى الإسلام إذا لم تسبقها معرفة الله تعالى على أساس العمل فى العبادة ، كانت كرأس بلا جسد ، وبناء على غير أساس » .

وليس من معرفة الله تعالى الخوض فيما لا يمكن للعقول إدراكه ، فقد سئل « مالك بن أنس » رضى الله عنه ، عن معنى الاستواء فى قوله تعالى :

(الرحمن على العرش استوى) فقال : « الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب » ثم أمر بالسائل فأخرج من المجلس .

المعرفة المرادة إذن هى نفس التوحيد الذى أشرنا إليه من قبل ، والذى تعتبر العبادة هى الطريق إليه ، حتى يصل العابد إلى درجة العبودية التى أشار إليها سيدى « محمد بهاء الدين شاه نقشبند » رضى الله عنه ، بقوله : « فى العبادة طلب الوجود ، وفى العبودية تكيف الوجود ، ولا ينتج العمل ما دام الوجود باقيا) .

وهناك آيات من القرآن الكريم قد تزلزل معرفة البادئين ، ولكنها كلها ترجع إلى مسألة « الشرك الممنوع والممنوح » ، ومن هذه الآيات :

(قل كل من عند الله) . . . . . (ما أصابك من سيئة فمن نفسك)

(إن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) . . (وأضلهم السامرى)

(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) . . (فثبتوا الذين آمنوا)

(وما تشاءون إلا أن يشاء الله) . . . (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)

(لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) . . (خلق لكم ما فى الأرض جميعا)

والحق أنه لا إشكال فى أمثال هذه الآيات ، فكلها توحيد ، فإن الله تعالى إذا أراد التوحيد المطلق ، عبر بالحقيقة ، ولم يشرك معه أحدا من خلقه فى ملكه ، وإذا أراد بيان التوحيد المفصل أشرك معه الخلق فى الحكم ، ولقد أمر الله رسوله بالدعوة إليه بقوله : (ادع إلى ربك) ، ولكن من الذى أسمع الآذان ، وفتح أقفال القلوب . ووفق للاستجابة ، أليس ذلك الله الواحد فى حكمه وملكه وصنعه ؛ ولذلك يقول : (فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء) .

فإذا نظرنا إلى تفصيل التوحيد ، فى مظاهر الخلق ، أثبتنا الوسائط

والرسل ، وإذا نظرنا إلى التوحيد المطلق ، لم نر مع الله أحداً . ومن هنا صحت عبارة « أبي يزيد البسطامي » وأمثاله ، رضى الله عنهم : « الموحد من لايرى غير الله ولا ينظر إلا بالله ، ولا ينطق إلا بالله ، ولا يحب إلا فى الله ، ولا يشكر إلا الله » .

* * *

ما مكان الصلاة من العلم إذن ؟ .

لقد أوضحنا أثر الصلاة فى التوحيد ، فى آخر حديثنا عن « الصلاة والبيئة » وأوضحنا أن كل عمل من أعمالها يعيد الإنسان إلى أصله ، ويتجاوز البيئة عمقا فى مناطق الانعزال .

ونتساءل بعد ذلك عن مدى صلة الصلاة بإعداد المؤمنين عسكريا لتنفيذ أهم القوانين الحضارية فى الإسلام ، ولبيان ذلك سنعقد موازنة بين التدريب العسكرى ، القائم فى أعمال الصلاة ونظيره فى القانون العسكرى العام فى القانون الوضعى ، على الوجه التالى :

أصول التدريب العسكرى فى الصلاة	أصول التدريب فى القانون العسكرى	الموازنة
١ – الطاعة والاستجابة دون تردد ولا جدل عند سماع النداء لله تعالى ، والإسراع بإقامة الصلاة فى مكان الجماعة أو فى أى مكان آخر ، والنداء موجه إلى البالغين العقلاء من المسلمين رجالا ونساء .	الطاعة العمياء عند سماع نداء النوبة ، والإسراع إلى مكان التجمع ، والأمر موجه إلى الجندين فى كل وحدة على حدة ، ولا يلزم به من يسمه خارج أسوار المعسكر ويشمل الأمر من بلغ الحادية والعشرين من العمر من الرجال فقط .	التدريب فى الصلاة أشمل ، لأنه يعم جميع البالغين ذكوراً وإناثاً ، والقاعدة العسكرية فى الصلاة أوسع لأنها تشمل البيوت والمساجد والحقول وغيرها والوازع المنبعث من الضمير والاقتناع يتوفر بصورة أصح فى الصلاة دون القانون العسكري .

الموازنة	أصول التدريب في القانون العسكرى	أصول التدريب العسكرى في الصلاة
عنصر القوة الروحية في الصلاة ناشىء من التدريب على سكون الجوارح ، حتى ولو كان المصلى مريضاً أما فى القانون العسكرى، فعنصر القوة الروحية غير محتم التحقق ، والقوة النابعة من النشاط البدنى قد تكون مدعاة للغرور ، ولا طهارة فى التدريب العسكرى .	ينهض الجند إلى النداء فى نشاط وشجاعة وتحفز ويعاقب كل من يكسل أثناء العمل بصرف النظر عن معتقده ، ويكون توجه الجند نحو علم البلاد .	٢ - يقوم المكلفون إلى الصلاة بعد الطهارة البدنية وطهارة الثوب والمكان فى خشوع وخضـــوع وحضور مع الله تعالى .
تحقيق النشاط فى الصلاة مؤكد وبصورة شاملة عنه فى القانون العسكرى .	يوجه أول نداء للمجند فى الساعـــة الخامسة صباحا ، والعناية بحلق اللحية ونظافة الملبس أهم من الوضوء .	٣ - يوجد أول نداء من اليوم وقت الفجر ، ويجب أن ينفض المكلف الكسل ويهب لإجابة النداء وفى الوضوء قضاء مبرم على الكسل ، والنهوض للصلاة قبل الفجر من السنن، وكذلك عدم النوم بعد الصلاة .
تحقيق التدريب فى الصلاة مدى الحياة ، بخلاف القانون العسكرى الذى يترك المدربين فريسة النسيان بعد سن معينة .	لايعفى من توجيه النداء كل من زاد سنه على أربعة وعشرين عاماً إلا فى حالات التعبئة العامة فيعفى من زاد على الأربعين	٤ - لايعفى من توجيه النداء إلا المجنون .

أصول التدريب العسكرى فى الصلاة	أصول التدريب فى القانون العسكرى	الموازنة
٥ ـ النظام ووحـــدة الحركات خلف الإمام فى الركوع والسجود والأذكار .	النظام ووحدة الحركات بأمر المدرب فى السير والتشكيل .	تنفرد الصلاة بحركات الركوع والسجود وحركات القلب واللسان .
٦ ـ التدريب الحر ، حسب درجات الإيمان فى صلاة الليل والضحى .	لا يوجد .	
٧ ـ تدريب جماعى لأهل القرية أو المحلة كل أسبوع ، وآخر أشمل منه فى كل عام فى العيدين .		
٨ ـ تحديد الهدف للجسد والقلب وترك التدريب على الرمى حرا مستحبا للجميع .	تحديد الهدف باليد حين التدريب على الإصابة	تنفرد الصلاة بتحديد وجهة الجسد والقلب .
٩ ـ التدريب المفروض خمس مرات فى اليوم .		
١٠ ـ الروح المعنوية من لوازم الصلاة ، وهى نتيجة طبيعية لأدائها على وجهها الصحيح .	الروح المعنوية مسألة تؤخذ على ظاهرهم من الحركات النشطة وليست من لوازم التدريب العسكرى .	تنفرد الصلاة بضمان قوة الروح المعنـــوية للمؤمنين .
١١ ـ يتبع التجمع للصلاة تفقد لأحوال المسلمين ورعاية مصالحهم ، وتدريب على أعمال البر المختلفة .		

ومن هذه الموازنة السريعة يظهر لنا ماتنفرد به الصلاة من مزايا لا تتحقق فى التدريب العسكرى العام فى معسكرات التدريب ، ولا نعنى بهذا القول إلغاء معسكرات التدريب ، ولكننا نعنى أن يكمل النقص الذى يسود معسكرات التدريب فى البلاد الإسلامية، وماذا على وزارات الدفاع فى بلاد الإسلام إذا عدلت مواعيد « طوابير التدريب » فجعلتها موافقة لمواعيد الصلاة تماما ؟ وكان الوضوء من الأوامر العسكرية التى تقترن بحلق اللحية ، وتنظيم الهندام ، والصلاة مقدمة للتدريب ، وكان أئمة الصلاة من صالحى المؤمنين الذين يفعلون فى نفوس الجماهير بكلمة ، مالا يفعله العسكر الجرار كما يقول مولانا الرفاعى رضى الله عنه ، وكما تشهد بذلك التجربة ، وحينئذ سيتكون لنا جيش مثالى بين جيوش العالم كله يقوم تدريبه على الأساس الذى قام عليه تدريب الجيش الأول فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويرجى منه نفس العمل المنجز الذى قام به ذلك الجيش الأول .

أما أن الصلاة الصحيحة قضاء مبرم على الفساد فى داخل النفس ، ومن ثم فى نطاق المجتمع ، فيكفى أن نستعرض بعض حالات البناة الأوائل للحضارة الإسلامية لندرك ماوراء الطور من طهارة ونقاء السريرة ، وصلاح القلب والفكر .

كان النبى صلى الله عليه وسلم يحب من الطعام ماكثرت عليه الأيدى ، وكان أكثر طعامه التمر والماء . وكان كثير البكاء حتى كأنه حديث عهد بمعصية ، وكان لايهاب ملكا لملكه ، ولا يحقر مسكينا لفقره يدعو الكل إلى الله دعاء واحدا ، وكان أرحم الخلق بالخلق ، فإذا وقعت منه شدة على أحد تأديبا له ، قال : « اللهم اجعلها عليه كفارة وطهورا ورحمة » ، وكان لايدعوه صلى الله عليه وسلم أحد ، من حر أو عبد ، أو عجوز أو أمة إلا قام معه فى حاجته جبرا لخاطره ، وكان يجلس حيث انتهى به المجلس ، فلم يكن له مجلس يعرف فيه من بين أصحابه ، فكان الغريب إذا جاء يسأل عن أمر دينه لايعرفه فتكلم أصحابه فى شىء يتميز به لهذا السبب فجعلوا له دكانا

من طين يجلس عليه وفرشوا عليه حصيرا من خوص النخل صلى الله عليه وسلم .

وكان الصديق رضى الله عنه إذا أكل طعاما فيه شبهة استقاءه من وقته ، وقال « اللهم لا تؤاخذنى بما تشربت العروق وخالط الأمعاء » وكان يقول « إن العبد إذا خالطه شيء من زينة الدنيا مقته الله حتى يفارق تلك الزينة » .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول لولده وقد اشتكى له تخرق إزاره : « إياك يا ولدى أن تكون من الذين يجعلون ما رزقهم الله فى بطونهم وعلى ظهورهم » ، ويقول لأهله : لا تنخلوا الدقيق ، فإنه طعام كله » . وكان فى قميصه أربع رقاع بين كتفيه ، وكان يخرج إلى المجزرة ومعه الدرة ، فمن رآه يشترى اللحم يومين يضربه ويقول : « هلا طويت بطنك لجـــارك ، وابن عمك ؟ » .

وخرج رضى الله عنه يوما إلى السوق وهو يحمل قربة ماء على ظهره ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن نفسى أعجبتنى فأردت أن أذلها ، ولما قدم الشام تلقاه « أبو عبيدة بن الجراح » على بكر خطامه ليف ، ففرح عمر وقال : الحمد لله الذى لم تغير الولاية صاحبى ، فأمسك أبو عبيدة يد عمر فقبلها . وكان يقول : « إن نمت فى النهار ضيعت الرعية ، وإن نمت فى الليل ضيعت نفسى » . وكان يقول : « إن نفسى تشتهى خروفا يشوى فى التنور ولكن خوف الحساب يمنعنى » . وحلف رضوان الله تعالى عليه عام الرمادة ألا يأكل غير الزيت حتى يوسع الله على المسلمين ، وكان يخرج إلى الطريق يطوف بالبيوت ويقول : « من كان محتاجا فليأتنا » ووضع ابنه عبد الله رأسه على حجره وهو يحتضر ، فقال لولده : « ضع رأسى لعل الله يرى ذلى فيرحمنى ، وددت لو أنى أخرج من الدنيا كما دخلت لا أجر ولا وزر » .

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه . يقوم الليل كله إلا هجعة من أوله ، وكان يطعم الناس طعام الإمارة . ويدخل بيته فيأكل الخل والزيت .

وكان أمير المؤمنين على كرم الله وجهه كثيرا ما ينشد :

حقيق بالتواضع من يموت ... ويكفى المرء من دنياه قوت
فما للمرء يصبح ذا هموم ... وحرص ليس يدركه النعوت
فيا هذا سترحل عن قريب ... إلى قوم كلامهم السكوت

وكان طلحة رضى الله عنه يقول : « إن شخصا يبيت عنده الدنانير ، لايدرى مايطرقه من الله لمغرور ، وكان إذا لم يجد من يقبل نفقته لايأوى إلى منزله إلى الصباح .

وبمقارنة بسيطة يستطيع أبسط العقول أن يدرك الهوة الواسعة بين هؤلاء العمالقة ، وبين نظرائهم فى العصر الذى بدأ منذ العصر الأموى ، حيث فقدت الصلاة بعض عناصر الروح ، ويستطيع كذلك أن يدرك سحر الجيوش الأولى ، وانهيار الجيوش فيما بعد ذلك .

ولا يستطيع أى عقل كائنا من كان صاحبه أن يدعى أن مجتمعا تلك ملامح أهله يسوده فساد قليل ، فضلا عن الفساد المدمر الذى ساد مجتمعات الحضارة التى هام بها أنصاف المثقفين من بعد .

الصلاة أمان من الثرثرة ، ولا شىء يدفع الناس عن العمل سوى الثرثرة تلك حقيقة يحاول أعداء الحضارة الإسلامية إخفاءها مهما كلفهم من ملايين الدولارات .

والصلاة مدرسة العمل فى صمت وقد مر بنا مثال من الحوار بين أحمد بن أبى الحوارى ، وأبى سليمان الدارانى ، والذى بدا لنا منه كيف عد الأخير خطور الخلق على قلب الأول نوعا من الضعف لا يحمد عليه . إنها مدرسة يعمل فيها العميد بينه وبين ربه فإذا ماخالط قلبه أحد من الخلق حبط عمله وعاد نفاقا ورياء مذموما مطرودا صاحبه من زمرة المخلصين ، وفى الوقت نفسه ، لايجوز ترك العمل خوفا من هذا الرياء ، فلم يبق إلى جهاد النفس فى سبيل التخلص من الرياء ، وتدريب النفس على كتمان العمل عن الغير ، وعدم التحدث بنتائجه التى يحسها فى داخل نفسه .

وفى بعض الأوساط الدينية المنحرفة ، تكثر الثرثرة عن أعمال العبادة وعن النتائج التى يشعر بها العباد فى داخل نفوسهم ، وقد يقع بعض البسطاء فريسة لهؤلاء المثرثرين ، الذين يصدقون أنفسهم فى يوم من الأيام وبطريقة مفاجئة تجعلهم يتخذون لأنفسهم سمت العلماء ، وزى الصالحين بطريقة مفاجئة كذلك ، وفى ذلك مافيه من خطر على المثل الأخلاقية والطقوس الدينية والعقيدة الإلهية لايخفى على أبسط الأنظار .

إن الثرثرة تدفع الناس اعتقاد عام لايعنى بالتفصيل ، وتملأ النفس زهوا قد يكون فارغا من كل قيمة تستحق البقاء ، تحجب عن النفوس عيوبها التى تستحق الجهاد فى إصلاحها ، فيقيم الإنسان حينئذ على خداع النفس ، ولا يرجى منه خير بعد ذلك . وكيف يمكن القضاء على الفساد والمفسدين إذا كانت مثل الإنسان قائمة على الثرثرة التى يحسن اعتقاد العامة فى صاحبها وهو فى الواقع « المنافق العليم اللسان » الذى استعاذ الأوائل من شره .

إن الثرثار هو أول الفارين من الزحف ، لأن أعماقه تفتقر إلى الوعى العميق الصامت ، وهو الذى يزهد الناس فى الدنيا بثرثرة ، ليأخذها منهم فى المجلس .

ولقد سمعت عالما ثرثارا يحدث الناس عن الزهد ، ويؤكد أنه « الزهد فى الحرام » دون معنى زائد على ذلك ، وحينما نبهته إلى أن الامتناع عن الحرام مفروض على الجميع فلا يسمى زهدا ، لأن الزهد ليس مفروضا بمعناه الحقيقى على الجميع ، ثار وتناثر السباب من فيه الآثم ذات اليمين وذات الشمال على الزهاد والزاهدين ، ولولا أنه يمثل مسئولية دينية فى أمته لهان الأمر . وقد روى الحارث المحاسبى عن بعض الصحابة فى هؤلاء « أنه يأتى زمان على الناس ، مساجدهم عامرة ، خربة من الهدى ، وذلك أن علماءهم شر من تظله السماء » .

تصحيح النية

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله لاينظر إلى صوركم ولا إلى أحسابكم ولا إلى أعمالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » .

وإنما كان نظر الله تعالى للقلب لأنه محل النية ، الذى يحدد هدف العمل تحديداً دقيقا ، لايطلع عليه إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى . والنية تقود العمل إلى الغاية التى رسمتها فى البداية ، لأنها باطن العلانية وروح الحركات والحركة بدون نية كالجسد بلاروح ، وكمالا تصح الصلاة بلاطهارة ، فكذلك لاتؤتى ثمارها دون تصحيح النية وإخلاصها لله وحده ، فهى فرض الفرض ورسول العمل إلى الله سبحانه وتعالى ، فاختر لنفسك ماتريد أن يصل إلى ربك من نيتك ، فعليها يدور القبول والرد .

يقول الله تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) . أى إنه لايصل إلى الله تعالى من تلك القرابين التى تنحرونها غير التقوى والإخلاص وصفاء النية ، أما القرابين فهى أعمال ظاهرة يعرفها الملأ ، وتشهدها أبصار الخلائق ، والخير فيها إنما هو مابطن فى قلوبكم مما لم يجر تحت أنظار الناس .

ويقول الله تعالى : (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) . فهل ترى كيف حصل تضعيف الجزاء بإيتاء الزكاة إذا أريد بها وجه الله وحده ، وكما شرعت زكاة المال لتطهيره من التخاليط والشبهات فقد شرعت زكاة البدن لتطهيره من المخالفات التى تعوقه عن المضى فى أعمال العبادة كما يريد الله تعالى لعباده من الخير العميم ، وما زكاة البدن إلا النية الخالصة ، وتوجيه العمل لله وحده ، دون رياء ولا نفاق ، ولا غرض سوى المضى لأمر الله تعالى ، دون رغبة فى ثواب ولا خوف من عقاب ، ولذلك أثنى الله على سيدنا على وسيدة النساء سيدتنا فاطمة رضى الله عنهما بقوله :

(ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا) .

النية سر بين العبد وربه ، وغيب لا يطلع عليه إلا هو سبحانه ، والعمل مشترك بين رؤية الله ورؤية الخلق ، وماكان سرا وغيبا بين العبد وربه يضاعف جزاؤه عما كان مشتركا بين الخلق والرب بسبعين ضعفا .

ويقول : « مطرف بن الشخير » صلاح العمل بصلاح القلب ، وصلاح القلب بصلاح النية ، ومن صفا صفى له ، ومن خلط خلط عليه .

ولما جاء الصحابة إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالصدقات ، جاء كل منهم بما تيسر له . ونوى « أبو ضمضم » صدقة عرضه ، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عليه السلام : « من المتصدق بعرضه البارحة ألا إن الله قد قبل صدقته » ثم جعل يقول معظما لفعله عن فعل الصحابة : « يعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم » ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « نية المؤمن خير من عمله ، ونية الفاسق شر من عمله » . ويقول أبو طالب المكى ، تعليقا على هذا الحديث : « بالنية امتاز المنافقون من جملة المؤمنين ، لأن المنافقين مؤمنون فى الظاهر ، ومحكوم لهم وعليهم بحكم الإيمان بين المؤمنين ، إلا أنهم كانوا يراءون الناس ، ويذكرون الله بألسنتهم ولا يذكرونه بقلوبهم » .

ويقول فى صدد النية كذلك : « القلب أضعف شىء وأهونه ، وإنما قوته بقوة النية ، فإن قويت نيته فى الخير قوى القلب بها ، وإن ضعفت نيته ازداد القلب ضعفا بضعفها » . وقد أغفل الناس علم النية وتركوا السؤال عنها ، كإغفالهم السؤال عن سيرة المتقدمين ، وكتركهم التفقد لها ، وعلى العبد ألا يترك العمل الصالح ، خشية دخول الآفة عليه ، إن كان داخلا فيه ، لما يتغير به من العوارض والوساوس ، ولا يترك العمل لأجل الناس حياء منهم . ولا يترك العمل كراهية اعتقاد الناس فضله ، فإن فعل شيئا من ذلك

أدرك العدو بغيته منه ، ووافق محبة عدوه ، وذلك لأن العمل لأجل الناس رياء ، وترك العمل لأجل الناس شرك ، وترك العمل خشية دخول الآفة فيه خبل ، وفعله مع دخول العلة عليه وهم وقصور علم وترك العمل خشية اعتقاد الناس فضله عجز ، وما خلق الله داء إلا جعل له دواء ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا يستكمل العبد إيمانه حتى يكون الناس عنده كالأبعرة ، ثم يعود إلى نفسه فيراها أحقر حاقر » .

والناس فى الصلاة على ست طبقات :

الأولى : أن يدخل الرجل فيها لله ، ويخرج منها لله ، ثم يخلط بين الدخول والخروج ، فهذا لا يضره ما بين ذلك ، فقد سلم طرفا العمل .

والثانية : يدخل فيها لله ، ويخرج منها لله ، ويخلط بين ذلك ، ثم بعد الخروج أحدث العلة ، فهذا يبطل عمله ، ويضل سعيه ، وعلة هذا العامل من وجوه :

ا) يظهرها ، فبعد أن تكون سرا تصير علانية ، فيخسر سبعين ضعفا من الجزاء ، إلا إذا كان إماما يقتدى به فلا يعتبر هذا العمل علة حينذاك ، لأن إظهاره لاقتداء أصحاب الهمم الضعيفة به .

ب) يتظاهر العابد بها ، فتصير إدلالا على الرب ، وإعجابا بالعمل ، والمدل والمعجب لا يرفع لهما عمل .

ج) أن يتكثر بعمله ، ويزرى على غيره ، فيحبط تكثره عمله ، لأنه من خالص فعل الهوى ، ونزوات النفس .

والثالثة : يدخل فيها لله ، وبعد التلبس بالعمل ، دخلت عليه العلة فى وسط العمل ، فخرج من العمل مع مساكنة العلة ، وهذا يبطل عمله بسوء خاتمته .

والرابعة : يدخل فيها بآفة ، ويخرج منها بالصحة ، فهذا سلم عمله ، وميز

بإجراء عمله ، لأنه توبة من الله ، وهذا هو الفرق بينه وبين العامل قبله ؛ لأن هذا ختم عمله بالتوبة ، وذاك ختمه بالإصرار .

الخامسة : يدخل فيها لله ، ويخرج منها لله ، ولم تعتوره بين ذلك علة ، فهذا فاضل من جملة العمال .

السادسة : يدخل فيها بالله ، ويثبت فيها مع الله ، ويخرج منها لله ، وهذا فى مقام الموحدين ، وحال المشاهدين .

فالأول درجة عموم المؤمنين ، والثانى درجة أهل الإصرار من المنافقين والثالث درجة أهل الخذلان من الظالمين ، والرابع درجة المقتصدين ، والخامس درجة خصوص المؤمنين ، والسادس درجة خصوص المخلصين من العارفين .

إن أفضل نيات الصلاة ، ألا يريد المصلى بها إلا وجه الله وحده ، حبا لوصف الإلهية ، وتعظيما لحق الربوبية ، وإلزاما للنفس بوصف العبودية ومضيا لأمر الله لا غير .

فإن لم يوفق المصلى إلى هذا المقام ، فلا ضرر من أن يصلى مشاهدا ما رغب فيه ، وشوق إليه من مقام الرجاء ، وخوفا مما حذر منه ، وخوف به من العذاب من مقام الخوف . حتى يفتح الله له فى المقامات فيصل إلى مقام المشاهدة الكاملة .

* * *

ويجب أن تتوجه نية النافلة إلى إتمام الفريضة ، لا إلى تحصيل ثواب ، وفى ذلك يروى « المحاسبى » فى « وصاياه » أن بعض أهل العلم قال : ما يحاسب به العبد يوم القيامة ، الصلاة المكتوبة ، فإن أتمها وإلا قيل للحفظة : أنظروا هل له من تطوع ؟ فإن كان له تطوع أكملت الفرائض من تطوعه فإن لم تكمل الفريضة ، ولم يكن له تطوع أخذ بطرفيه وألقى فى النار .

ويجب أن تتوجه النية كذلك بالنوافل إلى محو السيئات ووجلا من عواقبها : (إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) .

النية إذن هى العامل المحرك للعمل ، والموجه له إلى أى ناحية من ناحيتى التوجه : الخير أو الشر (ولكل امرىء مانوى) فإن حرك عمله إلى حيث امتثال أمر الله تعالى دون نظر إلى ثواب أو عقاب ، كان له المزيد والمزيد وكان ممن يقول الله تعالى فيهم (والله يضاعف لمن يشاء) .

ومن حرك عمله إلى طلب الثواب وخوف العقاب ، كان له من الثواب بقدرما أجاد من العمل ، وكان عليه من الوزر أو نقص الثواب بقدرمانقص من إجادتها ، ومن حرك عمله إلى حيث السمعة والشهرة ، كان له ما أراد ولم يكن له عند الله شيء فذلك حرث الدنيا يؤتيه الله من يريده ، وما له فى الآخرة من نصيب .

الصلاة فى المساجد

والصلاة فى المساجد أفضل من الصلاة فى غيرها إن تيسر ذلك ، ولكل عامل جزاء ماعمل ولكل امرىء ما نوىء ، وهى من دلائل الإيمان العميق ومن سعى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والناهجين على طريقه من المتقين ، لم يكونوا يصلون فى غـــيرها إلا لضرورة قصوى ، حتى قيل : « لاصلاة لجار المسجد إلا فى المسجد » .

المسجد بيت الله ، والمصلى عبد الله ، يزور سيده فى بيته ، فكان حقا على الله تعالى أن يكرم الزائر ويغمره بفضله ، كما يكرم أحدنا من جاء إليه فى بيته معتذرا من خطأ أو جفاء ، ولله المثل الأعلى .

والصلاة فى المساجد دلالة على حب الله تعالى لعبده ، فقد روى أن « الموفق الزاهد » حج مرات عديدة ، وفى إحدى حجاته جلس بحذاء الميذاب ، وجعل يفكر ويقول : إلى متى أتردد إلى هذا البيت ؟ فغلبته عيناه ،

فإذا قائل يقول له : ياموفق ، لو كان لك بيت تجمع فيه أضيافك ، هل كنت تدعو إلا من كنت تحبه ويحبك ، فسرى ما كان يجده واستبشر .

وقد قيل فى تفسير قوله تعالى : (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) : إن العهد هو الصلاة فى جماعة فى المسجد ، وهو العمل الذى يتحسر أهل الجنة على عدم الازدياد منه ، كما يقول ابن عباس رضى الله عنه .

والتوجه إلى بيوت الله عمارة لها بالصلاة ، وقد شهد الله لمن يعمر مساجده بالإيمان فى قوله : (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) . وهو كذلك هروب من الدنيا إلى الآخرة ، ومن تجارة الهوى إلى تجارة التقوى والجهاد فى سبيل الله بالأنفس ، ومكاثرة لجمع المسلمين ، وإعزاز لشعائر الله ، ومعنى من معانى المرابطة فى قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) . قالوا : هى انتظار الصلاة فى المسجد .

الصلاة فى المسجد كف للسمع والبصر وجميع الجوارح عن مكاره الله ، وجمع لها على مايحبه وموطن تنزل الرحمات ، وقضاء الحاجات ، ثم هى تسلك صاحبها مع السبعة الذين يظلهم الله فى ظله ، يوم لا ظل إلا ظله ، فقد جاء من بينهم : (ورجل قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه) .

وإذا نوى المصلى فى المسجد هذه النيات كلها فله تلك الأجور الكثيرة فى عمل واحد ، (ولكل امرىء مانوى) .

وفى فضل الصلاة فى المسجد ، يروى أبو سعيد الخدرى ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج عليهم وهم سبعة ، فقال : « هل تدرون ماقال ربكم قالوا : الله ورسوله أعلم . قال فإن ربكم يقول : من تطهر فى بيته ، ثم مشى إلى صلاة تعظيما لحقها ، ورغبة فيها ، وإيثارا لها على غيرها ، فله عندى عهد ألا أعذبه أبدا » .

ومن آداب المساجد التى يجب لزومها ، وعدم التهاون فيها :

١ - عدم إنشاد الضالة فى المسجد ، فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يرد عليه : « لارد الله ضالتك » .

٢ - عدم الهزل والمزاح والسخرية ، لأنها استهانة بحرمة بيت الله .

٣ - عدم التحدث بأحاديث الدنيا ، فلكل مقام مقال .

٤ - عدم رفع الصوت بالقراءة لئلا يشوش القارىء على غيره .

٥ - تسوية الصفوف فى الصلاة ، فالله لاينظر إلى الصف الأعوج .

٦ - خلع النعال قبل دخول المسجد ، ولاعبرة بمن أشاعوا تلك العادة الممقوتة بصلاتهم فى النعال .

٧ - التوجه إلى القبلة وشغل وقت الفراغ بالذكر أو القرآن من غير تشويش .

٨ - ترك الجدل والخصومة .

٩ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

يجب أن يكون المسجد مكانا مقدسا عند كل مسلم ، فلا يستعمله للنوم أو للحديث فى مسائل الدعايات الطائفية اللهم إلا دعوة للجهاد ضد العدو ، والتحذير من شره ، كما يجب أن يكون الإنسان فى سعيه إلى المسجد فى حال من الخشوع واستجماع الأحاسيس كلها ، والتوجه إلى الله وإلى رسوله ونية السعى إلى إجابة النداء ، حتى يتهيأ للاستجماع الأكبر فى صلاته ، ويسهل عليه نفى الخواطر ، والتوجه الكلى إلى الحمى الأقدس ، فتغمره الرحمة من كل جانب .

وهكذا يجب أن يكون حال المصلى بعد انصرافه من وضوئه إلى مصلاه ، إن صلى فى بيته ، أو فى مكان غير المسجد .

وحيث أن الصلاة دعاء ، وهى أساس الدين ، فيكون الدعاء كذلك

فى أعقاب الصلاة وفى غيرها من الأوقات أساس الدين ، وروح العبودية ، وسنعرض للصلوات الخمس مشفوعة بالأذكار الواردة شرعا ، لمن أراد الاستكثار من نوافل الخير ، ويرتاد موائد الكرم .

المساجد منتديات لربط المسلمين بروابط الأخوة والمحبة ، يتفقد فيها بعضهم بعضا بقضاء الحوائج ، والنصح العام والخاص ، والتفكير فى إعالة العجزة واليتامى والمساكين وأبناء السبيل ، ثم هى بعد كل ذلك مدارس علم حرة ، يتطوع فيها العلماء بتعليم العامة والخاصة ، كما كانت فى عهود السلف جامعات للعلم ومدارس للحديث والتفسير والمذاهب السنية كلها .

ويحسن بنا أن نفرد بحثا خاصا عن الأدعية لنتبين وجه الحق فيها ثم نرد ما جاء من الحديث فى الدعاء عقب الصلاة وفى أثنائها .

أذكار الصلوات

عند القيام للصلاة :

عن أم رافع ، رضى الله عنها قالت :

« يارسول الله . دلنى على عمل يأجرنى الله عزوجل عليه » .

قال : ياأم رافع ، إذا قمت إلى الصلاة ، فسبحى الله تعالى عشرا ، وهلليه عشرا ، وكبريه عشرا ، واستغفريه عشرا ، فإنك إذا سبحت قال : هذا لى وإذا هللت ، قال : هذا لى . وإذا حمدت قال : هذا لى ؛ وإذا استغفرت قال : قد فعلت .

بعد تكبيرة الإحرام :

وردت أحاديث كثيرة صحيحة فيما يقول المصلى بعد تكبيرة الإحرام ، وقد جمع الإمام النووى الصحيح منها فى دعاء واحد ، وللمصلى أن يدعو به

كله ، أو ببعضه ، والدعاء به كله مستحب للمنفرد ، أما الإمام فيقتصر على بعضه تخفيفا .

« الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحـان الله بكرة وأصيلا ، وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا مسلمـــا وما أنا من المشركين بذنبى ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين .

اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت ، أنت ربى ، وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفرلى ذنوبى جميعها ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف سيئها إلا أنت . لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك والشر ليس إليك(١) ، أنا بك وإليك تباركت وتعاليت ، أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما بعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغلسنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد .

الركوع :

فى الأخبار الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يكبر للركوع ، وإذا رفع من الركوع كان يقول : سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد ويجب أن يبدأ بتكبير الركوع عند أوله وينتهى بالتكبيرة حتى يتم ركوعه.

---

(١) المعلوم أن الخير والشر من خلق الله تعالى ، وقد أجيب عن عبارة الرسول صلى الله عليه وسلم بأجوبة منها .

ا — الشر لا يتقرب به إليك .

ب — لا يصعد إليك ، إنما يصعد الكلم الطيب .

حـ — لا يضاف إليك أدبا ، فلا يقال يا خالق الشر .

د — ليس شرا بالنسبة لحكمتك ، فإنه تعالى لا يخلق شيئا عبثا .

فإذا وصل إلى حد الراكعين يقول : سبحان ربى العظيم (ثلاثا) فقد ثبت ذلك من حديث حذيفة فى صحيح مسلم .

وفى الصحيحين من حديث عائشة ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفرلى .

وفى صحيح مسلم من حديث الإمام على رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يقول فى ركوعه : « اللهم إنى لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى » .

وفى صحيح مسلم أيضا من حديث عائشة رضى الله عنها ، أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : « سبوح قدوس » .

وفى سنن أبى داود والترمذى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والعظمة » .

والجمع بين هذه الأذكار للمنفرد مستحب ، ويجوز الاقتصار على بعضها .

بعد الرفع من الركوع :

السنة أن يقول المصلى فى لحظة الرفع من الركوع : « سمع الله لمن حمده » فإذا استوى قائما قال : « ربنا لك الحمد ، حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، ملء السموات والأرض ، وملء ماشئت من شىء بعد . وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

ويستحب للمنفرد أن يجمعها كلها ، وإن ذكر بعضها جاز ، أما الإمام فيجب أن يتحرى التخفيف .

ويكره قراءة القرآن فى الركوع والسجود والاعتدال منها .

السجود :

إذا انتهى المصلى من أذكار الاعتدال من الركوع كبر ، ومد التكبير

حتى تمس جبهته الأرض ، وهى سنة ولكن الخطأ الذى يقع فيه الكثيرون أن يبدأوا بها عندما تمس جباههم الأرض ، أو يبدأ فى تكبير الاعتدال من السجود بعد أن يعتدل :

١ - ثم يقول إذا تم سجوده : « سبحان ربى الأعلى » ويسن تكرارها ثلاثا .

٢ - وفى صحيح مسلم والبخارى من حديث عائشة رضى الله عنها ، أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يكثر أن يقول فى سجوده وركوعه : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفرلى » .

٣ - وفى صحيح مسلم من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قال فى سجوده « سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

٤ - ومن حديث أبى هريرة أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول « اللهم اغفر لى ذنبى كله دقه وجله ، أوله وآخره وسره وعلانيته » .

فى الرفع من السجود :

السنة أن يكبر المصلى من حين يبدأ فى الرفع ، ويمد التكبير إلى أن يستوى جالسا ، ثم يدعو بما ورد على النبى صلى الله عليه وسلم .

١ - « رب اغفرلى » أبو داود والترمذى .

٢ - « رب اغفرلى وارحمنى واجبرنى وارفعنى وارزقنى واهدنى وعافنى » البيهق وأبو داود .

* * *

في السجدة الثانية :

يفعل مافعله في الأولى ، فإذا رفع منها كبر وهو ينهض للقيام بحيث ينتهي من التكبير حين يستوى قائما ، وعند الشافعية يجلس بعد الرفع من السجدة الثانية جلسة لطيفة ، بحيث تسكن حركته تماما ، ثم يقوم للركعة الثانية .

ملاحظة :

المد في التكبير بعد اللام من « الله » ، ولا يجوز مد الهمزة من « الله » ولا الهاء ولا كلمة « أكبر » فإن مد حرفا غير ما بعد اللام فقط بطلت التكبيرة وإذا حدث ذلك في تكبيرة الإحرام بطلت الصلاة لأنها ركن .

التشهد :

١ ـ رواية ابن مسعود هكذا :

« التحيات لله ، والصلوات الطيبات ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » وهي أصح الروايات ، رواه البخاري ومسلم .

٢ ـ رواية ابن عباس رضي الله عنهما :

« التحيات المباركات والصلوات الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله » رواه مسلم .

٣ ـ رواية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه :

« التحيات الطيبات الصلوات الطيبات لله ، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » رواه مسلم .

وتجوز الصلاة بإحدى هذه الروايات .

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التشهد :

لا تكون إلا بعد التشهد الأخير ، وهى واجبة عند الشافعية ، غير واجبة عند الحنفية وهى :

« اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وارحم محمد ، وآل محمد ، كما رحمت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، فى العالمين إنك حميد مجيد » .

ولا مانع من أن يقول عند ذكر اسم النبي صلى الله عليه وسلم « سيدنا محمد » .

الدعاء بعد التشهد الأخير ، قبل الخروج من الصلاة :

للمصلى أن يدعو بعد التشهد الأخير ، وقبل الخروج من الصلاة ، بما يشاء وبأى لفظ يريد ، وبأمور الآخرة والدنيا ، ولا يجوز الدعاء بما يشبه كلام العامة ، وما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب كثير ، ومنه :

١ — « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال ، اللهم إنى أعوذ بك من المأثم والمغرم » رواه البخارى ومسلم .

٢ — « اللهم اغفر لى ماقدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت » رواه مسلم .

٣ — « اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك ، وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » رواه البخارى ومسلم .

٤ — « اللهم إنى أسألك العفو والعافيـــة ، اللهم إنى أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغنى » .

الخروج من الصلاة :

ركن من أركان الصلاة ، ويكون بقول المصلى السلام عليكم ورحمة الله عن يمينه مرة وعن شماله مرة ، ويلتفت فى كل مرة حتى يرى بياض صدغه .

ويرى الصوفية أن ينوى بالسلام توديع عالمى الكون الغيب والشهادة إلى الهوية المطلقة ، وهو مشهد لا يكلف به العامة .

الدعاء بعد الصلاة :

أجمع العلماء على استحباب الدعاء بعد الصلاة لما يأتى :

١ — روى الترمذى عن أبى أمامة رضى الله عنه ، قال : « قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الدعاء أسمع ؟ قال : جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبات » .

٢ — روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كنت أعرف انقضاء صلاة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم بالتكبير » وفى رواية مسلم « كنا » ، وفى رواية فى الصحيحين : « أن رفع الصوت بالذكر حين ينصرف الناس من المكتوبة ، كان عـــلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد جمع سيدى مصطفى البكرى قدرا من الأذكار الواردة شرعا عقب الصلوات المكتوبة ، فى ورد أسماه « ختم الصلاة » التزم قراءته طلاب الطريقة « الخلوتية » ، وقد أسند كل ماجاء فيه إلى أصوله من الحديث فى نهاية مجموع أوراده ، وقد ذكرنا هـــذا الختم عقب الحديث عن صلاة الفجر .

ونزيد على ما جاء فى ختم الصلاة ماعثرنا عليه من الأدعية الواردة عن النبي صلى الله علية وسلم :

١ — روى البخارى عن سعد بن أبيوقاص رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يعوذ دبر الصلاة بهؤلاء الكلمات : « اللهم إنى أعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر » .

٢ — روى أبو داود والنسائى عن معاذ رضى الله عنه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيده ، وقال : يامعاذ ، والله إنى لأحبك ، أوصيك يا معاذ ، لاتدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

٣ — فى عمل اليوم والليلة لابن السنى ، عن أنس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا قضى صلاته ، مسح جبهته بيده اليمنى ثم قال : أشهد ألا إله إلا الله الرحمن الرحيم ، اللهم أذهب عنى الهم والحزن » .

٤ — وروى ابن السنى عن أبى أمامة قال : « مادنوت من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم فى دبر مكتوبة ولا تطوع إلا سمعته يقول : اللهم اغفر لى ذنوبى وخطاياى كلها ، اللهم انعشنى واجبرنى ، واهدنى لصالح الأعمال والأخلاق ، إنه لايهدى لصالحها ، ولا يصرف سيئها إلا أنت » .

٥ — عن أنس رضى الله عنه ، قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول إذا انصرف من الصلاة : اللهم اجعل خير عمرى آخره ، وخير عملى خواتمه ، واجعل خير أيامى يوم ألقاك » .

٦ — عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دبر كل صلاة : « اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر ، وعذاب القبر » رواه ابن السنى .

أحكام عامة

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا نابكم أمر فى الصلاة ، فليسبح الرجال ، وليصفق النساء » .

٢ ـ يجب أن يشد المصلى رجليه عند الركوع ، ويمسك بيديه ركبتيه ويشدهما ، ويسوى ظهره تماما ، ليكون مع ساقيه زاوية قائمة تقريبا ، فلا يكفى الانحناء ، ولا يحسن خفض الرأس بل يجب أن تتساوى مع الظهر .

٣ ـ يجب أن يسجد المصلى ، بحيث تمس جبهته وطرف أنفه الأرض ، ويشد ذراعيه بحيث لا يلتصق بالأرض منهما إلا الكفين ، ولا يمس شىء منهما صدر المصلى . كما يجب أن يجافى بين فخذيه وبطنه .

٤ ـ يجب أن ينظر المصلى وهو واقف إلى موضع سجوده ، وإلى ظهر قدميه وهو راكع ، وإلى طرف أنفه وهو ساجد ، وإلى حجره وهو جالس لئلا يشتغل بشىء خارجى .

٥ ـ يكره أن يكون فى مصلى الإنسان صورة أو مكتوباً أو زخرفة ، لئلا يشغله ذلك عن التوجه الكامل .

٦ ـ عندما يقول المصلى فى التشهد : « أشهد أن لا إله إلا الله » يرفع أصبعه السبابة عند قوله « لا » بحيث تكون مع الوسطى حلقة ، ثم يخفضها عند قوله « الله » .

٧ ـ عند الجلوس للتشهد ينصب المصلى قدمه اليمنى ، ويفترش اليسرى .

٨ ـ لا يجوز للمصلى أن يرفع قدميه عن الأرض عند السجود .

٩ ـ يكره كشف الرأس ، ويكره أن يلف شيئا حولها ويترك وسطها عاريا ، ويكره أن يغطى جبهته .

١٠ - لا تغمض عينيك وأنت تصلى .

١١ - لا تتحرك كثيراً ، فالعمل الكثير مبطل للصلاة ، وقدر العمل الكثير بثلاث حركات .

١٢ - إذا قرأ المصلى آية من آيات السجدة سجد للتلاوة ، ثم قام وأتم قراءته ومضى فى صلاته .

١٣ - إذا كنت مسافراً سفراً طويلا جاز لك قصر الصلاة الرباعية فقط إلى ركعتين .

١٤ - إذا كنت مريضاً جاز لك أن تصلى جالسا ، وتنحنى فى ركوعك إلى نصف المسافة بين جلوسك والسجود ؛ فإن لم تستطع الجلوس جاز لك أن تصلى مضطجعا مستقبل القبلة ، تومىء برأسك فى الركوع والسجود بشرط أن يزيد السجود عن الركوع ، فإن لم تستطع الاضطجاع جازت الصلاة وأنت مستلق على ظهرك مادا رجليك إلى القبلة ، وتومىء بعينيك ، بحيث تغمضهما نصف إغماضة للركوع ، وإغماضة كاملة للسجود .

١٥ - إذا كنت فى سفينة أو فى طائرة أو فى قطار فتحر القبلة جهدك ، فإذا دارت السفينة مثلا واستطعت أن تتابع القبلة فافعل ، وإلا فصل حيث اتجهت أولا .

١٦ - تبطل الصلاة بكل ما يبطل الوضوء ، وبالانحراف عن القبلة .

١٧ - يجب ستر العورة ، وهى للرجل ما بين السرة والركبة . وللمرأة ما عدا الوجه والكفين والقدمين .

الوضـــوء

الوضوء طهارة لا تصح الصلاة إلا بها ، ويقوم التيمم مقام الوضوء حين فقد الماء أو تعذر استعماله لمرض يمنع من استعمال الماء .

والوضوء بوجه عام ينشط البدن ويعده للتوجه الكامل إلى الله فى الصلاة

ويرى أستاذنا العارف المحقق سيدى الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الخالق الشبراوى : أن الوضوء له فى الإنسان فعل المغناطيس فى الحديد ، فكما أن المغناطيس يرتب جزيئات قضيب الحديد ، فيجعله قابلا لجذب أجزاء الحديد والتأثير فى مثله نفس الأثر الذى تأثر به ، فكذلك الوضوء يعمل على فرز المدركات الروحية عن المدركات النفسية ، وبذلك يصبح الإنسان إذا أخلص فى وضوئه قابلا لجذب الفيوضات الإلهية ، صالحا للتأثير فى مثله من الناس ، ويرى أن الإنسان إذا أحدث فانتقض وضوؤه اختلطت مداركه الروحية بمداركه النفسية ، ففقد هذا الأثر وذلك التأثير ، وذلك تصديق لقوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شىء حى) فالإنسان حى بطبعه ، فلا شك فى أن حياة جديدة تطرأ عليه إذا أفاض الماء على بدنه على وجه شرعى ولذلك ورد : « الوضوء على الوضوء نور على نور » .

ويندب للمسلم أن يكون على طهارة دائمة ما أمكن ، وأن ينام على طهارة .

أما كيفية الوضوء التى تصح على جميع المذاهب ، فهى كما يأتى :

١ ـ ينوى المسلم الوضوء للصلاة .

٢ ـ يغسل يديه إلى الرسغين ، وهما المفصلان اللذان ينتهى بهما الكفان ثم يخلل أصابعه .

٣ ـ المضمضة ثلاثا . ٤ ـ الاستنشاق ثلاثا .

٥ ـ غسل الوجه ثلاثا ، وحده طولا من منبت الشعر إلى أسفل الذقن وعرضاً ما بين شحمتى الأذنين .

٦ ـ غسل الذراعين إلى المرفقين ، والمرفقان داخلان فى الغسل .

٧ ـ مسح الرأس . ٨ ـ مسح الأذنين .

٩ ـ غسل الرجلين إلى الكعبين ، وهما العظمان الناتئان فوق القدمين ، وهما داخلان فى الغسل .

الدعاء فى بدء الوضوء ونهايته :

الدعاء فى أول الوضوء لا أصل له فى السنة ، ولكن بعض الزهاد استحبوا أن يقول المتوضىء فى ابتداء الوضوء بعد التسمية « أشهد ألا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » .

أما بعد الفراغ من الوضوء ، فقد وردت الأدعية الآتية :

١ — عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من توضأ فقال : أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء » رواه مسلم .

٢ — فى رواية الترمذى ، زيادة عن الدعاء السابق « اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين » .

٣ — وفى رواية « سبحانك اللهم وبحمدك » .

٤ — جمع النووى كل الأدعية الواردة عقب الوضوء فى قوله : « أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين ، سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » .

الأدعية على أعضاء الوضوء :

لم يجىء عن النبى صلى الله عليه وسلم شىء من الأدعية على أعضاء الوضوء مطلقا ، وقد قال الفقهاء باستحباب أدعية وردت عن السلف وهى :

١ ـ بعد التسمية يقول « الحمد لله الذى جعل الماء طهورا »

٢ ـ عند المضمضة « اللهم اسقنى من حوض نبيك صلى الله عليه وسلم كأسا لاأظمأ بعده أبدا » .

٣ ـ عند الاستنشاق : « اللهم لا تحرمنى رائحة نعيمك وجناتك » .

٤ ـ عند غسل الوجه : « اللهم بيض وجهى ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » .

٥ ـ عند غسل اليدين إلى المرفقين : « اللهم أعطنى كتابى بيمينى » ، « اللهم لا تعطنى كتابى بشمالى » .

٦ ـ عند مسح الرأس : « اللهم حرم شعرى وبشرى على النار ، وأظلنى تحت عرشك ، يوم لا ظل إلا ظلك » .

٧ ـ عند مسح الأذنين : « اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » . ٨ ـ عند غسل القدمين : « اللهم ثبت قدمى على الصراط » .

نواقض الوضوء :

١ ـ كل ما خرج من أحد السبيلين ٢ ـ القهقهة فى الصلاة عند الأحناف .

صلاة الفجر

وقفنا فى صلاة الليل عند نهاية ورد السحر ، وذكرنا أن من السنن ألا ينام الإنسان بعد ذلك ، بل يذكر الله تعالى ، حتى أذان الفجر .

فإذا أذن المؤذن سن للسامع أن يردد ما يقوله المؤذن إلا حينما يقول : « حى على الصلاة ، حى على الفلاح » فإن السامع يقول عقب كل منهما : « لا حول ولا قوة إلا بالله » وحينما يقول المؤذن فى أذان الفجر : « الصلاة خير من النوم » يقول السامع : « صدقت وبررت » .

وحينما ينتهى المؤذن من الأذان ، يقول السامع : « اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته » .

روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، أنه سمع

النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا على ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة ، لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة ، حلت له الشفاعة » .

وبعد ذلك يدعو العابد بما شاء ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايرد الدعاء بين الأذان والإقامة (١) » . ثم يتبع المصلى الخطوات التالية :

١ ـ يصلى ركعتين خفيفتين سنة الفجر ، وهما سنة مؤكدة ، أى إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتركهما إلا نادرا ، واستحب الإمام الغزالى أن يقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة سورة : (ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فإنه مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب) .

وفى الثانية : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول) وقال إنهما تكفيان شر ذلك اليوم .

٢ ـ تذكر الأذكار الآتية :

أ ـ بسم الله الرحمن الرحيم (١١ مرة)

ب ـ قل هو الله أحد الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (١١ مرة) .

حـ ـ ياحى ياقيوم لا إله إلا أنت (٤١ مرة) (٢) .

د ـ سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، أستغفر الله (١٠٠ مرة) .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن السنى وغيرهم ، قال الترمذى : حديث صحيح حسن .

(٢) قالوا إن هذا الذكر لحياة القلوب ونشاطها .

٥ ـ اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ورب محمد صلى الله عليه وسلم أجرنى من النار (٣ مرات).

يقول ذلك وهو مضطجع على جنبه الأيمن كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، إن لم يخف غلبة النوم.

٣ ـ أقم الصلاة . ثم صل الفجر ركعتين ، ولتكن الأولى أطول من الثانية، تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة قصيرة أو آيات من القرآن .

٤ ـ بعد ذلك تقرأ ختم الصلاة ، الذى جمعه سيدى مصطفى البكرى من القرآن والسنة وهو :

أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه (٣مرات) يا أرحم الراحمين ارحمنا (٣ مرات) ياحى ياقيوم يابديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام .

لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير (١٠ مرات) لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده ، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، له الفضل وله الثناء الحسن الجميل ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . اللهم إنى أعوذ بك من الفتن ، ماظهر منها وما بطن (٣ مرات) .

أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق (٣ مرات) .

بسم الله الذى لايضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم (٣ مرات)

رضيت بالله تعالى ربا ، وبالإسلام دينا ، وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا (٣ مرات) .

اللهم لامانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولا راد لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غـــير المغضوب عليهم ولا الضالين ، آمين .

وإلهكم إله واحد ، لاإله إلا هوالرحمن الرحيم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم ، له مافى السموات ومافى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بماشاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم .

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنابه ، (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ٣مرات) أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين . شهد الله أنه لاإله إلاهو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، لاإله إلا هو العزيز الحكيم .

إن الدين عند الله الإسلام . قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب (١) .

---

(١) جاء فى التذكار أن هذه الآية تقرأ عقب الصلاة ، ويقول المصلى بعدها رافعا يديه : يارحمن الدنيا ورحيمهما ، تعطى عنهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء . اقض عنى دينى .

اللهم ارزقنا وأنت خـــير الرازقين ، وأنت حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم . (فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم) (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم : قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد (٣ مرات) .

بسم الله الرحمن الرحيم . قل أعوذ برب الفلق . من شر ماخلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد . ومن شر حاسد إذا حسد (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم . قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس. من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صـــدور الناس . من الجنة والناس .

وإن من شىء إلا يسبح بحمده . سبحانه وتعالى .

سبحان الله (٣٣ مرة) الحمد لله (٣٣ مرة) الله أكبر (٣٣ مرة)

لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، يحى ويميت وهو على كل شىء قدير .

إن الله وملائكته يصلون على النبى ، ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله عدد كمال الله وكما يليق بكماله (١٠ مرات) .

---

(١) مابين الأقواس يكرر سبع مرات فى ختم صلاة الصبح والمغرب .

(٢) جاء فى التذكار أن هذه السورة تقرأ عند دخول البيت والخروج منه لسعة الرزق . وكان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يقرؤها فى زوايا بيته .

ورضى الله تبارك وتعالى عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، واحشرنا وارحمنا معهم ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، يا ألله .

ياحى ياقيوم لا إله إلا أنت يا ألله . ياربنا ياواسع المغفرة (يا أرحم الراحمين ٣ مرات) اللهم آمين وصل وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

(ثم يقول بالمد الطويل) لا إله إلا الله (٣ مرات) .

لا إله إلا الله . سيدنا محمد رسول الله . صلى الله عليه وسلم حقا وصدقا اللهم استجب دعانا ، واشف مرضانا ، وارحم موتانا ، وصل وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين ، والحمد لله رب العالمين . ربنا تقبل منا واقبلنا بحرمة الفاتحة . (ثم يقرأ الفاتحة) .

(ويقول مع رفع اليدين) اللهم برحمتك عمنا . واكفنا شر ما أهمنا (ويقلب كفيه قبل هذه الجملة ثم يعيدها كما كانت) وعلى الإيمان الكامل والكتاب والسنة توفنا وأنت راض عنـــا ، اغفر اللهم لنا ولوالدينا ، ولمشايخنا ، ولإخواننا فى الله تعالى أحياء وأمواتا ، ولجميع المسلمين أجمعين .

سبحان ربك رب العزة عمـا يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

اللهم صل وسلم وبارك على أشرف الخلق سيدنا محمد .

* * *

(وعقب هذا الختم يقرأ العابد حزب الإمام النووى ، وهو يكفى من شرور الأعداء ، ويحمى من سطوات المرشدين من رجال الطريق ، ويحفظ الأهل والمال والولد) .

حزب الإمام النووى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .

بسم الله (الله أكبر ٣ مرات) . أقول على نفسى ، وعلى دينى ، وعلى أهلى ، وعلى مالى ، وعلى أولادى ، وعلى أصحابى ، وعلى أديانهم ، وعلى أولادهم ألف بسم الله (الله أكبر ٣ مرات) .

أقول على نفسى ، وعلى دينى ، وعلى أهلى ، وعلى مالى ، وعلى أولادى ، وعلى أصحابى ، وعلى أديانهم ، وعلى أموالهم ، وعلى أولادهم ألف ألف بسم الله (الله أكبر ٣ مرات)

أقول على نفسى ، وعلى دينى ، وعلى أهلى ، وعلى مالى ، وعلى أولادى ، وعلى أصحابى ، وعلى أديانهم ، وعلى أولادهم ، ألف ألف ألف لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

بسم الله على دينى وعلى نفسى وعلى أولادى . بسم الله على مالى وعلى أولادى . بسم الله على كل شىء أعطانيه ربى ، بسم الله رب السموات السبع ورب الأرضين السبع ورب العرش العظيم

بسم الله الذى لايضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم (٣ مرات)

بسم الله خير الأسماء ، فى الأرض وفى السماء ، بسم الله أفتتح وبه أختتم (الله ٤ مرات) . ربى ، لاأشرك به أحدا (الله ٤ مرات) ربى ، لا إله إلا الله . الله أعز وأكبر مما أخاف وأحذر

بك اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر غيرى ، ومن شر ماخلق ربى وذرأ وبرأ ، وبك اللهم أحترز منهم ، وبك اللهم أعوذ من شرورهم ، وبك أدرأ فى نحورهم ، وأقدم بين يدى وأيديهم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (٣ مرات) . ومثل ذلك عن يمينى وعن أيمانهم ، ومثل ذلك

عن شمالى وعن شمائلهم ، ومثل ذلك أمامى وأمامهم ، ومثل ذلك من خلفى ومن خلفهم ، ومثل ذلك من فوقى ومن فوقهم . ومثل ذلك من تحتى ومن تحتهم ، ومثل ذلك محيط بى وبهم .

اللهم إنى أسألك لى ولهم من خيرك الذى لا يملكه غيرك ، اللهم اجعلنى وإياهم فى عبادك وعياذك وعيالك وجوارك وأمانتك وحرزك وحزبك وكنفك ومن شر كل شيطان وسلطان وإنس وجن وباغ وسبع وعقرب وحية ، ومن كل دابة أنت آخذ بناصيتها . إن ربى على صراط مستقيم

حسبى الرب من المربوبين ، حسبى الخالق من المخلوقين ، حسبى الرازق من المرزوقين ، حسبى الساتر من المستورين ، حسبى الناصر من المنصورين ، حسبى القاهر من المقهورين . حسبى الذى هو حسبى ، حسبى من لم يزل حسبى ، حسبى الله ونعم الوكيل ، إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا

فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم (٧ مرات)

(ثم يتفل القارىء عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه بغير بصاق ، ثم يقول) :

خبأت نفسى وأنفسهم فى حصن لا إله إلا الله ، وفى خزائن بسم الله الرحمن الرحيم . أقفالها ثقتى بالله ، مفاتيحها لا حول ولا قوة إلا بالله ، أدافع اللهم بك عن نفسى ما أطيق وما لا أطيق . لا طاقة لمخلوق مع قدرة الخالق حسبى الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم ؛ وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(ثم يقرأ العابد ورد الستار ، وهو نافع فى إبراء المرضى اليائسين ، وحماية من الأمراض الخبيثة . وسبب عظيم من أسباب الفتح ، وتثبيت للإيمان).

ورد الستار

لسيدى يحيى الباكوبى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

اللهم يا ستار يا ستار . ياعزيز ياغفار . يا جليـــل ياجبار ، يامقلب القلوب والأبصار ، ويامدبر الليل والنهار .

إلهى استر عيوبنا ، واغفر ذنوبنـا ، وطهر قلوبنا ، ونور قبورنا ، واشرح صدورنا ، وكفر عنا سيئاتنا . وتوفنا مع الأبرار .

سبحانك ماعبدنا حق عبادتك يامعبود ، سبحانك ماعرفنـاك حق معرفتك يا معروف ، سبحانك ماذكرناك حق ذكرك يامذكور ، سبحانك ماشكرناك حق شكرك يامشكور . فضلا من الله ورحمة ، شكرا من الله ونعمة ، لله الحمد والمنة ، الحمد لله على الطاعة والتوفيق ، ونستغفر الله العظيم من كل ذنب عمد وسهو وخطأ ونسيان ونقصان وتقصير ؛ اللهم لك الحمد حمدا يوافى نعمك ، ويكافى مزيدك ، نحمدك بجميع محامدك ماعلمنا منها ومالم نعلم ، ونشكرك على جميع نعمك ماعلمنا منها ومالانعلم . وعلى كل حال يامحول الحال حول حالنا من حال إلى أحسن حال .

أعددت لـكل هول لاإله إلا الله ، ولـكل نعمة الحمد لله ، ولـكل رخاء الشكر لله ، ولـكل أعجوبة سبحان الله ، ولـكل مصيبة إنا لله ، ولـكل ضيق حسبي الله ، ولـكل قضاء وقدر توكلت على الله ، ولـكل هم وغم ماشاء الله ، لن يغلب الله شيء وهو غالب على كل شيء، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، لاغاية له فى الآخرة والأولى لاإله إلا الله ، وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، يحي ويميت، وهو حي لايموت أبدا ، دائما صمدا باقيا بيده الخير وإليه المصير.

سبحانك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، عز جارك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غـيرك ، الرحمن على العرش استوى ، له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما ، وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ، فادعوه بها ، صدق الله العظيم .

هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن، العزيز ، الجبار ، المتـكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، جل جلاله ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع المعز المذل ، السميع ، البصير ، الحـكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشـكور ، العلى ، الـكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الجميل ، الـكريم ، الرقيب ، المجيب، الواسع ، الحـكيم ، جل جلاله، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى، الحميد ، المحصى، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحى، القيوم . الواجد، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعـالى ، جل جلاله ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ذو الجـلال والإكرام ، جل جلاله ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى، المعطى، المانع ، الضار ، النافع، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور ، جل جلاله .

الذى تقدست عن الأشباه ذاته ، وتنزهت عن مشابهة الأمثال صفاته ، وشهدت بربوبيته آياته ، ودلت على وحدانيته مصنوعاته ، واحد لامن قلة ، وموجود لامن علة ، بالبر معروف، وبالإحسان موصوف ، أول بلا ابتداء وآخر كريم مقيم بلا انتهاء ، أحاط بـكل شىء علما ، وغفر ذنوب المذنبين كرما وحلما ، ولطفا وفضلا ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . ليس كمثله شىء وهو السميع البصير غفرانك ربنا وإليك المصـــير ، وحسبنا الله تعالى وحده ونعم الوكيل ، يفعل الله مايشاء بقدرته ، ويحـكم

ما يريد بعزته ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

ونشهد ألا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، إلها واحدا جبارا وملكا قادرا قهارا ، للذنوب غفارا ، وللعيوب ستارا ، ونشهد أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، عبده المصطفى ، ورسوله المجتبى ، وأمينه المقتدى صلى الله عليه وسلم شمس الضحى ، بدر الدجى ، نور الورى ، صاحب قاب قوسين أو أدنى صلى الله عليه وسلم ، رسولا مكيا مدنياً قرشياً أبطحيا ، كروبيا روحاً روحانياً تقيا نقيا نبيا صلى الله عليه وسلم ، كوكبا دريا ، شمسا مضيا ، قمرا قمريا ، نورا نورانيا ، بشيرا نذيرا ، سراجا منيرا صلى الله عليه وسلم .

صلى الله تعالى عليه ، وعلى آله وأزواجه ، وأولاده وخلفائه الراشدين المرشدين المهديين من بعده ، خصوصا منهم على الشيخ الشفيق ، قاتل الزنديق وفى الغار الرفيق ، الملقب بالعتيق ، الإمام على التحقيق ، أمير المؤمنين سيدنا أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه .

ثم السلام من الملك الوهاب ، على الأمير الأواب ، زين الأصحاب ، مجاور المسجد والمحراب ، الناطق بالصدق والصواب ، أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

ثم السلام من الملك المنان ، إلى الأمين الأمان ، حبيب الرحمن ، جامع القرآن ، صاحب الحياء والإيمان ، الشهيد على الفرقان ، أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه .

ثم السلام من الملك الولى ، إلى الإمام الوصى ، ابن عم النبى ، قالع الباب الخيبرى ، زوج فاطمة الزهراء ، وارث علوم النبى ، أمير المؤمنين سيدنا على الرضى السخى الوفى رضى الله تعالى عنه ، وكرم الله تعالى وجهه .

ثم السلام على الإمامين الهمامين السعيدين ، الشهيدين ، المقتولين ، الشمسين البدرين ، القمرين ، سيدنا أبى محمد الحسن ، وسيدنا أبى عبد الله الحسين ، رضى الله تعالى عنهما .

وعلى العمين الكريمين المكرمين ، المعظمين المحترمين ، سيدنا حمزة ، وسيدنا العباس ، وعلى جميع الصحابة من المهاجرين والأنصار ، والتابعين والأخيار ، رضوان الله تعالى علينا وعليهم أجمعين ، وسلم تسليما ، وعظم تعظيما دائما أبدا ، وحمدا كثيرا إلى يوم الحشر والقرار .

(ثم يصمت القارىء ويدعو بهذا الدعاء فى سره)

« اللهم زين ظواهرنا بخدمتك ، وبواطننا بمعرفتك ، وقلوبنا بمحبتك وأرواحنا بمعاونتك ، وأسرارنا بمشاهدتك ، اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى سمعى نورا ، وفى بصرى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن شمالى نورا ، وأمامى نورا ، وخلفى نورا ، وفوقى نورا ، وتحتى نورا ، واجعل لى نورا ، واجعلنى نورا » .

(ثم يعود إلى الجهر)

برحمتك يا أرحم الراحمين ، واستجب دعانا ، وارحم موتانا ، (لا إله إلا الله - ٣ مرات هو « بالمد ») سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا وصدقا ، وصل على كل نبى وولى وملك .

(أستغفر الله ٣ مرات) أستغفر الله من جميع ما كره الله قولا وفعلا وخاطرا وناظر وأتوب إليه سبحان الله ٣٣ مرة الحمد لله ٣٣ مرة ، الله أكبر ٣٣ مرة . الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ، وتعالى الله ملكا جبارا قهارا ستارا سلطانا معبودا قديما قديرا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، واستجب دعانا ، واشف مرضانا ، وارحم موتانا ، وصل وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين .

(ثم يقرأ الفاتحة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمشايخ الطريق رضى الله تعالى عنهم) .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم

يس . والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون ، وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ، إنانحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ، واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون .

وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون . ومالى لاأعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ، إنى إذا لفى ضلال مبين ، إنى آمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ، وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ، ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ، ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون ، وإن كل لما جميع لدينا محضرون ، وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون .

فسبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون
وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها
ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم .
لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون
وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون .
وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعا إلى
حين . وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون .
وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . وإذا
قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء
الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين . ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم
صادقين . ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون . فلا يستطيعون
توصية ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى
ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن
وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون .
فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا كنتم تعملون . إن أصحاب الجنة اليوم
فى شغل فاكهون . هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون . لهم فيها
فاكهة ولهم ما يدعون . سلام قولا من رب رحيم . وامتازوا اليوم أيها المجرمون
ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى
هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون .
هذه جهنم التى كنتم توعدون . اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون . اليوم
نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون .
ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون . ولو نشاء
لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون . ومن نعمره ننكسه
فى الخلق أفلا يعقلون . وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر
وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . أولم يروا أنا
خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون .

وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون . واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لايستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون . فلا يحزنك قولهم إنما نعلم ما يسرون وما يعلنون . أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون .

بسم الله الرحمن الرحيم . والصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا . إن إلهكم لواحد . رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق . إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لايسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب . فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب . بل عجبت ويسخرون . وإذا ذكروا لا يذكرون . وإذا رأوا آية يستسخرون . وقالوا إن هذا إلا سحر مبين . ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون . فتول عنهم حتى حين . وأبصرهم فسوف يبصرون . أفبعذابنا يستعجلون . فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين . وتول عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون . سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر

العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق . وقيل الحمد لله رب العالمين .

فلله الحمد رب السموات ورب الأرض ورب العالمين . وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما .

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون . لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون . لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

(ثم يقول سرا : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ثلاث مرات . ثم يستأنف القراءة جهرا ويرفع يديه) :

هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى . يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

(ويمسح جسده بيديه بادئا من أعلى رأسه ثم يرفع يديه داعيا) .

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا إنك أنت الغفور الرحيم . سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

(وإذا وجد العابد متسعا فى الصباح من الوقت فليقرأ حزب النصر)

حزب النصر

لسيدى أبى الحسن الشاذلى

اللهم بسطوة جبروت قهرك ، وبسرعة إغاثة نصرك ، وبغيرتك لانتهاك حرماتك ، وبحمايتك لمن احتمى بآياتك ، نسألك ياألله ياسميع ، ياقريب ، يامجيب ، ياسريع ، ياجبار ، يامنتقم ، ياقهار ، يامن لايعجزه قهر الجبابرة ، ولا يعظم عليه هلاك المتمردة ، من الملوك والأكاسرة ، أن تجعل كيد من كادنى فى نحره ، ومكر من مكر بى عائد إليه ، وحفرة من حفر لى واقعا فيها ، ومن نصب لى شبكة الخداع اجعله ياسيدى مساقا إليها ، ومصادا فيها ، وأسيرا لديها .

اللهم بحق كهيعص ، اكفنا العدا ، ولقهم الردى ، واجعلهم لكل حبيب فدا ، وسلط عليهم عاجل النقمة فى اليوم والغدا .

اللهم بدد شملهم ، اللهم فرق جمعهم ، اللهم فل حدهم ، اللهم أقلل عددهم ، اللهم اجعل الدائرة عليهم ، واسلبهم مدد الحلم ، وغل أيديهم ، واربط على قلوبهم ، ولا تبلغهم الآمال .

اللهم مزقهم كل ممزق مزقته لأعدائك انتصارا لأنبيائك ورسلك وأوليائك ، اللهم انتصر لنا انتصارك لأحبابك علـى أعدائك ، اللهم

لا تمكن الأعداء فينا ، ولا تسلطهم علينا بذنوبنا . حم . حم . حم . حم . حم . حم . حم .

حم الأمر ، وجاء النصر ، فعلينا لا ينصرون .

حمعسق . حمايتنا مما نخاف . اللهم قنا شر الأسوا ، ولا تجعلنا محلا للبلوى ، اللهم أعطنا أمل الرجاء وفوق الأمل . ياهو . ياهو . ياهو . ياهو . يامن بفضله لفضله نسأل . نسأل العجل العجل ، إلهى الإجابة الإجابة .

يامن أجاب نوحا فى قومه ، يامن نصر إبراهيم على أعدائه ، يامن رد يوسف على يعقوب ، يامن كشف ضر أيوب ، يامن أجاب دعوة زكريا ، يامن قبل تسبيح يونس بن متى ، نسألك بأسرار أصحاب هذه الدعوات المستجابات أن تتقبل ما به دعوناك ، وأن تعطينا ما سألناك ، أنجز لنا وعدك الذى وعدته لعبادك المؤمنين .

(لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ٣ مرات) .

انقطعت آمالنا وعزتك إلا منك ، وخاب رجاؤنا وحقك إلا فيك .

إن أبطأت غارة الأرحام وابتعدت   فأقرب الشىء منا غارة الله
ياغارة الله جدى السير مسرعة   فى حل عقدتنا ياغارة الله

* * *

عدت العادون وجاروا   ورجونا الله مجيرا
وكفى بالله وليـــا   وكفى بالله نصيرا

حسبى الله ونعم الوكيل . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

استجب لنا . آمـــين . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

صـــلاة الضحى

صلاة الضحى من سنن النبي صلى الله عليه وسلم .

ووقتها من ارتفاع الشمس قدر الرمح إلى الزوال .

وأقلها ركعتان ، وأكثرها اثنتا عشرة ركعة .

والأحاديث الواردة فيها كثيرة ، ومنها :

١ — عن معاذة ، قالت : قلت لعائشة رضى الله عنها : أكان النبى صلى الله عليه وســـلم يصلى الضحى ؟ قالت : « نعم ، أربع ركعات ، ويزيد ماشاء الله عز وجل » .

٢ — عن أنس رضى الله عنه : « أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يصلى الضحى ست ركعات » .

٣ — عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، قال : ماأخبرنى أحد أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يصلى الضحى إلا أم هانىء رضى الله عنها ، فإنها حدثت : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دخل بيتها يوم فتح مكة ، فاغتسل ، فسبح ثمانى ركعات ، مارأيته صلى صلاة قط أخف منها ، غير أنه كان يتم الركوع والسجود » .

وإنما خففها صلى الله عليه وسلم لاشتغاله بالفتح .

٤ — عن عبد الله بن شقيق ، قال : « قلت لعائشة : أكان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى الضحى ؟ قالت : لا ، إلا أن يجىء من مغيبه » .

ولا منافاة بين هذا الحديث ، والحديث السابق الذى قالت فيه : (نعم) لأن النفى هنا محمول على نفى المداومة .

٥ — عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، قال : « كان النبى صلى

الله عليه وسلم ، يصلى الضحى حتى نقول : لايدعها ، ويدعها حتى نقول : لايصليها » .

٦ — عن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه : « أن النبى صلى الله عليه وسلم ،كان يدمن أربع ركعات عند زوال الشمس ، فقلت يارسول الله ، إنك تدمن هذه الأربع ركعات عند زوال الشمس ، فقال : إن أبواب السماء تفتح عند زوال الشمس ، فلا ترتج حتى يصلى الظهر ، فأحب أن يصعد لى فى تلك الساعة خير ، قلت أفى كلهن قراءة ؟ قال : نعم ، قلت : هل فيهن تسليم فاصل ؟ قال : لا » .

وفى هذا الحديث بيان لكيفيتها :

ا — لابد فى الأربع من قراءة الفاتحة وسورة معها .

ب — أخذ أبو حنيفة بهذا الحديث فلم ير الفصل بين الأربع بسلام بعد اثنتين منهما ، أما غيره فرأى الفصل بين كل اثنتين بسلام ، لخبر : « صلاة الليل والنهار مثنى مثنى » .

صلاة الظهر

يستحب الإكثار من الأذكار من وقت الزوال إلى الغروب .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصلى أربعا قبل الظهر ، بعد زوال الشمس ، ويقول : « إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء ، وأحب أن يصعد لى فيها عمل صالح » قال الترمذى حديث حسن .

والدليل على استحباب الذكر بعد الزوال إلى الغروب ، عموم قوله تعالى : (وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار) قال أهل الفقه العشى : من زوال الشمس إلى غروبها ، وهو رأى أبى منصور الأزهرى .

وصلاة الظهر المكتوبة تسبقها أربع مسنونة ، وتلحقها أربع مسنونة أيضا ويسر فى القراءة فى جميعها .

والظهر أربع ركعات يقرأ فى الأوليان الفاتحة وسورة قصيرة أو آيات من القرآن ، وهى واجبة عند أبى حنيفة سنة عند الشافعى رضى الله عنهما .

ثم يجلس ، ويتشهد ، ولا يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم يصلى ركعتين يقرأ فيهما الفاتحة فقط ، ثم يجلس للتشهد ويصلى ويسلم على النبى صلى الله عليه وسلم فى التشهد الأخير ، ويدعو بما لا يشبه كلام الدنيا.

وبعد الفراغ يقرأ ختم الصلاة ، الذى ذكرناه من قبل ، ثم يقرأ « حزب البحر » .

حزب البحر

لسيدى أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه

ياعلى ياعظيم ، ياحليم ياعليم ، أنت ربى وعلمك حسبى فنعم الرب ربى ، ونعم الحسب حسبى تضر من تشاء وأنت العزيز الرحيم .

نسألك العصمة فى الأنفاس واللحظات والكلمات والإرادات والخطرات من الظنون والشكوك والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب ، فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا ،فثبتنا وانصرنا،وسخر لنا هذا البحر ، كما سخرت البحر لموسى وسخرت النار لإبراهيم ، وسخرت الجبال والحديد لداود، وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان ، وسخر لنا كل بحر هو لك فى الأرض والسماء والملك والملكوت ، وبحر الدنيا ، وبحر الآخرة ، وسخر لنا كل شىء يامن بيده ملكوت كل شىء (كهيعص ٣ مرات) .

انصرنا فإنك خير الناصرين .

وهب لنا ريحا طيبة كما هى فى علمك ، وانشرها علينا من خزائن رحمتك واحملنا بها حمل الكرامة مع السلام والعافية فى الدين والدنيا والآخرة ، إنك على كل شىء قدير .

اللهم يسر لنا أمورنا ، مع الراحة لقلوبنا والسلامة والعافية فى دنيانا وديننا ، وكن لنا صاحبا فى سفرنا ، وخليفة فى أهلنا ، واطمس على وجوه أعدائنا وامسخهم على مكانتهم ، فلايستطيعون المضى ولا المجىء إلينا ، ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون . يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا ، فهى إلى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ، ومن خلفهم سدا ، فأغشيناهم فهم لا يبصرون .

(شاهت الوجوه ٣ مرات) وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما .

طس ، حمعسق ، مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ، حم ، حم ، حم ، حم ، حم ، حم ، حم ، حم الأمر وجاء النصر فعلينا لاينصرون

حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ، ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير .

بسم الله بابنا ، تبارك حيطاننا ، يس سقفنا كهيعص كفايتنا ، حمعسق حمايتنا فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم (ثلاثا)

ستر العرش مسبول علينا ، وعين الله ناظرة إلينا ، بحول الله لايقدر علينا ، والله من ورائهم محيط ، بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ

فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين (ثلاثا)

إن ولىي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين (ثلاثا)

بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم (ثلاثا)

ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم (ثلاثا)

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم (ثلاثا)

* * *

ويجب بعد ذلك أن يشغل العابد وقت فراغه بالتسبيح بأى صيغة كانت أو بأذكاره التى تلقاها عن شيخه ، إن كان له شيخ .

صلاة العصر

يصلى العابد أربع ركعات قبل العصر ، سنة مؤكدة ، يسر بالقراءة فيها ويقرأ فى الأوليين بعد الفاتحة سورة قصيرة أو آيات من القرآن ، أما الأخيرتين فلا يقرأ فيهما بعد الفاتحة شيئا

ثم يصلى العصر كصلاة الظهر تماما ، وبعد الصلاة ، يقرأ ختم الصلاة

ثم يقول مائة مرة « أنا فى جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم »

ثم يقرأ حزب البر ، الذى قال عنه مؤلفه سيدى أبو الحسن الشاذلى : « من حفظه ، فله مالنا ، وعليه ما علينا »

ملاحظة : تكره الصلاة بعد العصر كراهة تحريم عند الأحناف

حزب البر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم

وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعد ذلك وأصلح فإنه غفور رحيم ، بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير

الر ، كهيعص ، حمعسق ، رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون .

طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى (الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ؛ ثلاثا)

اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شىء من جهالتى بعلمك ، فسع ذلك برحمتك ، كما وسعته بعلمك ، واغفر لى ، إنك على كل شىء قدير .

يا ألله . ياملك . ياوهاب هب لنا من نعماك ماعلمت لنا فيه رضاك ، واكسنا كسوة تقنا بها من الفتن فى جميع عطاياك ، وقدسنا عن كل وصف يوجب نقصا مما استأثرت به فى علمك عمن سواك .

يا ألله ، ياعظيم ، ياعلى ، ياكبير ، أسألك الفقر مما سواك ، والغنى بك حتى لاأشهد إلا إياك ، والطف بنا فيهما لطفا علمته يصلح لمن والاك ، واكسنا جلابيب العصمة فى الأنفاس واللحظات ، واجعلنا عبيدا لك فى جميع الحالات ، وعلمنا من لدنك علما نصير به كاملين فى المحيا والممات .

اللهم أنت الحميد ، الرب المجيد ، الفعال لما تريد ، تعلم فرحنا بماذا ، ولماذا ، وعلى ماذا ، وتعلم حزننا كذلك ، وقد أوجبت كون ما أردته فينا ومنا ، ولا نسألك دفع ماتريد ، ولكن نسألك التأييد بروح من عندك فيما تريد . كما أيدت أنبياءك ورسلك ، وخاصة الصديقين من خلقك ، إنك على كل شىء قدير .

اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك ، فهنيئا لمن عرفك فرضى بقضائك ، والويل لمن لم يعرفك ، بل الويل ثم الويل لمن أقر بوحدانيتك ، ولم يرض بأحكامك .

اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا ، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا ، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلا تصحبه لطائف رحمتك وكل وجد يحجب عنك فنسأله بدله فقدا تصحبه أنوار محبتك ، فإنه قد ظهرت السعادة على من أحببته ، وأظهرت الشقاوة على من غيرك ملكه ، فهب لنا من مواهب السعداء ، واعصمنا من موارد الأشقياء .

اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم ، فكيف لا نعجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم ، وقد أمرتنا ونهيتنا ، والمدح والذم ألزمتنا . فأخو الصلاح من أصلحته ، وأخو الفساد من أضللته ، والسعيد حقا من أغنيته عن السؤال منك ، والشقى حقا من حرمته مع كثرة السؤال لك ، فأغننا بفضلك عن سؤالنا منك ، ولا تحرمنا من رحمتك مع كثرة سؤالنا لك ، واغفر لنا ، إنك على كل شىء قدير .

ياشديد البطش ، ياجبار ، ياقهار ، ياحكيم ، نعوذ بك من شر ماخلقت ونعوذ بك من ظلمة ماأبدعت ، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدرت وأردت ونعوذ بك من شر الحساد على ماأنعمت . ونسألك عن الدنيا والآخرة كما سألكه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، عز الدنيا بالإيمان والمعرفة ، وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة ، إنك سميع قريب مجيب .

اللهم إنى أقدم إليك بين يدى كل نفس ولمحة وطرفة يطرف بها أهل السموات وأهل الأرض ، وكل شىء هو فى علمك كائن أو قد كان ، أقدم إليك بين يدى لذلك كله : الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له مافى السموات ومافى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم .

أقسمت عليك ببسط يديك ، وكرم وجهك . ونور عينيك ، وكمال أعينك ، أن تعطينا خير مانفذت به مشيئتك ، وتعلقت به قدرتك ، وأحاط

به علمك ، واكفنا شر ماهو ضد لذلك ، وأتمم علينا نعمتك ، وهب لنا حكمة الحكمة البالغة ، مع الحياة الطيبة ، والموتة الحسنة ، وتول قبض أرواحنا بيدك ، وحل بيننا وبين غيرك فى البرزخ ، وماقبله ومابعده ، بنور ذاتك ، وعظيم قدرتك ، وجميل فضلك ، إنك على كل شىء قدير .

ياألله ، ياعلى ياعظيم ، ياحليم ، ياكريم ، ياسميع ، ياقريب ، يامجيب . ياودود ، حل بيننا وبين فتنة الدنيا والنساء والغفلة والشهوة ، وظلم العباد وسوء الخلق ، واغفر لنا ذنوبنا ، واقض عنا تبعاتنا واكشف عنا السوء ونجنا من الغم ، واجعل لنا منه مخرجا ، إنك على كل شىء قدير .

ياألله ، ياألله ، ياألله ، يالطيف ، يارزاق ، ياقوى ، ياعزيز ، لك مقاليد السموات والأرض ، تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر ، فابسط لنا من الرزق ماتوصلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نقمتك ، ومن حلمك ما يسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التى ختمت بها لأوليائك ، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك ، وزحزحنا فى الدنيا عن نار الشهوة ، وأدخلنا بفضلك فى ميادين الرحمة ، واكسنا من نورك جلابيب العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومهينا من أرواحنا ، ومسخرا من أنفسنا ، كى نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا ، إنك كنت بنا بصيرا ، وهب لنا مشاهدة تصحبها مكالمة ، وافتح أسماعنا وأبصارنا ، واذكرنا إذا غفلنا عنك ، بأحسن مما تذكرنا به إذا ذكرناك ، وارحمنا إذا عصيناك بأحسن مما ترحمنا به إذا أطعناك ، واغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها وماتأخر ، والطف بنا لطفا يحجبنا عن غيرك ، ولايحجبنا عنك ، فإنك بكل شىء عليم .

اللهم إنا نسألك لسانا رطبا بذكرك ، وقلباً منعما بشكرك ، وبدنا هينـا لينا لطاعتك ، وأعطنا مع ذلك مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، كما أخبر به رسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حسبما علمته بعلمك ، وأغننا بلا سبب واجعلنا سبب الغنى لأوليائك ، وبرزخا بينهم وبين أعدائك ، إنك على كل شىء قدير .

اللهم إنا نسألك إيمانا دائما ، ونسألك قلبا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك دينا قيما ، ونسألك العافية من كل بلية ، ونسألك تمام العافية ، ونسألك دوام العافية ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس (يكرر هذا الدعاء ثلاثا) .

اللهم إنا نسألك التوبة الكاملة ، والمغفرة الشاملة ، والمحبة الجامعة ، والخلة الصافية ، والمعرفة الواسعة ، والأنوار الساطعة ، والشفاعة القائمة ، والحجة البالغة ، والدرجة العالية ، وفك وثاقنا من المعصية ، ورهاننا من النعمة ، بمواهب المنة ، إنك على كل شيء قدير .

اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها ، وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، واحملنا على النجاة منها ، ومن التفكر فى طرائقها ، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنيناه منها واستبدلها بالكراهة لها ، والطعم لماهو بضدها ، وأفض علينا من بحر كرمك وجودك حتى نخرج من الدنيا على السلامة من وبالها ، واجعلنا عند الموت ناطقين بالشهادة عالمين بها ، وارأف بنا رأفة الحبيب بحبيبه عند الشدائد ونزولها وأرحنا من هموم الدنيا وغمومها بالروح والريحان إلى الجنة ونعيمها .

اللهم إنا نسألك توبة سابقة منك إلينا ، لتكون توبتنا تابعة إليك منا وهب لنا التلقى منك ، كتلقى آدم منك الكلمات ، ليكون قدوة لولده فى التوبة والأعمال الصالحات ، وباعد بيننا وبين العناد والإصرار ، والشبه بإبليس رأس الغواة واجعل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولاتجعل حسناتنا حسنات من أبغضت فالإحسان لا ينفع مع البغض منك ، والإساءة لاتضر مع الحب منك ، وقد أبهمت الأمر علينا لنرجو ونخاف ، فآمن خوفنا ، ولا تخيب رجاءنا وأعطنا سؤلنا ، فقد أعطيتنا الإيمان من قبل أن نسألك وكتبت وحببت وكرهت وأطلقت الألسن بما به ترجمت ، فنعم الرب أنت ، فلك الحمد على ما أنعمت ، فاغفر لنا ، ولا تعاقبنا بالسلب بعد العطاء ، ولا بكفران النعم وحرمان الرضا .

اللهم رضينا بقضائك ، وصبرنا على طاعتك ، وعن معصيتك ، وعن الشهوات الموجبات للنقص أو البعد عنك ، وهب لنا حقيقة الإيمان بك ، حتى لانخاف غيرك ، ولا نرجو غيرك ولا نحب غيرك ، ولا نعبد شيئا سواك ، وأوزعنا شكر نعمائك ، وانصرنا باليقين والتوكل عليك ، وأسفر وجوهنا بنور صفاتك ، وأضحكنا وبشرنا يوم القيامة بين أوليائك واجعل يدك مبسوطة علينا وعلى أهلينا وأولادنا ومن معنا برحمتك ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك يا نعم المجيب ، يانعم المجيب يانعم المجيب . يامن هو هو هو ، فى علوه قريب .

ياذا الجلال والإكرام . يامحيطا بالليالى والأيام . أشكو اليك من غم الحجاب . وسوء الحساب . وشدة العذاب . وإن ذلك لواقع . ماله من دافع . إن لم ترحمنى .

لاإله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين (ثلاثا) .

ولقد شكا إليك يعقوب لخاصته من حزنه ، ورددت عليه ماذهب من من بصره وجمعت بينه وبين ولده ، ولقد ناداك نوح من قبل فنجيته من كربه ولقدناداك أيوب فكشفت ما به من ضره ، ولقدناداك زكريافوهبت له ولدا من صلبه ، بعد يأس أهله وكبر سنه ، ولقد علمت مانزل بإبراهيم فأنقذته من نار عدوه ؛ وأنجيت لوطا وأهله من العذاب النازل بقومه . فها أنذا عبدك إن تعذبنى بجميع ماعلمت من عذابك . فأنا حقيق به . وإن ترحمنى رحمتهم مع عظيم إجرامى . فأنت أولى بذلك وأحق من أكرم به . فليس كرمك مقصورا على من أطاعك وأقبل عليك . بل هومبذول بالسبق منك لمن شئت من خلقك . وإن عصاك وأعرض عنك وليس من الكرم ألا تحسن إلا لمن أحسن إليك وأنت المفضال الغنى بل من الكرم أن تحسن إلى من أساء إليك . وأنت الرحيم العلى ، كيف وقد أمرتنا أن نحسن إلى من أساء إلينا ، فأنت أولى بذلك منا .

ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين (ثلاثا)

يا ألله ، يا ألله ، يا ألله ، يا رحمن ياقيوم ، يا من هو هو ، يا هو ، إن لم نكن لرحمتك أهلا أن ننالها ، فرحمتك أهل أن تنالنا ، يا رباه ، يا مولاه ، يا مغيث من عصاه ، أغثنا أغثنا أغثنا ، يا رب يا كريم ، وارحمنا يابر يا رحيم ، يا من وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم .

أسألك الإيمان بحفظك إيمانا يسكن به قلبي من هم الرزق ، وخوف الخلق ، واقرب منى بقدرتك قربا تمحق به عنى كل حجاب محقته عن إبراهيم خليلك ، فلم يحتج لجبريل رسولك ، ولا لسؤاله منه ، وحجبته بذلك عن نار عدوه ؛ وكيف لايحجب عن مضرة الأعداء من غيبته عن منفعة الأحباء كلا . إنى أسألك أن تغيبنى بقربك منى ، حتى لا أرى ولا أحس بقرب شيء ولا ببعده عنى ، إنك على كل شيء قدير .

أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلها آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون ، وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين .

هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين .

إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وارحم سيدنا محمداً وآل سيدنا محمد ، كما رحمت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ؛ وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد (ثلاثا)

٢

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

صـــلاة المغرب

تصلى المغرب ثلاث ركعات ، ويجهر المصلى بالقراءة فى الركعتين الأولين ويقرأ فيهما الفاتحةوسورة ، أو آياتمن القرآن . ويسر فىالثالثة ، ولا يقرأ فيها بعد الفاتحة شيئا .

ثم تصلى ركعتين بعد المغرب سنة مؤكدة ويجهر فيهما بالقراءة بحيث يسمع نفسه ، ويقرأ فيهما بعد الفاتحة سورة أو آيات من القرآن .

وبعد الصلاة يقرأ ختم الصلاة ، مع ملاحظة الزيادة فيه كما نبهنا عليه فى الهامش .

ثم يقرأ حزب الإمام النووى ، ويجوز تأخيره إلىمابعد صلاة العشاء .

صلاة العشاء

أربع ركعات يجهر فى الأولين منهما ويسر فيهما كالمغرب ، ويسر فى الأخيرتين كالظهر والعصر تماما .

ثم يقرأ ختم الصلاة .

ثم يقرأ سورة يس (وقد مرت) وسورة الواقعة ، وهى هذه :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .

إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . إذا رجت الأرض رجا ، وبثت الجبال بثا . فكانت هباء منبثا ، وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون

السابقون . أولئك المقربون في جنات النعيم ثلة من الأولين وقليل من الآخرين .
على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون .
بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما
يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون .
جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما .
وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود . وطلح منضود . وظل
ممدود . وماء مسكوب وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش
مرفوعة . إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا لأصحاب اليمين
ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ، وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في
سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك
مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا
ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أوآباؤنا الأولون ، قل إن الأولين والآخرين ،
لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون
من شجر من زقوم فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون
شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرأيتم
ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن
بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة
الأولى فلولا تذكرون . أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون
لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون أفرأيتم الماء الذى
تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا
تشكرون . أفرأيتم النار التي تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ، نحن
جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم . فلا أقسم بمواقع
النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون .
لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين ، أفبهذا الحديث أنتم مدهنون

وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ، فلولا إذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين . فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين ، وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم ، وتصلية جحيم ، إن هذا لهو حق اليقين فسبح باسم ربك العظيم .

صلاة الوتر

وهى ثلاث ركعات واجبة بعد العشاء عند الإمام الأعظم أبى حنيفة ، يجلس بعد اثنتين ، ويقرأ نصف التشهد ، ثم يقوم للثالثة بلا تسليم ، ويقرأ فى الثلاث سورة مع الفاتحة أو آيات من القرآن .

وبعد القراءة فى الثالثة ، وقبل الركوع يقرأ القنوت وهو :

« اللهم إنا نستغفرك ونستهديك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ؛ نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم » .

قيـام الليل

فضل قيام الليل :

(وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً)

وعد سبحانه وتعالى من صفات المؤمنين «وبالأسحار هم يستغفرون»

وحث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم على القيام بقوله : (قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا ، أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا) .

وبقوله : (ومن الليل فتهجد به نافـــلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً) .

فالليل ، ولا سيما السحر ، وقت صفاء الروح ، وخمود الأرواح الشريرة وتنزل الرب سبحانه إلى السماء الدنيا لإغاثة المستغيثين، والعفو عن المستغفرين ماهو إلا زوال الحجب المانعة من سريان الرحمة إلى المستقبلين لها ، سواء أكانت تلك الحجب فى داخل النفس أم مبثوثة في الكون من شرور الجنة والناس .

روى المولى أحمد بن مصطفى ، المعروف بطاش كبرى زاده ، فى كتابه مفتاح السعادة ، ومصباح السيادة ، عن الحسن بن زياد ، أن رجلا نسى مكان ماله الذى دفنه فيه ، فجاء إلى الإمام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه وسأله عما يفعل ، فقال له الإمام الأعظم : «صل طول الليل تتذكر» . فلما صلى ربع الليل تذكر .

فقال له : «من أين لك هذا ؟» .

قال : «لأن الشيطان لا يمكنه أن يصلى طول الليل ، فيلقيه خاطره» .

وقال صلى الله عليه وسلم : «ركعتان يركعهما ابن آدم فى جوف الليل ،

خير له من الدنيا وما فيها ، ولولا أن أشق على أمتى لفرضتها عليهم » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من صلى بالليل ، حسن وجهه بالنهار » .

وقيل للحسن البصرى رضى الله عنه : « ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوها ؟ » .

قال: « لأنهم خلو بالله ، وناجوه والناس نيام فألبسهم نورا من نوره» .

ونقل سيدى عمر الشبراوى رضى الله عنه ، فى مفتاح المريدين ، أنه قيل أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين « إن لى عبادا يحبوننى وأحبهم ، ويشتاقون إلى وأشتـــاق إليهم ، ويذكروننى وأذكرهم » فقال يارب . ما علامتهم ؟ .

قال : « يراعون الظلام بالنهار ، كما يراعى الراعى غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها ، فإذا هجم الليل وأقبل الظلام ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، صفوا إلى أقدامهم ، وافترشوا لى وجوهم ، وناجونى لكلامى ، وتحلقوا إلى بإنعامى ، فمنهم صارخ ، وباك ومتأوه وشاك ومنهم قاعد وقائم وراكع وساجد ، فأعطيتهم ثلاث خصال :

الأولى : أن أقذف فى قلوبهم من نورى .

الثانية : لو كانت السموات والأرض فى موازينهم لاستقللتها عليهم .

الثالثة : أقبل بوجهى الكريم عليهم ، أفتدرى من أقبلت عليه بوجهى الكريم ، هل يعلم أحد ماأريد أن أعطيه ؟ ! ! » وأوحى الله إلى داود عليه السلام : « ياداود ، كذب من يدعى محبتى ، وإذا جن عليه الليل نام عنى . أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه » .

وقال عبد الله بن المبارك رضى الله عنه :

إذا ماالليل أظلم كابدوه فيسفر عنهم وهم ركوع

أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن فى الدنيا هجوع

وأنشد بعض العارفين :

طوبى لمن سهرت بالليل عيناه وبات فى قلق من حب مولاه
وقام يرعى نجوم الليل منفردا شوقا إليه وعـــين الله ترعاه

وقد كان قيام الليل عاملا من عوامل نشاط الأدب الصوفى الرفيـع ، الذى يصور شفافية الروح ، ورقة الذوق ، وسمو المشاعر ، وإدراك الجمال العميق فى الأوقات التى نبه الله تعالى إليها ، والتى أجمع الشعراء على أنها الأوقات الموحية بأروع الإنتاج البشرى من الشعر ، وأجمع العلماء على أنها الأوقات التى يصفو فيها العقل والروح ، لإنتاج روائع العلم .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : «كان بجوارى شاب يصوم النهار ويقوم الليل ، فجـاءنى يوما ، وقال لى : يا أستاذ ، قد نمت الليلة عن وردى ، فرأيت كأن المحراب قد انشق ، وخرج منه جوار كأنهن الأقمـار لم أر أحسن منهن وجها .

فقلت : لمن أنتن ؟ .

فقلن : نحن ثواب لياليك الماضية فى الاجتهاد والعبادة .

ثم رأيت فيهن جارية قبيحة .

فقلت : لمن هذه ؟

فقلن : ثواب ليلة نومك ، ولو مت فى تلك الليلة لكانت تلك الجارية حظك .

ثم إن الجارية القبيحة أنشدت :

أطلب من الله واردد نى إلى حالى فأنت قبحتنى من بين أشـكالى
لا ترقد الليل ما فى النوم فائدة فإن تنمه فلا تعطى سوى أمثالى

نحن السرور لمن نال السرور بنا ... خوف الظلام يسكنى المنزل العالى

فأجابتها جارية من الحسان :

أبشر بخير فقد نلت المنى أبدا ... فى جنة الخلد روضات وجنات
نحن الليالى اللواتى كنت تسهرها ... جنح الظلام بلوعات وزفرات
أبشر فقد نلت ماترجوه من ملك ... بر يجود بأفضال وفرحات
غدا تراه تجلى غير محتجب ... تدنو إليه وتحظى بالتحيات

وأنشد بعضهم :

لله در السادة العباد ... فى كل بر مقفر أو وادى
هجروا المراقد فى الظلام لربهم ... واستبدلوا سهرا بغير رقاد
كتموا الضنا حفظا لهم وتحملوا ... فاحت عليهم حرقة الأكباد
ألوانهم تغنيك عن أحوالهم ... ودموعهم منهلة كفؤادى
لايفترون إذا الرجا وافاهم ... من كثرة الأذكار والأوراد
نظروا إلى الدنيا تغر بأهلها ... بوصالها وتغر بالأبعاد
وتنزهوا عنها وجدوا فى اللقا ... وتزودوا من صالح الأزواد
ومشوا على سنن النبى محمد ... خير الأنام الهاشمى الهادى

ودرة ماأوحت به النفحات الأقدسية ، إلى الأرواح النقية ، فى مناجاة الليل ، ورب الليل ، وورد السحر ، الذى نزل به الروح الأمين ، على قلب سيدى مصطفى البكرى ، شيخ الخلوتية بمصر ، وإمام أهل الأرواح الذائعة الناشقة ، والذى سنتحدث عنه فى نهاية الفصل .

وقيام الليل تدريب على السهر الرتيب المنظم ، وقد أجمع العلماء المشتغلون بالعلاج النفسانى على أن التدريب على عمل دينى منظم فى أوقات مرتبة ، أو على عمل تعاونى منظم ، يعتبران علاجا لكثير من أمراض النفس

المستعصية ، ثم عادوا فأكدوا ضمان النجاح فى الأعمال العبادية المنظمة ، ودلت الإحصاءات على أن نسبة النجاح بهذه الوسيلة ٩٩ ٪ .

فإذا كانت الأعمال العبادية الرتيبة المنظمة تعتبر فى قواعد العلاج النفسى الحديث أساسا عاد إليه العلماء بعد قرن من المادية الملحدة ، فإن ذلك بشير الخير للدارسين الذين اتجهوا بدراساتهم نحو الدراسات الغربية الحديثة أو نحو الدراسات الشيوعية المنكرة الأديان ، لأنه سيطمئن قلوبهم إلى سلامة العمل الذى يقومون به ، وجدواه على حياتهم القلقة المضطربة ، التى حاولوا بوسائل العقل إسعادها ، ففشل العقل وتعست الحياة ، لأن الإطمئنان والسكينة لا تنبعان إلا معين الروح ، ولا يمكن بأى حال أن تنبعا من معين العقل وقد سبق الشيخ الأكبر رضوان الله عليه ، علماء الطب النفسانى الحديث ، باستكشاف جدوى السهر فى الحفاظ على الهمة فى القلب (راجع حلية الأبدال للشيخ الأكبر) ولا مطمح لأطباء النفس فى غير بعث الهمة فى قلب المريض النفس المعقد النفس .

ونبه الله تعالى على وقت السحر وبركته فى قوله تعالى :

(وبالأسحارهم يستغفرون) وبقوله :

(والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) وبقوله :

(وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا)

وأصر الرسول صلى الله عليه وسلم على المواظبة على قيام الليل ، حتى تورمت قدماه الشريفين ، وماذلك إلا لسر عظيم ؛ وفضل كبير لهذا الوقت بالذات على سائر الأوقات ، كما فضلت بعض الأماكن على سائر البقاع . قال الشيخ الأكبر رضى الله عنه فى حلية الأبدال عن السهر :

وهو نتيجة الجوع ؛ فإن المعدة إذا لم يكن فيها طعام ذهب النوم .

والسهر سهران : سهر العين ، وسهر القلب ؛ فسهر القلب انتباهة من نومات الغفلات ، طلبا للمشاهدات ، وسهر العين رغبة فى بقاء الهمة فى القلب ، لطلب المسامرة ، فإن العين إذا نامت بطل عمل القلب ، فإذا كان القلب غير نائم مع نوم العين ، فغايته مشاهدة سهره لاغير ، وأما أن يلحظ غير ذلك فلا .

ففائدة السهر ، استمرار عمل القلب ، وارتقاء المنازل العلية ، المخزونة عند الله تعالى .

وحال السهر تعمير الوقت ، خاصة للسالك ، وأما مقامه فمقام القيومية وربما منع بعض أصحابنا أن يتحقق أحد بالقيومية ، وبعضهم منع من التخلق بها ، لقيت أبا عبد الله بن الجيد ، فوجدته يمنع من ذلك ، وأما نحن فقد أعطتنا الحقائق أن الإنسان الكامل لايبقى له اسم فى حضرة إلهية إلا وهو حامل له ، ومن توقف من أصحابنا فى مثل هذه المسألة ، فلعدم معرفته بما هو الإنسان فى حقيقته ومنشئه ، فلو عرف نفسه ماعسر عليه مثل هذا . والسهر يورث معرفة النفس .

وقد أوضح الشيخ الأكبر أسرارا أخرى للسهر إذا اقترن بالصمت والخلوة والجوع ، تعتبر من خواص الأسرار الكامنة فى الإنسان الكامل حيث يقول فى المصدر السابق .

« المعرفة تدور على تحصيل هذه الأربعة : معرفة الله تعالى ، والنفس والدنيا والشيطان . فإذا اعتزل الإنسان عن الخلوة ، وعن نفسه ، وصمت عن ذكره بذكر ربه إياه ، وأعرض عن الغذاء الجسمانى ، وسهر عند موافقة نوم النائمين ، واجتمعت فيه هذه الخصال الأربعة ، بدلت بشريته ملكا ، وعبوديته سيادة ، وعقله حسا ، وغيبه شهادة ، وباطنه ظاهرا ، وإذا رحل عن موضع بدله فيه حقيقة روحانية يجتمع إليها أرواح أهل ذلك الموطن الذى رحل عنه ذلك الولى ، فإن ظهر شوق عن أناس ذلك

الموطن شديد لهذا الشخص ، تجسدت لهم تلك الحقيقة الروحانية التى تركها بدله ، فكلمها وكلمته ، وهو يتخيل أنه مطلوبه ، وهو غائب عنه ، حتى يقضى حاجته منه ، وقد تتجسد هذه الروحانية إن كان من صاحبها شوق أو تعلق همة بذلك الموطن .

وقد يكون ذلك من غير البدل ، والفرق بينهما : أن البدل يرحل ، ويعلم أنه ترك بدله ، وغير البدل لا يعرف ذلك وإن تركه ، لأنه لم يحكم هذه الأربعة الأركان .

الحكم الشرعى لقيام الليل :

قال العارف بالله الشيخ عبد الله الشرقاوى رضى الله عنه فى ربيع الفؤاد : هو كالواجب عند العارفين ، ولا يلزمون ، إلا مريديهم وقال سيدى عمر الشبراوى رضى الله عنه فى مفتاح المريدين ، يستحب للمريد أن يواظب عليه .

وروى ابن الملقن فى الخصائص عن الشافعى رضى الله عنه ، أن الوجوب نسخ فى حق النبى صلى الله عليه وسلم وحق أمته ، وبه قال النووى وابن الصلاح رضى الله عنهما .

وقيل إن المنسوخ من صلاة الليل ما كان مقدرا ، أما أصل الوجوب فهو باق ، لقوله تعالى : (اقرأوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، هو خيرا وأعظم أجرا ، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) .

وهذا بناء على أن المراد بالقراءة الصلاة ، فسماها ببعض أجزائها فتكون الآية كقوله تعالى : « فما استيسر من الهدى » فلا بد من الهدى ، فكذلك لابد من صلاة الليل .

وبه أخذ العارفون من الصوفية جميعا .

وحكى النووى فى شرح مسلم ، فى باب صلاة الليل ، عن بعض السلف ، أنه يجب على الأمة من قيام الليل ما يقع عليه مدسم ، ولو مقدار حلب شاة ، وتعقبه القائلون بعدم الوجوب .

وعلى أى حال فقيام الليل من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم من فضله قليل من كثير ، ودلت الدراسات الحديثة على أنه تقويم للعضو العامل فى المجتمع ، وعلاج لانحرافه .

كيف تقوم الليل ؟ :

إذا صحوت من نومك ، فليكن أول عمل من أعمالك ، أن تقول بحضور وخشوع : « لا إله إلا الله محمد رسول الله . أنا فى جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ثم استعد لقيام الليل على النهج التالى ، بعد الوضوء :

١ — تصلى ركعتين سنة الوضوء ، تقرأ فى الأولى بعد الفاتحة « قل يا أيها الكافرون » وفى الثانية الإخلاص .

٢ — تصلى ركعتين سنة الغافلة ، تقرأ فيهما بعد الفاتحة (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا .. إلى إلا قليلا) .

٣ — تصلى ثمانى ركعات مثنى مثنى ، تقرأ فى الأولى من كل منهما بعد الفاتحة « القدر » وفى الثانية « الكافرون » .

٤ — تصلى ثلاث ركعات كالمغرب ، تقرأ فى الأولى بعد الفاتحة « سبح اسم ربك الأعلى » وفى الثانية « الكافرون » وفى الثالثة « الإخلاص والمعوذتين »(١) .

---

(١) كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الليل أنواعا :
١ — ست ركعات مفصولات ، ويوتر بثلاث ، رواه ابن عباس
٢ — إحدى عشرة ركعة مفصولات ، ويوتر بخمس لا يجلس إلا فى آخرها =

وبعد إتمام قيام الليل :

١ — استغفر الله تعالى (مائة مرة) والاستغفار وإن كان مطلوبا فى كل وقت إلا أنه آكد فى هذا الوقت (وبالأسحارهم يستغفرون) .

٢ — صل على النبى صلى الله عليه وسلم بأى صيغة (مائة مرة) والأفضل الصيغة الكمالية ، وهى : « اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله عدد كمال الله ، وكما يليق بكماله » .

٣ — أنعم بمناجاة ربك بعد ذلك ، حيث تكون قد بلغت قلب السحر وقت الإجابة والرحمة ، ومن أصدق من الله حديثا .

ولتكن مناجاتك لربك بتلك القطعة الفنية الرائعة من روائع الأدب الصوفى المجيد ، ألا وهو « ورد السحر » لإمام أهل الأذواق سيدى مصطفى البكرى رضى الله عنه ، العارف الذى تخرج على يديه فى الطريق : شيخ الإسلام سيدى محمـــد بن سالم الحفنى رضى الله عنه ، وتخرج على طريقه كبار علماء مصر فى الجيل الماضى ، ومنهم : شيخ الإسلام سيدى عبد الله الشرقاوى ، والعارف الشيخ محمود الكردى ، وشيخ الإسلام الدمهوجى ، والعارف الكبير سيدى عمر الشبراوى ، وسيدى عبد الخالق الشبراوى ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وقد شرح ورده هذا فى مجلد كبير لازال مخطوطا فى دار الكتب المصرية جمع فيه غرائب الأسرار التى يهبها الله لمن يناجيه بتلك المناجاة الرقيقة ،

= ٣ — تسع ركعات لايجلس فيها إلا فى الثامنة ، ثم ينهض ولا يسلم ويصلى التاسعة ، ويسلم ويصلى ركعتين بعد مايسلم

٤ — تسع ركعات كالسابقة ثم يصلى بعدها ركعتين وركعتين جالسا ، ويوتر بثلاث موصولة

٥ — أربع ركعات فى رواية (راجع خصائص النبى لسراج الدين بن الملقن . مخطوط بدار الكتب المصرية)

واستدل لها بأدلة وافية من الشرع الحنيف كما سجل أسرار الطريق إلى الله بعلمه الغامر ، وروحه الرقيقة .

وقد شرحه كذلك سيدنا الشرقاوى رضى الله عنه فى سفر مطبوع .

وشرحه كذلك العارف الأكبر سيدى عمر الشبراوى فى سفر مطبوع أيضا

وهذا هو الورد الذى يقرأ بعد قيام الليل ، والاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

ورد السحر :

« تبق على فرش صلاتك متجها للقبلة ، وتسكن بجوارحك ، وتزيح عن عقلك ونفسك كل خاطر أيا كان نوعه ، ثم اقرأ بلا تعمل ولا تصنع » :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين . . . . الفاتحة .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الم . ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة . ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ورحمة وأولئك هم المفلحون .

وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم له مافى السموات ومافى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم . لاإكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم . الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . لايكلف الله نفسا إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فان تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم (٣ مرات) .

قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (٣ مرات) .

قل أعوذ برب الفلق . من شر ماخلق . ومن شر غاسق إذا وقب . ومن شر النفاثات فى العقد . ومن شر حاسد إذا احسد .

قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس .

أستغفر الله (٧٠ مرة) .

أستغفر الله العظيم ، الذى لا إله إلا هو ، الحى القيوم ، بديع السموات والأرض ، من جميع جرمى وظلمى ، وما جنيت على نفسى ، وأتوب إليه (٣ مرات) .

بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

بسم الله الرحمن الرحيم

إلهى : أنت المدعو بكل آن ، والمقصود فى كل آن .

إلهى : أنت قلت : ادعونى أستجب لكم ، فها نحن متوجهون إليك

بكليتنا ، فلا تردنا ، واستجب لنا كما وعدتنا .

إلهى : أين المعز منك وأنت المحيط بالأكوان ، وكيف البراح عنك ، وأنت الذى قيدتنا بلطائف الإحسان .

إلهى : إنى أخاف أن تعذبنى بأفضل أعمالى ، فكيف لا أخاف من عقابك بأسوأ أحوالى .

إلهى : بحق جمالك الذى فتنت به أكباد المحبين . وبجلالك الذى تحيرت فى عظمته ألباب العارفين .

إلهى : بحق حقيقتك التى لا تدركها الحقائق ، وبسر سرك الذى لا تفى بالإفصاح عن حقيقته الرقائق .

إلهى : بروح القدس قدس سرائرنا ، وبروح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خلص معارفنا ، وبروح أبينا آدم اجعل أرواحنا سابحات فى عالم الجبروت ، واكشف لهم عن حقائق اللاهوت .

إلهى : بالنور المحمدى الذى رفعت على كل رفيع مقامه ، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك أعلامه ، افتح لنا فتحا صمدانيا ، وعلما ربانيا ، وتجليا رحمانيا ، وفيضا إحسانيا .

إلهى : تولنى بالهداية والرعاية والحماية والكفاية .

إلهى : تب على توبة نصوحا لا أنقض عهدها أبدا ، واحفظنى فى ذلك لأكون بها من جملة السعدا .

إلهى : ثبتنى لحمل أسرارك القدسية ، وقونى بإمداد من عندك حتى أسير به إلى حضراتك العلية . وثبت اللهم قدمى على صراطك المستقيم ، وطريقك القديم .

إلهى : جلا لنا هذا الظلام عن جلالك أستارا ، وأفصح الصبح عن بديع جمالك ، وبذلك استنارا .

إلهى : جملنى بالأوصاف الملكية ، والأفعال المرضية .

إلهى : حــــلا لنا ذكرك فى الأسحار ، وحسن تخضعنا على أعتابك ياعزيز ياجبار .

إلهى : حل بينى و بين من يشغلنى عن شغلى بمناجاتك ، وأفض على من الأسرار التى خبأتها فى منيع سرادقاتك .

إلهى : حل لنا إزار الأسرار عن علوم الأنوار .

إلهى : خطفت عقول العشاق بما أشهدتهم من سناء أنوارك ، مع وجود أستارك ، فكيف لو كشفت لهم عن بديع جمالك ، ورفيع جلالك .

إلهى : حضنى بمددك السبوحى ليحيا بذلك لبى وروحى .

إلهى : داونى بدواء من عندك ، كى يشتفى به ألمى القلبى ، وأصلح منى يامولاى ظاهرى ولبى .

إلهى : دلنى على من يدلنى عليك ، وأوصلنى إلى من يوصلنى إليك .

إلهى : ذابت قلوب العشاق من فرط الغرام أقلقهم إليك شديد الوجد والهيام ، فتعطف عليهم ياعطوف يارءوف ياألله . يارحمن . يارحيم .

إلهى : رقق حجاب بشريتى بلطائف إسعاف من عندك ، لأشهد ماانطوت عليه من عجائب قدسك .

إلهى : ردنى برداء من عندك ، حتى أحتجب به عن وصول أيدى الأعداء إلى

إلهى : زين ظاهرى بامتثال ماأمرتنى به ، ونهيتنى عنه ، وزين سرى بالأسرار ، وعن الأغيار فصنه .

إلهى : سلمنا من كل الأسوا ، واكفنا من جميع البلوى ، وطهر أسرارنا من الشكوى ، وألسنتنا من الدعوى .

إلهى : شرف مسامعنا فى خطابك ، وفهمنا أسرار كتابك ، وقربنا من أعتابك ، وامنحنا من لذيذ شرابك .

إلهى : صرفنا فى عوالم الملك والملكوت ، وهيئنا لقبول أسرار الجبروت ، وأفض علينا من رقائق دقائق اللاهوت .

إلهى : ضربت أعناق الطالبين دون الوصول إلى حضراتك العلية ، وتلذذوا بذلك ، فطابوا بعيشتهم المرضية .

إلهى : طهر سريرتى من كل شيء يبعدنى عن حضراتك ، ويقطعنى عن لذيذ مواصلاتك .

إلهى : ظمؤنا إلى شرب حماك لايخفى ، ولهيب قلوبنا إلى مشاهدة جمالك لايطفا .

إلهى : عرفنى حقائق أسمائك الحسنى ، وأطلعنى على رقائق دقائق معارفك الحسنا ، وأشهدنى خفى تجليات صفاتك ، وكنوز أسرار ذاتك ،

إلهى : غناك مطلق ، وغنانا مقيد ، فنسألك بغناك المطلق أن تغنينا بك غنى لافقر بعده إلا إليك ، ياغنى ياحميد ، يامبدىء يامعيد ، يارحيم ياودود ياألله يارحمن يارحيم .

إلهى : فتحت أقفال قلوب أهل الاختصاص ، وخلصتهم من قيـــد الأقفاص ، نخلص سرائرنا من التعلق بملاحظة سواك وأفننا عن شهود نفوسنا ، حتى لانشهد إلا علاك .

إلهى : قد جئناك بجمعنا ، متوسلين إليك فى غفران ذنوبنا ، فلا تردنا .

إلهى : كفانا شرفا أنناخدام حضراتك ، وعبيد لعظيم رفيع ذاتك .

إلهى : لو أردنا الإعراض عنك ماوجدنا لنا سواك ، فكيف بعد ذلك نعرض عنك .

إلهى : لذنا بجنـابك خاضعـين ، وعلى أعتابك واقعين ، فلا تردنا ياعلى ياحكيم .

إلهى : محص ذنوبنا بظهور آثار اسمك الغفار ، وامح من ديوان الأشقياء شقينا ، واكتبه عندك فى ديوان الأخيار .

إلهى : نحن الأسارى فمن قيودنا فأطلقنا ، ونحن العبيد فمن سواك فخلصنا وأعتقنا ، يا سند المستندين ، ويارجاء المستجيرين ، إلهنا وإله كل مألوه ،

ورب كل مربوب ، وسيد كل ذى سيادة وغاية مطلب كل طالب ، نسألك بأهل عنايتك الذين اختطفتهم يد جذباتك . وأدهشتهم سناء تجلياتك . فتاهوا بعجيب كمالاتك ، أن تسقينا شربة من صافى شراب أهل مودتك الربانيون ، وعرائس أهل حضرتك الذين هم فى جمالك مهيمون .

إلهى : هذه أويقات تجلياتك ، ومحل تنزلاتك ، ونحن عبيدك الواقفون على أعتابك ، الخاضعون لعزة جنابك ، الطامعون فى سنى بهى شرابك ، فلا تردنا على أعقابنا خائبين ، بعد ماقصدناك متذللين ، ياألله ، يارحمن يارحيم

اللهم لا نقصد إلا إياك ، ولانتشوق إلا لشرب شرابك وبديع حمياك

اللهم يا واصل المنقطعين أوصلنا إليك ، ولا تقطعنا بالأغيار عنك ، برحمتك ياأرحم الراحمن يا ألله (٦٦ مرة) يا واجد (١٤ مرة)

ياماجد ، ياواحد ، يا أحد ، لا إله إلا أنت ، برحمتك نستغيث فأغثنا .

يامغيث أغثنا (٣ مرات) الغوث الغوث من مقتك وطردك وبعدك .

يامجير أجرنا (٣ مرات) .

من خزيك وعقابك ، ومن شر عبادك أجمعين ، يالطيف الطف بنا بلطفك .

يالطيف (١٢٩ مرة) .

(الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز) (١٠ مرات)

اللهم يالطيفا بخلقه ، يا عليما بخلقه ، ياخبيرا بخلقه ، الطف بنا يالطيف ياعليم ياخبير . (٣ مرات)

يالطيف عاملنا بخفى وفى بهى سنى على لطفك ، ياكافى المهمات والملمات اكفنا ماأهمنا ، والحاضرين والغائبين والمنتقلين من إخواننا هموم الدنيا والآخرة ، ياكريم ياألله يارحمن يارحيم .

اللهم أسكن ودك فى قلوبنا ، وودنا فى قلوب أحبابك المصطفين ، وأهل جنابك المقربين آمين . ياودود (١٠٠ مرة)

يا ذا العرش المجيد ، يا فعالا لما يريد ، نسألك بحبك السابق فى يحبهم ، ويحبنا اللاحق فى يحبونه ، أن تجعل محبتك العظمى ، وودك الأسمى ، شعارنا ودثارنا ، يا حبيب المحبين ، يا أنيس المنقطعين ، ياجليس الذاكرين ، يامن هو عند قلوب المنكسرين ، أدم لنا شهودك أجمعين .

ياغنى أنت الغنى وأنا الفقير ، من للفقير سواك .
ياقوى أنت القوى ، وأنا الضعيف ، من للضعيف سواك .
ياقادر أنت القادر ، وأنا العاجز . من للعاجز سواك .
لا إله إلا الله محمد رسول الله (٣ مرات) .

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، وأزواجه ، وذريته ، وآل بيته ، بكرة وأصيلا ، وصل وسلم اللهم عليه ، وعلى أبيه ابراهيم خليلك ، وداود خليفتك وموسى كليمك ، وعيسى روحك ، واسحق ذبيحك ، وعلى جميع إخوانهم من الأنبياء والمرسلين ، والحمد لله رب العالمين :

إلهى بأهل الذكر والمشهد الأسمى ... بمن عرفوا فيك المظاهر بالأسما
بنور بدا فى غيهب الوهم فانجلى الظـــلام وذاك النور ماخلفه مرمى
بسر مقامات تجـــل لعظمها ... عن الوصف إذ فى وصفها حير الفهما
بكل خليل قد خلا عن شوائب ... وكل جليل قد جلا نور الظلما
بعرش بفرش بالسموات بالعلا ... بما قد حوى قلب المحقق من رحمى
بأسرارك اللائى سترن جمالها ... فلم يرها إلا فتى فى الهوى تما
ببدر أتى يهدى الأنام لحيــكم ... فكم فاز بالخيرات من ركبه أما
بأهل الغنا والسكر والصحو والبقا ... بكل محب فى محبتكم هما
بكل مريد طـــالب لجنابكم ... فلم يعرف الأحزان فيكم ولا الهما
دعوناك والأحشاء يبدو لهيبها ... وعيناى جادا فى دموع كما الدما
وصبرى تقضى وانقضى العمر راحلا ... وحبك يا مولاى قلبى قد أصمى
إلهى بأهل الانكسار وحقهم ... ومن بك قد نالوا المقام المعظما
ومن أطلقوا الأكوان حبى واطلقوا ... المنام ولم يشكو لزاد ولا ظما

ومن مرغوا للخد فى ترب أرضكم — ومن بالهوى للسقم فى الحال أسقما
عبيد ولكن الملوك عبيدهم — وعبدهم أضحى له الكون خادما
إلهى بهم أدعوك ياسيد الورى — بمن يتجلى القرب ياحب أنجما
تقبل وجد واعف وسامح لمغرم — وتب وتحنن ياإلهى تكرما
لعبد غدا يسمى بحبك مصطفى — خليع عذار فى المحبة حكما
وأتباعه والسالكين طريقه — وكل الورى من فضل ذاتك عما
وصل وسلم سيدى كل لمحة — على المصطفى من بالمعارج أكرما
ونال دنوا لايضاهى ورفعة — وبعد اختراق الحجب للرب كلما
وشاهد مولاه العظيم جلاله — وصلى عليه الله منا وسلما
وأرسله يدعو البرايا لقربه — وخصصه فى الكون أن يتقدما
وآل وأصحاب ليوث ضوارى — ولا سيما الصديق من فيه هيما
وفاروقه عثمان ثم ابن عمه — وأولاده السادات ثم من انتمى
وأتباعه والناهجين سبيله — مدى الدهر ماهب الصبا وتنسما

اللهم صل وسلم وبارك على من تشرفت به جميع الأكوان
وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد الذى أظهرت به معالم العرفان
وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، الذى أوضح دقائق القرآن
وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد عين الأعيان ، والسبب فى وجود كل إنسان

وصل وسلم وبارك على من شيد أركان الشريعة للعالمين ، وأوضح أفعال الطريقة للسائرين ، ورمز فى علوم الحقيقة للعارفين ، فصل وسلم اللهم عليه، صلاة تليق بجنابه الشريف ومقامه المنيف وسلم تسليما دائما ياألله يارحمن يارحيم

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الذى زين مقاصير القلوب ، وأظهر سرائر الغيوب ، باب كل طالب ودليل كل محجوب ، فصل وسلم اللهم عليه ماطلعت شمس الأكوان على الوجود وصل وسلم وبارك على من أفاض علينا بإمداده سحائب الجود ، يا ألله يارحمن يارحيم .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، صـــلاة تدنى بعيدنا إلى الحضرات الربانية ، وتذهب بقريبنا إلى مالانهاية له من المقامات الإحسانية فصل وسلم اللهم عليه صلاة تنشرح بها الصدور ، وتهون بهـا الأمور ، وتنكشف بها الستور ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين آمين .

دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

ثم اقرأ الفاتحة ، واهد ثوابها إلى حضرة النبي صلى الله عليه وسلم

ثم الفاتحة لآل بيته الكرام ، ومنشىء هذا الورد

ثم الفاتحة لأستاذك ومرشدك فى الطريق ، وإن لم يكن لك مرشد فلأهل الإرشاد جميعا

ثم ابدأ فى قراءة « المنبهجة » :

قم نحو حمـــاه وابتهج	وعلى ذاك المحيا فعج
ودع الأكوان وقم غسقا	واصدق فى الشوق وفى اللهج
والزم باب الأستاذ تفز	وتكون بذلك خل بجى
واخرج عن كل هوى أبدا	ودع التلفيق مع الهرج
إياك أخى ترافق من	لم ينهك عن طرق العوج
اقنع وازهد واذكره كذا	ك بباب سـواه لا تلج
وادخل للحان خليل ومل	نحو الخمار أبى السرج
واشرب واطرب لاتخش سوى	إياك تمل عن ذا النهج
كم أنت كذا لم تصح أفق	وإلى الأبواب فقم ولج
مولاى أتيتك منكسرا	ولغـيرك شوقى لم يهج
وأتيت إليـك خليا من	صومى وصلاتى مع حججى
وكذا علمى وكذا عملى	وكذاك دليلى مع حججى
لا أملك شيئا غير الدمع	مخافة أن يغشى وهجى

هل غير جنابك يقصد لا وجمالك ذى الحسن البهج
من يقصد غيرك فهو إذن بظلام البعد تراه فجى
من أنت تضل فذاك من الهلاك ومن تهدى فنجى
ودموع العين تسابقنى من خوفك تجرى كاللجج
يا عاذل قلبى ويك فدع عذلى واقصر عن ذا الحرج
كم تعذلنى ، لم تعذرنى دعنى فى البسط وفى الفرج
أذنى لحبيبى صاغية صمت عند الواشى السمج
يا صاحب حان الخمر أدر صرفا واترك للممتزج
وأدر كأس الأسرار ودعن أصير به من ذى الهمج

مولاى بسر الجمع كذا ك وجمع الجمع وكل شجى
بالذات بسر السر بمن إفضالك ربى منك رجى
بحقيقتك العظمى ربى وبنور النور المنبلج
بعماء كنت به أزلا بمحمد من جا بالبلج
وبسر القرب كذاك الحب وأهل الجذب المنعرج
وبما أوجدت من الأكوا ن بما فيهن من الأرج
وبأهل الحى وبهجتهم وبحر القدرة والمرج
وبطيب الوصل ولذته ببساط الأنس المنتسج
وبقلب فى بلواك غدا وحياتك ليس بمنزعج
بتجلى الليل وعالمه وظلام الكون كما السبج
بمنازك أفلاك وكذا بمطالعها ثم البرج
بالآل بصحب من ربهم كل الخيرات إلينا تجى
يسر واجبر كسرى برضا ليكون بوصلك مبتهجى (٣)
وامنح قلبى نفحاتك يا مولاى وعجل بالفرج (٣)
واحسرة قلبى إن لم تمح خطايا الذنب من الدرج (٣)
واغفر يارب لناظمها وله رقى أعلا الدرج (٣)

واسمح للسامع ما نشدت | قم نحو حماه وابتهج
أو ما حاد سحراً يحدو | الشدة أودت بالمهج
وصلاة الله على الهادى | وسلام يهدى فى الحجج
لمحمدنا ولأحمدنا | ما فاح إقاح فى المرج
وعلى الصديق خليفته | وكذا الفاروق وكل نجى
وعلى عثمان شهيد الدا | ر وفا فسما أعلا الدرج
وأبى الحسنين مع الأولا | د كذا الأزواج وكل شجى
وعلى المهدى وعترته | المشبع فى زمن الوأج
وعلى من مهد الأرضـ | ـين كما قد برح فى الحج
ما حال محب نحوهم | أو سار الركب على السرج
أو ما داع يدعو المولى | يدعو للنصر مع الفرج

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد فى الأولين ، وصل وسلم على سيدنا محمد فى الآخرين ، وصل وسلم على سيدنا محمد فى كل وقت وحين ، وصل وسلم على سيدنا محمد فى الملأ الأعلى إلى يوم الدين ، وصل وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين ، وعلى الملائكة المقربين ، من أهل السموات وأهل الأرضين .

ورضى الله تبارك وتعالى عن ساداتنا ذوى القدر العلى ، أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، وعن سائر أصحاب رسول الله أجمعين ، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، واحشرنا وارحمنا معهم برحمتك ياأرحم الراحمين يا ألله ، ياحى ياقيوم لا إله إلا أنت يا ألله ، ياربنا ياواسع المغفرة يا أرحم الراحمين اللهم آمين .

* * *

ومن السنة ألا ينام الإنسان عقب قيام الليل ، ويستحب أن يقضى هذا الوقت فى ذكر الله بأى اسم شاء ، إلا إن كان داخلا تحت إرشاد شيخ ، فإنه يذكر بما لقنه إياه شيخه .

ومن الأذكار الواردة شرعا :

قراءة القرآن الكريم (إن قرآن الفجر كان مشهوداً)

الاستغفار (والمستغفرين بالأسحار)

وأفضل الذكر : « لا إله إلا الله » .

صلاة التسابيح

دليلها :

حديث ابن عباس ، الذى سنذكره فيما بعد ، وقد أخرجه البخارى فى القراءة خلف الإمام وهو اسم كتاب له ، وأبو داود ، وابن ماجه وابن خزيمة فى صحيحه ، والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الدعوات ، وابن راهويه والطبرانى فى الأوسط والكبير والدارقطنى وابن أبى الدنيا وابن شاهين فى ترغيبه ، وغيرهم .

وأجمع هؤلاء الأئمة على أنه حديث حسن غريب ، ومنهم من صححه ومنهم من حسنه .

والقول بضعفه ، كما مشى عليه النووى فى شرح المهذب وفى الأذكار ، أو بوضعه كما عليه ابن الجوزى ، وابن تيمية ، وابن عبد الهادى مردود .

قال المحب الطبرى : أخطأ ابن الجوزى بذكره له فى الموضوعات ، ولم يكن له ذلك ، وقد خرجه الحفاظ فى كتبهم .

وقال الحافظ ابن حجر : أساء بذكره إياه فى الموضوعات .

وقال السيوطى : فى اللآلىء المصنوعة ، رداً على ابن الجوزى : وأشهد بالله ولله ، أن حديث صلاة التسبيح صحيح .

وقال الديلمى فى مسند الفردوس : صلاة التسبيح أشهر الصلوات ، وأصحها إسنادا .

وقال الدارقطنى : أصح شىء فى فضائل السور فضل (قل هو الله أحد) وأصح شىء فى فضائل الصلوات : فضل صلاة التسبيح .

وقال الحافظ صلاح الدين العلائى ، فى أجوبته عن الأحاديث التى انتقدها السراج القزوينى ، على المصابيح : حديث صلاة التسبيح حديث صحيح ، أوحسن ولابد .

وقال سراج الدين البلقينى ، فى التدريب : حديث صلاة التسبيح صحيح وله طرق يشد بعضها بعضا ومن صحح حديثها أوحسنه بن منده ، وألف فيه كتابا . والآجرى ، والخطيب ، وأبو سعيد السمعانى وأبوموسى المدينى وأبو الحسن بن المفضل ، والمنذرى وابن الصلاح ، والزركشى ، والنووى فى تهذيب الأسماء واللغات ، والتقى السبكى ، وولده التاج ، وآخرون .

وفى الترغيب للمنذرى ، روى هذا الحديث ، من طرق كثيرة ، وعن جماعة من الصحابة ، وأمثلها حديث عكرمة عن ابن عباس ، وقد صححه جماعة منهم الحافظ أبو بكر الآجرى ، والشيخ أبو محمد عبد الرحيم المصرى والحافظ أبو الحسن المقدسى رحمهم الله .

ونقل عن البيهقى قال: كان عبدالله بن المبارك يفعلها، وتداولها الصالحون بعضهم من بعض ، وفيه تقوية للحديث المرفوع .

وممن رواه من الصحابة غير ابن عباس ، الفضل بن عباس ، أخرجه أبو نعيم فى « قربان المتقين » وأبوه العباس بن عبد المطلب ، أخرجه الدارقطنى فى الأفراد ، وابن شاهين فى الترغيب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه أبو داود والدارقطنى وابن شاهين فى الترغيب ، وعبد الله ابن عمر بن الخطاب ، أخرجه الحاكم فى المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد لاغبار عليه ، وتعقبه عليه الذهبى فى التلخيص ، وأبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخرجه الترمذى وقال : غريب من حديث أبى رافع ، وابن ماجه ، والدارقطنى ، والبيهقى . وأبو نعيم فى القربان ، وعلى ابن أبى طالب ،

أخرجه الدارقطنى ، والواحدى فى الدعوات ، وأخوه جعفر بن أبى طالب أخرجه الدارقطنى . وسعيد بن منصور فى السنن ، والخطيب فى كتاب صلاة التسبيح ، وعبد الرازق وابنه عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، أخرجه الدارقطنى . وأم المؤمنين أم سلمة ، أخرجه أبو نعيم الأنصارى .

وقال البيهقى : أقدم من روى عنه فعلها أبو الجوزاء أوس بن عبد الله البصرى ، وهو من ثقات التابعين ، أخرجه الدارقطنى ، بسند حسن ، أنه كان إذا نوى بالظهر أتى المسجد ، فيقول للمؤذن : لاتعجلنى عن ركعاتى ، فيصليها بين الأذان والإقامة .

فضائلها :

قال عبد العزيز بن أبى رواد ، وهو أقدم من ابن المبارك : من أراد الجنة فعليه بصلاة التسبيح .

وقال أبو عثمان الحيرى الزاهد : مارأيت للشدائد والغموم مثل صلاة التسبيح .

وقال الترمذى : قد روى ابن المبارك ، وغير واحد من أهل العلم ، صلاة التسبيح ، وذكروا الفضل فيها .

وقال أبو طالب المكى فى القوت : وكان الصالحون يصلونها ، ويتعرفون بركتها ، ويتذاكرون فضلها .

وقال البلقينى : هى سنة ينبغى العمل بها .

وقال التقى السبكى : هى من مهمات الأمور فى مسائل الدين .

استحضار معانى التسبيح :

قال سيدى عمر الشبراوي قدس الله روحه فى « مفتاح المريدين » .

« ينبغي لكل من سبح الله تعالى بلسانه أن يسبحه بحاله وقاله ، فمن تحقق بالعبودية ، فقد نزه حضرة الربوبية ، ومن تلبس بالذل بين يديه فقد نزه حضرة عزته ، ومن سلم الأمر إليه تعالى فى الحركات والسكنات ، فقد نزه حضرة قهره ، ومن شهد جهله فقد نزه حضرة علمه ، ومن شهد عجزه وعجز الخلائق ، فقد نزه حضرة اقتداره ، ومن تحقق بالافتقار فقد نزه حضرة كبريائه ، ومن احتقر ما احتقره الله ، وعظم ماعظم الله ، فقد نزه حضرة عظيمته ، ومن شهد أن كل شيء غير الله هالك ، فقد نزه حضرة بقائه .

فمن تحقق بذلك ، وأشهده الله هذه المقامات ، فهو المسبح حقيقة ، ومن عجز عن ذلك سبح على حسب طاقته ، ويستغفر الله تعالى ، ويقرع بابه ، لعله يشهد هذه المقامات .

كيفيتها :

فى حديث ابن عباس رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس بن عبد المطلب : « ياعباس . ألا أعطيك ؟ ألا أمنحك ألا أحبوك ! وفى رواية : ألا أخبرك بدل أحبوك ، ألا أفعل بك عشر خصال ؟ إذا أنت فعلت ذلك ، غفر الله ذنبك أوله وآخره ، وقديمه وحديثه ، وخطأه وعمده ، وصغيره وكبيره ، وسره وعلانيته ، عشر خصال أن تصلى أربع ركعات . تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة ، فإذا فرغت من القراءة فى أول ركعة ، فقل وأنت قائم : سبحان الله والحمد لله والله أكبر ، خمس عشرة مرة ، ثم تركع ، وتقولها عشر مرات ، وأنت راكع ، ثم ترفع رأسك من الركوع ، فتقولها عشرا ، ثم تهوى ساجداً ، فتقولها عشرا ، وأنت ساجد ، ثم ترفع رأسك من السجود ، فتقولها عشرا ، ثم تسجد ، فتقولها عشرا ، ثم ترفع رأسك من السجود ، فتقولها

عشراً ، فتلك خمس وسبعون فى كل ركعة ، تفعل ذلك فى أربع ركعات . إن استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل ، فإن لم تستطع ففى كل شهر مرة ، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة » .

أحكام عامة تتعلق بالكيفية :

١ — كان ابن المبارك يسبح قبل القراءة خمس عشرة مرة ، ثم بعد القراءة عشرا ، ولا يسبح بعد الرفع من السجدتين .

قال الدميرى : وجلالة ابن المبارك تمنع مخالفته ، وأنا أحب العمل بما تضمنه الحديث ، ولا يمنعنى من التسبيح بعد الرفع من السجدتين الفصل بين الرفع والقيام ، فإن جلسة الاستراحة حينئذ مشروعة ، فلا يستنكر الجلوس للتسبيح فى هذا المحل .

وينبغى للمتعبد أن يعمل بحـــديث ابن عباس تارة ، ويعمل ابن المبارك تارة .

٢ — يستحسن إن صلاها نهارا أن يصليها متصلة ، وإن صلاها ليلا صلاها بتسليمتين .

٣ — إن زاد فى التسبيح قوله « ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » فقد ورد ذلك فى بعض الروايات .

٤ — اختلف فى القراءة فيها ، فقال صاحب القوت ، أحب أن تكون السورة التى يقرأها فى صلاة التسبيح مع الجهد ، فوق العشرين آية ، فقد روينا فى حديث عبد الله بن جعفر ، الذى رواه اسماعيل بن رافع أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال فى السورة التى بعد أم القرآن « عشرون آية فصاعدا » قال صاحب القوت ، فإن قرأ مع الفاتحة « قل هو الله أحد » عشر مرات ، فقد ضاعف العدد ، واستكمل الأجر .

وقال صاحب الأجوبة الناصرية : إن تكرار سورة الإخلاص مكروه في الصلاة .

٥ - لا يسبح فى كل ركن ، حتى يستوفى ما يطلب منه من التسبيح والدعاء والذكر المعتاد فى الصلاة .

٦ - إذا عد التسبيح فيها جاز أن يعده بأصابعه ، ثم إن عده فى الركوع عده على ركبته ، وفى السجود عده على الأرض .

٧ - إذا جلس عقب السجدة الثانية فى الركعة الأولى ، جلس مكبرا ، ثم إذا نهض للركعة الثانية نهض بغير تكبير ، لأن التكبيرة التى يقوم بها هى التى جلس بها . وإذا جلس فى الركعة الثانية ، عقب السجدتين قدم التسبيح على التشهد .

٨ - إن سها لا يسبح فى سجود السهو ، كما أفاد ابن المبارك رضى الله عنه .

٩ - إن زاد شيئا من التسبيح ، فإن كان سهوا ، فلا شىء فيه وإن كان عمدا ، فهل يبطل ثواب الصلاة أو لا يبطل ، فيه خلاف .

والراجح بطلان ثواب الصلاة ، لما فى الأعداد الشرعية من أسرار وخواص .

١٠ - يستحب أن يدعو بالدعاء الوارد فيها ، بعد التشهد ، وهو مارواه أبو نعيم فى الحلية ، والطبرانى فى الأوسط ، من حديث ابن عباس ، ولفظه : فإذا فرغت قلت بعد التشهد ، وقبل التسليم :

« اللهم إنى أسألك توفيق أهل الهدى ، وأعمال أهل اليقين ، ومناصحة أهل التوبة ، وعزم أهل الصبر ، وجد أهل الخشية ، وطلب أهل الرغبة ، وتعبد أهل الورع ، وعرفان أهل العلم ، حتى أخافك . اللهم إنى أسألك مخافة تحجزنى بها عن معاصيك ، حتى أعمل بطاعتك عملا أستحق به رضاك وحتى أناصحك بالتوبة ، خوفا منك ، وحتى أخلص لك النصيحة حبا لك ، وحتى أتوكل عليك فى الأمور كلها ، حسن ظن بك ، سبحان خالق النور » .

صلوا عليه وسلموا تسليما

حكم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، شرعا :

ماكان للعلماء أن يختلفوا فى حكم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأمر الصريح بها فى القرآن الكريم ، ولعل الذى دفعهم إلى هذا الخلاف ، هو الحرص على تمييز الفروض من الواجبات ، اما أن يتطرق الخلاف إلى القول بندبها ، فذلك ما لا تسيغه العقول ، وما لا تقتضيه أدب المجاملة لنبي الرحمة صلى الله عليه وسلم ، وما لا يجوز القول به أمام حرص الله سبحانه وتعالى ، على إثابة عبيده ورحمته لهم ، من أجل نبي الرحمة المخصوص بالشفاعة والوسيلة ، والمقام المحمود .

أما مذاهب العلماء فى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فتنحصر فيما يلى:

أولا :

قال « ابن جرير الطبرى » وغيره : إنها مستحبة ، وادعى الإجماع على ذلك .

ورد عليه « ابن عساكر » فقال : لايسلم له قوله ، ولايسلم من الاعتراض ، لأنه ادعى الإجماع على ذلك ، وهو محل نزاع بين العلماء .

وأول بعضهم رأى «ابن جرير» بأن الاستحباب فيمازاد على المرة الواحدة

ثانيا :

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، واجبة فى الجملة بغير حصر ، لكن أقل ما يحصل به الإجزاء مرة .

وقال « ابن القصار » من المالكية : أن المشهور أنها واجبة فى الجملة ، ويفرض على الإنسان ، أن يأتى بها مرة فى عمره ، وبه قال القاضى « أبو محمد بن نصر » .

وقال الحافظ « ابن عبد البر » أجمع العلماء على أن الصلاة على النبي صلى

الله عليه وسلم ، فرض على كل مؤمن ، لقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

ثالثا :

تجب مرة فى العمر ، فى الصلاة المكتوبة ، أو فى غيرها ، وهى مثل كلمة التوحيد ، وهذا القول مروى عن « أبى حنيفة ، وأبى بكر الرازى ، ومالك ، والثورى ، والأوزاعى » لأن مطلق الأمر لا يقتضى تكرارا ، والماهية تحصل بمرة ، وبه قال « ابن حزم » .

وقال « ابن عطية ، والقرطبى » لاخلاف فى وجوبها مرة فى العمر ، ولا فى أنها واجبة فى كل حين وجوب السنن المؤكدة ، بحيث لا يسع تركها ولا يعقلها إلا من لاخير فيه .

رابعا :

تجب فى العقود آخر الصلاة ، بين التشهد وسلام الخروج من الصلاة ؛ لأن الآية لما نزلت كان النبى صلوات الله وسلامه عليه ، قد علم أصحابه كيفية السلام عليه فى التشهد ، والتشهد داخل فى الصلاة ، فسألوا عن كيفية الصلاة عليه ، فعلمهم ، فدل على أن المراد بذلك إيقاع الصلاة عليه فى التشهد ، بعد الفراغ من التشهد الذى سبق تعليمه لهم ، وإلى هذا ذهب «الشافعى والبيهقى» .

واعترض « أبو جعفر الطبرى ، وأبو الطحاوى ، وأبو بكر بن المنذر والخطابى » على أصل الوجوب فقط فى هذا الموضع ، أى فى القعود آخر الصلاة ، وكذا قال « ابن بطال ، والقاضى عياض » .

واعترض « الحافظ العراقى » على « القاضى عياض » بأنه حكى فى كتابه « الشفا » الخلاف فى طهارة دمه وبوله صلى الله عليه وسلم ، فكيف ينكر القول بوجوب الصلاة عليه ، وتابعه فى ذلك « الماوردى ، ومحمد بن كعب القرظى ، وأحمد بن حنبل ، فى إحدى روايتيه ، وأبو زرعة الدمشقى » .

خامسا :

تجب فى الصلاة ، من غير تعيين المحل ، وبه قال « أبو جعفر الباقر » .

سادسا :

يجب الإكثار منها ، من غير تقيد بعدد ولا وقت ، وبه قال « أبو بكر ابن بكير » من المالكية .

سابعا :

تجب كلما ذكر اسمه صلى الله عليه وسلم ، وبه قال « الطحاوى » وجماعة من الحنفية ، والحليمى ، وأبو حامد الإسفرايينى ، وجماعة من الشافعية .

وقال « ابن العربى » من المالكية : إنه الأحوط ، واستدل « الفاكهانى » للوجوب بحديث « البخيل من ذكرت عنده ، فلم يصل على » .

ونقل « ابن بشكوال » عن « محمد بن فرج » الفقيه ، أنه كان ينشد بيت « حسان بن ثابت » :

هجوت محمدا فأجبت عنه   وعند الله فى ذاك الجزاء

ويزيد فيه « صلى الله عليه وسلم » فيقال له : « ليس يتزن البيت هكذا » .

فيقول : « أنا لا أترك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم » .

ويعلق « ابن بشكوال » على ذلك بقوله : « رحمه الله ، لقد كان يعجبنى ما كان يفعله ، نفعه الله بنيته » .

ثامنا :

أجمع الصوفية رضى الله عنهم جميعا ، على وجوب التسابق إلى الصلاة عليه صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى أنها شيخ الشيوخ ، ومرشد من لا مرشد له ونور كل بصيرة ، وباعثه الوعى الروحى فى المزيد المؤمن الصادق ومفيضة الجمال على الأرواح ، ولطف فى أحوال الجلال ، وريحان القلوب ، وربيع الأفئدة ، وخير ساقه الله تعالى إلى العباد ، ولابد أن يسرعوا إليه حامدين الله ما أولاهم من نعمة يعتبر التفريط فيها بطرا .

ولم ينظروا إلى خلاف علماء الشريعة ، لأن مذهبهم قائم على عدم التفريط فى السنن والمندوبات والمستحبات إلا لضرورة ، ووجوب المسارعة إلى كل عمل يرجى منه القرب من الله تعالى والنعيم فى جواره ، وتحت غيث فيوضاته ، وفيض تجلياته ، دون نظر إلى ثواب ، ولا خوفا من عقاب ، لأنهم تحرروا من الخوف ، ونعموا فى جوار الحب الإلهى ، وتركوا للناس اختلافاتهم التى تنبع من معين الخوف . أو الرغبة فى اجتلاب الخير الدنيوى والأخروى .

النبى صلى الله عليه وسلم ، هو ممد الصوفية وراعيهم الرحيم ، ومن أجل ذلك لم تسكت ألسنتهم ، ولم تغفل قلوبهم عن الصلاة والسلام عليه فى كل حين ، فى أوقات فراغهم ، وفى خلواتهم .

وهم فى صلواتهم عليه ، صلى الله عليه وسلم ، يتوجهون إليه بكل مداركهم ، ويفنون عن الوجود كله ، ويتمثلونه بين أعينهم ، طلبا للإمداد الروحى ، وهو أمر مسلم فى العلم القديم والحديث ، بعد إثبات الطاقات والقوى والتيارات ، والسيلات الروحية ، وآثارها الإيجابية المسلم بها علما ودينا ، ونتائج توجيهها من الإنسان إلى الإنسان ، أو منه إلى بعض الأكوان ، لاتنكر عند أهل العلم والتجربة قديما وحديثا . والحسد والتنويم المغناطيسى أدلة على ذلك يعرفها العام والخاص .

وقد قرر العلماء صحة مايكون بين المتوجه والمتوجه إليه من الإمداد والإفاضة ، على نسبة منزلة المتوجه من المتوجه إليه ، وممن كتب فى ذلك ، العلامة « فخر الدين الرازى » فى كتابه « المطالب العالية » و « سعد الدين التفتازانى » فى « شرح المقاصد » و « الشريف الجرجانى » فى حاشية « المطالع » و « ابن مفلح المقدسى » الحنبلى ، فى « الآداب الشرعية » والشيخ « محمد نجيب المطيعى » فى مقدمته لكتاب « شفاء السقام » للسبكى - وغيرهم أكثر من أن يحصوا . وللصوفية صلوات تعتبر آية من آيات الفن الأدبى الرفيع ،

وذروة من ذرى التحقيق الرائع ، نذكر منها « الصلوات الإدريسية » و « الصلوات الكتانية » التي تستفيض الإمداد من جوارح الرسول صلى الله عليه وسلم .

الله وملائكته يصلون عليه :

(إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) .

فى الآية اخبار من الله تعالى ، بمنزلة رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، عنده فى الملأ الأعلى ، وبأن الملائكة يصلون عليه ، وأمر للعالم السفلى بالصلاة والسلام عليه ، ليكون الثناء عليه من العالمين العلوى والسفلى جميعا ، تنبيها على علو قدره ، وسمو مكانته ، وعظمة شأنه فى العالمين .

وذكر الله تعالى الصلاة بلفظ « المضارعة » تنبيها على استمرار صلاة الله تعالى عليه وملائكته ، ودوامها وأنها لا تنقطع .

فإذا كان غاية مطلوب العالمين من الله تعالى ، أن يصلى عليهم مرة واحدة ، فكيف بمن لا تنقطع الصلاة عليه من الله تعالى ، وملائكته الكرام ، صلى الله عليه وسلم .

وهل يجمل بمؤمن بعد ذلك ألا يقتدى بربه وبملائكته ، فى كثرة الصلاة عليه ودوامها ؟ وما الظن بالغافل عنها بعد ذلك ؟

وروى « الواحدى » عن « أبى عثمان الواعظ » عن الإمام « سهل بن محمد » سماعا ، أنه قال : هذا التشريف الذى شرف الله تعالى به محمدا صلى الله عليه وسلم ، بقوله : (إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) . أتم وأجمع من تشريف الله تعالى لآدم ،

عليه السلام ، بأمر الملائكة بالسجود له ، لأنه لايجوز أن يكون الله تعالى ساجدا مع ملائكته لآدم ، تشريفا له ، وقد أخبر سبحانه عن نفسه ، بأنه يصلى على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وبأن الملائكة يصلون عليه كذلك . فتشريف يصدر عنه تعالى ، أبلغ من تشريف يصدر عن الملائكة وحدهم من غير أن يكون الله تعالى معهم .

وحكى « القاضى عياض » فى « الشفا » عن « أبى بكر بن فورك » أن بعض العلماء تناول قوله عليه الصلاة والسلام : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » فقرر أن المراد ، أن قرة عينه صلى الله عليه وسلم ، فى صلاة الله عليه وملائكته ، وأمر الأمة بذلك إلى يوم القيامة ، فتكون الألف واللام واقعة على معهود .

وللقاضى عياض رأى آخر ، هو أنها الصلاة المشروعة المعهودة ، لما فيها من المناجاة ، وكشف المعاريج وشرح الصدور .

وذكر « الواحدى » عن « الأصمعى » قال : سمعت المهدى ، على منبر البصرة ، يقول : « إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه ، ثم ثنى بملائكة قدسه ، فقال تشريفا لنبيه : (إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » . آثره بها من بين الرسل الكرام وأتحفكم بها من بين الأنام ، فقابلوا نعمته بالشكر ، وأكثروا من الصلاة عليه فى الذكر) .

وقد عبر الله سبحانه عنه صلى الله عليه وسلم بلفظ (النبى) لا باسمه الشريف ، إشعارا بعلو قدره ، وإعلاما بتفضيله على سائر الأنبياء ، فقد نادى الله أنبياءه بأسمائهم حيث يقول : (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) و (يانوح اهبط بسلام) . و (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) و (ياعيسى إنى متوفيك) إلى غير ذلك من الآيات .

وكل موضع ذكره فيه باسمه ، فإنما كان ذلك لمصلحة تقتضى ذلك . ولما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم مع الخليل ، ذكر الخليل باسمه ، وذكر الحبيب بلقبه . فقال : (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي) وتلك رأس الفضائل ، وقمة الدرجات العلية له صلى الله عليه وسلم .

فما الخلاف بين علماء الشريعة في هذه المسألة إلا لتمييز الفرض من الواجب كما ذكرنا .

وللتدرب على تحقيق الأدلة ، وإلا فكلهم بحمد الله كانوا لا يفترون عن الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ولم يسكت لهم عنها لسان ، ولا غفل عنها منهم جنان ، ولا سكنت عنها منهم الأرواح .

ولا مجال مطلقا للخلاف في أمر أحبه الله تعالى ، وتنزل به تكريما لأحب الخلق إليه ، فهو لازم بعد ذلك على خلقه ، ولكنه لا يرتقى إلى رتبة الفرض ، كالصلاة والصوم مثلا ، ومن أجل ذلك جد العلماء في بيان حكمه من هذه الناحية فحسب .

وقد جعل الله تعالى للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . من الفوائد والفضائل ، التي تلحق الإنسان في دينه ودنياه ، شيئا كثيرا ليسترق بها القلوب ، ويملك بها الأرواح .

فمن كان من سادة العلماء العارفين ، وكبار المتشرعين ، لهج بها قلبه ولسانه ، تقليدا للرب جل جلاله ، وحبا لرسوله الحبيب صلى الله عليه وسلم ، ومن كان من العامة ، وأوساط الناس لزمها لما فيها من ثواب ، وما لها من تعلقات بحاجات الدنيا . واسترقاق النفوس بما يلائمها طبعا مشروع .

فلا حرج عليك أيها المؤمن ، في أن تلازم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، تحقيقا لحاجاتك الدنيوية ، وتفريجا لكربك ، وإبعادا لفقرك ،

وشفاء لمرضك ، فهو صلى الله عليه وسلم قد شرع ذلك ونبه إليه ، رحمة منه بأتباعه ، كما كان هو رحمة من ربه على خلقه .

ولكنك ياأخى لو علمت أن الوقاية خير من العلاج ، وأنك لو صليت عليه وأنت خلى البال ، صحيح الجسم ، غنى الجيب ، معافى فى أهلك وولدك لحف بك اللطف ، وشملتك الرحمة ، وكفيت البلاء ، وكان الله تعالى حسبك فى كل أمورك ، ووكيلك فى كل أحوالك .

فعالج ماألم بك ، أو يوشك أن يلم بك من البلاء ، بالاستغفار والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فإذا رفع الله عنك الضر ، فلا تغفل عن دوام الصلاة عليه بين الحين والحين ، دون تقيد بوقت ولا عدد ، واجعلها بديلا عن لغو الكلام ، ومجالس الهزل ، والاستسلام للتفكير فى شئون ليس لك فيها من الأمر شىء .

الصلاة هى الرحمة ، وصلاة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم تتابع الرحمات المختلفة على جنابه الشريف ، وصلاة العباد على النبى التى أمرهم الله بها ، دعاء منا أن يوالى الله رحمته على رسوله الكريم ، ولما كان الله تعالى هو الذى أمرنا بهذا الدعاء ، كان لا بد من أن يقبله سبحانه وتعالى ويستجيبه .

وإذا دققنا النظر قليلا فى هذه اللفتة الكريمة من الله تعالى لعباده ، وتلك الرحمة المهداة لهم دون مشقة ولا كد ، فإننا بعد ذلك لن نكف عن عن الصلاة على النبى ، حتى تكون ملكة من ملكات النفس والقلب والروح لاتفارقنا أبدا .

ما دام الله تعالى يصلى على النبى هو وملائكته ، دائما أبدا ، فما معنى أن يقول سبحانه لنا اطلبوا منى الصلاة والسلام على النبى ، وقولوا مثلى دائما اللهم صل وسلم وبارك على محمد ؟

إن كان الله تعالى قد علق صلاته على نبيه بطلبنا ذلك منه ، فذلك الأمر

بالصلاة فى الآية ، إنما هو مصلحة خالصة للنبى صلى الله عليه وسلم وليس لنا منها إلا ثواب الدعاء للمؤمن بظهر الغيب . فكأنه تعالى يقول : ادعوا للنبى المرسل إليكم .

ولكن الله تعالى صلى عليه ابتداء واستجاب له الملائكة ، ثم أمرنا بعد ذلك بطلب الصلاة عليه منه تعالى . لنثاب رغم أنوفنا ، بثوابين عظيمين .

ثواب دعاء المؤمن للمؤمن بظهر الغيب .

ثواب آخر يتعلق بدعاء أمرنا به ، مقبول على وجه القطع ، نافذ سواء دعونا أم لم ندع ، وهو ثواب من جنس مايفاض على الرسول صلى الله عليه وسلم من الرحمات .

لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم ، رحمة مهداة : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) . ويمد بالرحمة دائما أبدا من الله تعالى والملائكة الكرام ، ومن استجاب لأمر الله ، وصلى على نبيه . صلى الله عليه بكل صلاة عشرا ، وهذه رحمة على العبد ، وتلك رحمة على النبى .

ويفوز العبد كذلك إذا صلى على النبى صلى الله عليه وسلم برحمة أخرى ، هى رحمة يمد بها النبى صلى الله عليه وسلم ، محبيه والمصلين عليه فيض خالص من الرسول صلى الله عليه وسلم غير الفيض الخالص من الله تعالى ، وصدق الله تعالى ، فقد سماه باسميه : الرءوف والرحيم . وطوبى لمن فاز برأفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبرحمته : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم) .

إنك لتهدأ نفسا ، وتقر عينا ، إذا رحمك أبوك أو أستاذك ، أو عظيم من العظماء ، أو رئيسك فى عملك ، فهل تقر عينا وتهدأ نفسا ، إذا رحمك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسارع الله تعالى إلى رحمتك لأن حبيبه رحمك ؟ . إن كنت كذلك ، فأنت مؤمن حقا فامض لما أمرت به واحرص على درجتك ، وخلص قلبك ونفسك من الركون إلى رحمة أحد غير الله

ورسوله ، فهؤلاء عبيد يرحمونك بألسنتهم ، وأين رحمة العبيد من رحمة الفعال لما يريد ، ورحمة الرسول الرءوف الرحيم . والمرء مع من أحب .

من فضائل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :

لا يوجد عمل من أعمال العبادة ، هو أخف مؤنة ، وأكثر أجرا ، من الصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين . صلى الله تعالى عليه وسلم تسليما كثيرا .

فمن ذلك ، صلاة الله عز وجل وملائكته على المصلي عليه ، وتكفير الخطايا وتزكية الأعمال ، ورفع الدرجات واستغفارها لقائلها ، وكتابة قيراط مثل أحد من الأجر . والكيل بالمكيال الأوفى ، وكفاية أمر الدنيا والآخرة لمن جعل صلاته كلها صلاة عليه وفضلها على عتق الرقاب والنجاة من الأهوال وشهادة الرسول بها ، ووجوب الشفاعة . ورضى الله ورحمته ، والأمان من سخطه ، والدخول تحت ظل العرش ، ورجحان الميزان ، وورود الحوض ، والأمان من العطش ، والعتق من النار ، والجواز على الصراط ، ورؤية المقعد المقرب من الجنة قبل الموت ، وكثرة الأزواج في الجنة ، ورجحانها على أكثر من عشرين غزوة وقيامها مقام الصدقة للمعسر ، وأنها زكاة وطهارة ، وينمو ببركتها المال ، وتنقضى بها من الحوائج مائة ، بل أكثر ، وأنها عبادة وأحب الأعمال إلى الله ، وتنفى الفقر ، وضيق العيش ، ويلتمس بها مظان الخير ، والنبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمصلي عليه ، وينتفع هو وولده وولد ولده بها ، وتنصر على الأعداء ، وتطهر القلب من النفاق ، وتوجب محبة الناس ، ورؤية النبي صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وتمنع من اغتياب صاحبها .

ويقول الحافظ السخاوى : وهى من أبرك الأعمال وأفضلها وأكثرها نفعا فى الدين والدنيا ، وغير ذلك من الثواب المرغب للفطن الحريص على اقتناء ذخائر الأعمال ، واجتناء الثمرة من نضائر الآمال ، فى العمل المشتمل

على الفضائل العظيمة والمناقب الكريمة والفوائد الجمة العميمة ، التي لا توجد في غيره من الأعمال ، ولا تعرف سواه من الأفعال والأقوال ، صلوات الله وسلامه عليه :

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « من صلى على واحدة ، صلى الله عليه عشرا » . رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي، وقال حسن صحيح . والنسائي، وابن حبان في صحيحه .

٢ ـ وفي بعض ألفاظ الترمذي : « من صلى على مرة واحدة كتب الله له عشر حسنات » ، وفي لفظ : « ومحى عنه عشر سيئات » ، وهو عند أحمد ، بسند رجاله رجال الصحيح ، غير ربعي بن إبراهيم ، وهو ثقة مأمون .

٣ ـ وعنه أيضا ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من صلى على عشرا صلى الله عليه مائة ، ومن صلى على مائة ، صلى الله عليه ألفا ، ومن زاد صبابة وشوقا ، كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة » .

أخرجه أبو موسى المديني بسند ، قال عنه الشيخ مغلطاى : لا بأس به .

٤ ـ وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، قال : « من صلى على النبي صلى الله عليه وسلم واحدة ، صلى الله تعالى عليه وملائكته بها سبعين صلاة » . رواه أحمد ، وابن زنجويه في ترغيبه ، بإسناد حسن .

٥ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « من ذكرت عنده فليصل علي ، ومن صلى على مرة ، صلى الله عليه عشرا » أخرجه أحمد ، وأبو نعيم ، والبخاري في الأدب المفرد .

٦ ـ وفي رواية : « من صلى على واحدة ، صلى الله عليه عشر صلوات ، وحطت عنه عشر سيئات ، ورفعت له عشر درجات » أخرجها النسائي ، وابن أبي حبان ، وابن أبي شيبة ، وليس عندهما « ورفعت .. الخ » .

٧ ـ وأخرجه الحاكم بلفظ : « من صلى على واحدة ، صلى الله عليه عشر صلوات ، وحط عنه عشر خطيئات » .

٨ - ورواه الطبرانى فى الأوسط والصغير ، بلفظ : « من صلى على صلاة واحدة ، صلى الله عليه عشرا ، ومن صلى على عشرا ، صلى الله عليه مائة ، وكتب الله بين عينيـــه براءة من النفاق . وبراءة من النار ، وأسكنه يوم القيامة مع الشهداء » وفى سنده إبراهيم بن سالم بن شبل الهجيمى ، قال المنذرى : لا أعرفه بعدالة ولا جرح .

٩ - ورواه أبو بكر بن أبى عاصم ، فى الصلاة النبوية له وأبو القاسم التيمى فى ترغيبه ، من طريق أبى اسحق . السبيعى ، عن أنس ، بلفظ : « صلوا على ، فإن الصلاة على كفارة لكم ، وزكاة ، فمن صلى على صلاة ، صلى الله عليه عشرا » .

١٠ - وفى رواية عند الطبرانى فى الأوسط ، بإسناد لا بأس به : « من صلى على بلغتنى صلاته ، وصليت عليه ، وكتب له سوى ذلك عشر حسنات» ورواه النسائى ، والحافظ رشيد الدين العطار .

١١ - وعند البيهقى فى فضائل الأوقات : « أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة ، وليلة الجمعة ، فمن صلى على صلاة ، صلى الله عليه عشرا » . . وهو عند ابن بشكوال ، بدون « الجمعة » .

١٢ - وعن عبدالرحمن بن عوف ، رضى الله عنه ، قال : « خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فتوجه نحو صدقته ، فدخل فاستقبل القبلة ، فخر ساجدا ، فأطال السجود ، حتى ظننت أن الله قبض نفسه فيها فدنوت منه ، فرفع رأسه وقال : من هذا ؟ قلت عبد الرحمن . قال : ما شأنك ؟ قلت : يارسول الله ، سجدت سجدة ، حتى ظننت أن الله قبض نفسك فيها ، فقال : إن جبريل أتانى فبشرنى فقال : إن الله عز وجل يقول : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك ، سلمت عليه » .

وأخرجه الطبرانى فى الصغير ، من رواية الأسود بن يزيد ، عن عمر

رضى الله عنه ، وأخرجه الضياء المقدسى فى المختار ، وسنده جيد « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ، فلم يجد أحدا يتبعه ففزع عمر ، فأتاه بمطهرة من خلفه ، فوجد النبى صلى الله عليه وسلم ساجدا ، فى شربة (١) ، فتنحى عنه من خلفه ، حتى رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه فقال : أحسنت ياعمر ، حين وجدتنى ساجدا فتنحيت عنى ، إن جبريل عليه السلام أتانى ، فقال : من صلى عليك من أمتك واحدة ، صلى الله عليه عشرا ، ورفعه عشر درجات » .

١٣ ـ وعن البراء بن عازب ، رضى الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من صلى على كتب الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه بها عشر سيئات ، ورفعه بها عشر درجات ، وكن له عدل عشر رقاب » رواه ابن أبى عاصم فى كتاب الصلاة .

١٤ ـ وعن أبى طلحة الأنصارى رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم ، والبشرى ترى فى وجهه ، فقال : « إنه جاءنى جبريل صلى الله عليه وسلم ، فقال : أما يرضيك يامحمد ، ألا يصلى عليك أحد من أمتك ، إلا صليت عليه عشرا ، ولايسلم عليك أحد من أمتك ، إلا سلمت عليه عشرا » رواه الدارمى ، وأحمد ، والحاكم ، وابن حبان ، والنسائى .

١٥ ـ وعن عمار بن ياسر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله ملكا أعطاه أسماع الخلائق ، فهو قائم على قبرى إذا مت ، فليس أحد يصلى على صلاة ، إلا قال يا محمد . صلى عليك فلان ابن فلان قال فيصلى الرب تبارك وتعالى على ذلك بكل واحدة عشرا » . رواه أبوالشيخ والتيمى فى الترغيب والحارث فى مسنده ، وابن أبى عاصم فى كتابه .

---

(١) الشربة بفتح الراء ، حوض يكون فى أصل النخلة ، يملأ ماء تشربه ، والجمع شرب وشربات . كذا فى النهاية وفى القاموس . بفتح الشين والراء والباء مع التشديد ، الأرض المعشبة لاشجر بها .

١٦ ـ وعن عامر بن ربيعة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرا ، فأكثروا أو أقلوا » . رواه أبو نعيم فى الحلية .

١٧ ـ وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا على ، فإنه من صلى على صلى الله عليه بها عشرا » أخرجه مسلم .

١٨ ـ وعن أبى موسى الأشعرى ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى على صلاة ، صلى الله عليه بها عشرا » . ومثله عن عائشة رضى الله عنها بلفظ : « من صلى على صلاة ، صلت عليه الملائكة ماصلى على ، فليكثر عبد ، أو ليقل » . ورجال حديث أبى موسى ثقات إلا حفص بن سليمان ، فقد ضعفه الجمهور ، ووثقه وكيع وغيره . ومثله من حديث عامر بن ربيعة ، مع خلاف يسير فى اللفظ ، رواه سعيد ابن منصور ، وابن أبى شيبة ، والبزاز ، وابن ماجه . والطيالسى ، وأبو نعيم ، والتيمى ، والرشيد العطار ، وفى سنده عاصم بن عبيد الله ، وهو وإن كان واهى الحديث ، فقد صحح له الترمذى ، وقال المنذرى : حديثه هذا حسن.

١٩ ـ وعن أبى كاهل رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا كاهل ، من صلى على كل يوم ثلاث مرات ، وكل ليلة ثلاث مرات ، حبا لى ، وشوقا إلى ، كان حقا على الله أن يغفر له ذنوبه تلك الليلة وذلك اليوم » أخرجه ابن أبى عاصم ، والطبرانى ، والعقيلى ، فى حديث طويل .

٢٠ ـ ويحكى أن أبا العباس ، أحمد بن منصور ، لما مات ، رآه رجل من أهل شيراز ، وهو واقف فى المحراب ، بجامع شيراز ، وعلى رأسه تاج مكلل بالجواهر ، فقال له « ما فعل الله بك » ؟ . قال : « غفر لى

وأكرمنى ، وتوجنى ، وأدخلنى الجنة . فقال له : بماذا ؟ قال : « بكثرة صلاتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم » رواها النميرى ، وابن بشكوال ، فى القربة .

٢١ - وعن رجل من الصوفية ، قال : « رأيت الملقب بمسطح ، بعد وفاته ، وكان ماجنا فى حياته ، فقلت له : مافعل الله بك ؟ قال : غفر لى . فقلت : بأى شىء ؟ قال : استمليت على بعض المحدثين حديثا مسندا ، فصلى الشيخ على النبى صلى الله عليه وسلم . فصليت أنا معه ، ورفعت صوتى بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فسمع أهل المجلس ، فصلوا عليه ، فغفر لنا فى ذلك اليوم كلنا » أخرجها ابن بشكوال .

٢٢ - عن أبى الحسن البغدادى الدارمى : « أنه رأى عبدالله بن حامد ، بنواحى النصيبة ، بعد موته مرارا ، وأنه قال له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى ورحمنى . وأنه سأله عن عمل يدخل به الجنة ، فقال : صل ألف ركعة ، تقرأ فى كل ركعة ألف مرة (قل هو الله أحد . . .) . قال : لا أطيق . قال : فصل على محمد النبى صلى الله عليه وسلم ، ألف مرة كل ليلة » . وقال الدارمى : إنه يفعل ذلك كل ليلة .

٢٣ - ومنه أيضا قال : « رآى بعض الناس أبا حفص الكاغدى ، بعد وفاته فى المنام ، وكان سيدا كبيرا ، فقال له : مافعل الله بك ؟ قال : غفر لى ورحمنى ، وأدخلنى الجنة ، فقيل له : بماذا ؟ قال : لما وقفت بين يديه ، أمر الملائكة ، فحسبوا ذنوبى ، وحسبوا صلاتى على المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فوجدوها فقال لهم المولى ، جلت قدرته : حسبكم ياملائكتى ، لاتحاسبوه ، واذهبوا به إلى جنتى » .

٢٤ - فى رواية فرج بن فضالة ، عن هلال أبى جبلة ، عن سعيد بن المسيب ، وأخرجه التيمى مطولا ، ولفظه : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، ونحن فى مسجد المدينة ، فقال : رأيت البارحة

عجبا ، رأيت رجلا من أمتى ، جاءه ملك الموت ليقبض روحه ، فجاءه بر والديه ، فرده عنه ، ورأيت رجلا من أمتى ، قد ساط عليه عذاب القبر ، فجاءه وضوءه فاستنقذه منه ، ورأيت رجلا من أمتى احتوته الشياطين ، فجاء ذكر الله فخلصه من بينهم ، ورأيت رجلا من أمتى احتوشته ملائكة العذاب ، فجاءته صلاته ، فاستنقذته من بين أيديهم ، ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا ، كلما ورد حوضا منع ، فجاءه صيامه فسقاه وأرواه ، ورأيت رجلا من أمتى ، والنبيون قعود حلقا حلقا ، كلما دنا إلى حلقة طرد ، فجاءه اغتساله من الجنابة ، فأخذ بيده ، وأقعده إلى جنبي ، ورأيت رجلا من أمتى ، من بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن شماله ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، فجاءه حجه وعمرته ، فاستخرجاه من الظلمة ، وأدخلاه فى النور ، ورأيت رجلا من أمتى ، يكلم المؤمنين ولا يكلمونه ، فجاءه صلته للرحم فقالت : يا معشر المؤمنين . كلموه فإنه كان واصلا لرحمه فكلموه وصافحوه ، ورأيت رجلا من أمتى يتقى النار وحرها وشررها بيده عن وجهه ، فجاءته صدقته ، فصارت سترا على وجهه ، وظلا على رأسه ورأيت رجلا من أمتى ، أخذته الزبانية من كل مكان ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فاستنقذاه من أيديهم ، وسلماه إلى ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلا من أمتى هوت صحيفته قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله ، فأخذ صحيفة فجعلها فى يمينه ، ورأيت رجلا من أمتى ، قد خف ميزانه ، فجاءته أفراطه فثقلت ميزانه ، ورأيت رجلا من أمتى قائما على شفير جهنم ، فجاءه وجله من الله تعالى فأنقذه ، ورأيت رجلا من أمتى هوى إلى النار فجاءته دموعه التى بكاها من خشية الله ، فاستخرجته من النار ورأيت رجلا من أمتى يرعد على الصراط كما ترعد السعفة ، فجاءته صلاته على فسكنت رعدته ، ورأيت رجلا من أمتى ، قد غلقت أبواب الجنة دونه ، فجاءته شهادة ألا إله إلا الله ففتحت له أبواب الجنة » .

وروى من طريق يحيى بن سعيد الأنصارى ، وعبد الرحمن بن حرملة ،

وعلى بن زيد ، وسعيد ، وغيرهم عن سعيد بن المسيب ، وضعفه الذهبي فى الميزان ، وذكر الشيخ العارف أبو ثابت ، محمد بن عبد الملك الديلمى ، إن هذا الحديث ، وإن كان غريبا عند أهل الحديث ، فهو صحيح لا شك فيه ، ولا ريب حصل العلم القطعى بصحته ، عن طريق الكشف ، فى كثير من وقائعه وأحواله .

٢٥ - عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى على فى كل يوم ألف مرة ، لم يمت حتى يرى مقعده فى الجنة » . رواه ابن شاهين فى ترغيبه ، وابن بشكوال ، وابن سمعون فى أماليه ، والضياء فى المختارة .

٢٦ - عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أيما رجل مسلم لم تكن عنده صدقة ، فليقل فى دعائه : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، وصل على المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، فإنها زكاة » . أخرجه ابن وهب ، وابن بشكوال ، وابن حبان ، وأبو الشيخ ، والديلمى ، وإسناده حسن وهو عند أبى يعلى الموصلى ، والبيهقى ، بلفظ آخر .

٢٧ - وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى على فى كل يوم مائة مرة ، قضى الله له مائة حاجة ، سبعين منها لآخرته ، وثلاثين منها لدنياه » . أخرجه ابن منده ، وقال ابن منده : حسن غريب .

* * *

فالصلاة والسلام على أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم لها من الأسرار والأنوار مالا يستطيع العقل حصره ، ولا البيان الإفصاح عنه ، والأخبار والأحاديث فى ذلك تبح بها كتب الآداب الدينية ، والفقه والحديث ،

والطبقات ، وهى عمل يستقيم مع الطبع السليم ، والفطرة النقية ، حيث كنت يا أخى من أتباعه ، المستنيرين بشريعته وآدابه ، من خير أمة أخرجت للناس ، من أمة نبى الهـــدى الذى سارع ربه فى هواه ومايبنطق عن الهوى ، وقال له : « لعلك ترضى » وقال له أيضا ، (ولسوف يعطيك ربك فترضى) ولن يرضى نبى الرحمة إلا بالخير لأمته ، وحفاظ شرعه .

وأحاديثنا مع أهلينا وأولادنا وإخواننا يغلب عليها العبث والهزل ، أو عدم الجدوى ، فما أجدرنا أن نشغل القلوب بالصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين ، وأن نحرك بها ألسنتنا إن حاولت تعدى الحدود ، وأن تكون أول ماننطق به فى نهارنا وآخر ماننطق به فى ليلنا فما أحوجنا إلى عون ذى القوة المتين .

ويقول السادة الصوفية : إن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم شيخ من لاشيخ له ، فهى نور لقلبه ، وحياة لبصيرته ، يهديه الله ببركاتها إلى خفيات العلم ، وجلى المعرفة ، وجمال الرضوان ، وجلال الهيبة ، وعز البسط وذل القبض ، وغير ذلك من منازلات الطريق ، وهى تقوم له مقام المرشد الكامل ، وقالوا : إن الدعاء الواقع بين صلاتين عليه صلى الله عليه وسلم مقبول بلا شك . لأن الله تعالى يقبل الصلاتين ، وهو أكرم من أن يرد ما بينهما ، وهام شيوخ التصوف ، وأفاضل المريدين بالحب له صلى الله عليه وسلم فأصبحت صلاتهم عليه ريا لما تسعر فى قلوبهم من حبه صلى الله عليه وسلم وإجلال قدره ، والفهم عنه من أسراره ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وماهو إلا من ألوان الرحمة الموعودة لمن صلى وسلم عليه ، صلوات الله وسلامه عليه .

وإذا كنت يا أخى تمل قراءة هذه الأخبار وسماعها ، وتقع على قلبك ثقيلة تنقبض منها نفسك ، وتود لو انتقل الحديث عنها إلى لون من المزاح

الحلال ، أو الهوى البرىء ، أو التحدث عن أشياخك وسماع أخبارهم وإيثار ذلك ، أوالزيادة منه على مقدار سماعك لأخبارفضل الصلاة والسلام على سيد البشر صلى الله عليه وسلم إن كنت كذلك ، ففيك بقية من أوزار غشت قلبك ، ويخشى عليك منها .

فبادر إلى تدريب نفسك على تجربة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم بقلب خالص ، وشوق مقلق ، وحب عميق وتدبر فى محاسنه الظاهرة والباطنة وسيرته العطرة ، والمجد الشامخ الذى رفع أركانه وحده وبمساعدة أصحابه ، بعد أن تخرجوا على يديه .

أحضر كل تلك المعانى فى قلبك ، واستحضر ظاهره الوحى ، وأن الرسول كان يغيب عن الوجود حتى يستطيع مواجهة الوحى والأخذ عنه .

واخل إلى نفسك فى مكان نظيف ، وعلى فراش طاهر ، وعلى وضوء سابغ ، ونقل خفيف من الصلاة وصل عليه وسلم ، وأنت فى مجلس الصلاة بهدوء وخشوع .

اصبر ياأخى إن هاجمك الشيطان فى هذه الجولة .

إنه سيواجهك بسلاح رهيب ، هوسلاح الأوهام التى تنطلق فى جوانب عقلك وقلبك ، ملوحة لك بالشهوات ووعورة الطريق ، تعرض أمامك شريطا من الآمال ونزوات الهوى ، حلالا كانت أو حراما ، لتأنس بها .

وفى هذه الحالة ، حاول أن تستجمع جنودك التى هى جميع مداركك وصور أمامها .

وتوجه إليه بقلبك وروحك ، وداوم على صلواتك ، ووجهها إلى باطن قلبك ، فى عالم المثال ، وحينما تنتصر وتصبر على التوجه الكامل المجرد عن الخواطر والأوهام ، ربع ساعة فى المحاولة الأولى ، فاخرج عن مجلسك فى هدوء ، واقرأ شيئا من القرآن الكريم ، أو الحديث الشريف ، أو كتب

الرقائق والآداب . وكرر هذا العمل المجيد مرتين ، فإنك بعد ذلك ستتعشق هذا المسلك ولن يستطيع إنسان ولا شيطان أن يصدك عنه ، لأنك ستبدأ فى استبدال مشاعر جديدة بمشاعرك الخيالية ، وستصبح إنسانا لك عقلك الواعى ، وفهمك الراجح ، وسمتك المهيب بين الناس .

أما إذا كنت من النوع الذى يرفض سماع هذه الأخبار ، ويقطع راويها روايته ، أو تستهزىء ببعضها فأنت فى الشر مقيم ، ويخشى عليك الانفلات من الشهادتين ، فبادر بصحبة أحد المحبين ولزومه كل يوم زمنا ، ولو يسيرا فربما يرجى لك الرجوع (ولا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا) .

هدانا الله وإياكم لكل خير برحمته .

أوقات الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :

استند فقهاء الأمة على أحاديث كثيرة جدا تشير إلى استحباب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فى أوقات مخصوصة ، وقد جمعها الحافظ السخاوى فى « القول البديع » وأورد الأحاديث الدالة على استحباب تقييدها بهذه الأوقات أولا ، والحرية فى الإتيان بها بعد ذلك ، وسنكتفى بإيراد هذه المواضع ، دون ذكر الأحاديث ، التى محصها الحافظ الكبير السخاوى فى كتابه السابق . وهذه الأوقات هى :

١ ـ الفراغ من الوضوء	٢ ـ والتيمم ٣ ـ والغسل من الجنابة
٤ ـ الطهر من الحيض	٥ ـ وفى الصلاة وعقبها
٦ ـ عند إقامة الصلاة	٧ ـ بعد الصبح والمغرب (مؤكدة)
٨ ـ فى التشهد	٩ ـ فى القنوت (وتراً أو صبحا)
١٠ ـ عند القيام للتهجد وبعده	١١ ـ عند المرور بالمساجد ورؤيتها

١٢ ـ عند دخول المسجد والخروج منه
١٣ ـ بعد إجابة المؤذن
١٤ ـ فى يوم الجمعة وليلتها
١٥ ـ أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء
١٦ ـ فى خطبة الجمعة والعيدين
١٧ ـ فى صلاة الاستسقاء
١٨ ـ فى صلاة الكسوفين
١٩ ـ أثناء تكبيرات العيدين
٢٠ ـ فى الجنازة
٢١ ـ عند إدخال الميت القبر
٢٢ ـ فى شهر شعبان
٢٣ ـ عند رؤية الكعبة
٢٤ ـ فوق الصفا والمروة
٢٥ ـ عند الفراغ من التلبية
٢٦ ـ عند استلام الحجر الأسود
٢٧ ـ عند استلام الملتزم
٢٨ ـ فى عشية عرفة
٢٩ ـ فى مسجد الخيف
٣٠ ـ عند رؤية المدينة المنورة
٣١ ـ عند زيارة قبره الشريف وعند وداعه
٣٢ ـ عند رؤية آثاره الشريفة ومواطنه ومواقفه كبدر مثلا
٣٣ ـ عند الذبيحة
٣٤ ـ عند البيع وكتابة الوصية
٣٥ ـ عند خطبة الزواج
٣٦ ـ فى طرفى النهار
٣٧ ـ عند إرادة النوم
٣٨ ـ عند السفر وركوب الدابة
٣٩ ـ لمن قل نومه
٤٠ ـ عند الخروج إلى السوق
٤١ ـ عند الخروج إلى الدعوة
٤٢ ـ عند دخول المنزل
٤٣ ـ عند افتتاح الرسائل
٤٤ ـ بعد البسملة
٤٥ ـ عند الهم والكرب والشدائد
٤٦ ـ عند الفقر
٤٧ ـ عند الغرق والطاعون
٤٨ ـ فى أول الدعاء وأوسطه وآخره
٤٩ ـ عند طنين الأذن

٥٠ ـ عند خدر الرجل ٥١ ـ عند العطاس ٥٢ ـ عند النسيان

٥٣ ـ عند استحسان الشيء ٥٤ ـ عند التوبة من الذنب

٥٥ ـ عندما تعرض لك حاجة ٥٦ ـ لمن اتهم وهو برىء

٥٧ ـ عند لقاء الإخوان ٥٨ ـ عند تفرق القوم

٥٩ ـ عند ختم القرآن ٦٠ ـ لحفظ القرآن

٦١ ـ عند القيام من المجلس ٦٢ ـ فى مواضع الاجتماع لذكر الله

٦٣ ـ عند افتتاح كل كلام ٦٤ ـ عند نشر العلم

٦٥ ـ عند قراءة الحديث ٦٦ ـ عند الإفتاء والوعظ

٦٧ ـ عند كتابة اسمه الشريف

هذه موائد الخير ياأخى تعرض لك فى كل ساعة فى حياتك ، فبادر إلى غنم عظيم ، وكرم عميم وفى هذا المعنى ينشد الرشيد العطار الحافظ :

ألا أيها الراجى المثوبة والأجرا ... وتكفير ذنب سالف أنقض الظهرا
عليك بإكثار الصلاة مواظبا ... على أحمد الهادى شفيع الورى طرا
وأفضل خلق الله من نسل آدم ... وأزكاهم فرعا وأشرفهم نجرا
فقد صح أن الله جل جلاله ... يصلى على من قالها مرة عشرا
فصلى عليه الله ماجنت الدجى ... واطلعت الأفلاك فى أفقها فجرا

أعياد الروح :

اكتم مواجيدك التى تعانق روحك وقلبك حين الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فربما رويتها أمام منكر أوفاسق ، أو قاسى القلب ، أو غارق فى نزواته ، فهزأ بك ، واستحق هو إثم استهزائه ، واستحققت إثم تعريضك المقام المحمدى الشريف للاستهزاء بجهالك .

لا تتحدث بشيء حتى ولو إلى محب مثلك ، لأن النفس البشرية سريعة

الحركة فى الدفاع عن نفسها ، وهى فى هذه الحالة تستعذب الانتصار ولو على أشلاء الحق .

قد يكون رفيقك من المريدين المحبين أرقى منك مشهدا ، وأصفى روحا وأعذب مشربا ، فتسمع منه أثناء المحاورة ما يدفعك إلى اليأس من الوصول إلى درجته ، وقد تحسده ، وقد تحقد عليه .

وقد يكون أقل منك رقيا فى عالم الروح ، فتزهو نفسك عليه ، وتستصغر عمله وثمرته ، فتقع فى الزهو والكبر .

وكلا الحالين بغيض إلى الله حاجب عن نعمائه ، طامس للبصيرة ، دافع إلى الجحود ، وصلابة الطبع ، وترك مواطن الخطر أفضل من الحوم من حولها .

ثم حاول أن تتفرغ كليا للصلاة على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، محدداً لنفسك عدداً وليكن (مائة ألف صلاة) تصليهما على صاحب الخلق العظيم ، بحضور ومراقبة لحضرته الشريفة ، اشغل أوقات فراغك بها ، وداوم عليها فى طريقك إلى عملك ، وعند عودتك منه ، ولكن حذار أن تجهر بها ، أو يحس جارك فى وسيلة الانتقال التى تستعملها بما تعمل ، لتكن بالقلب أكثر منها باللسان .

وإذا خطرت لك خواطر ، أو شهدت منامات ، فاعرضها على أستاذك حينما تلقاه ، فربما كان فيها رائحة الاستدراج ، أو غوائل السلوك الأخرى كالإعجاب ، والزهو ، والكبر ، وحب التصدر والإدلال بالعلم ، والعلو على الأقران به ، إلى غير ذلك من آفات النفس الظاهرة والخفية .

واستغرق فى صلواتك ، واسعد بمشاهداتك ، ولكن لا تفرح بها ، ولا تقف عندها ، بل لا تعرها أدنى أهمية ، ولا تخف ، فكل ما يأتيك

مجملا من الخواطر ، سيأتيك مفصلا أضعافا مضاعفة حينما تعطى نفسك حقها من الاستجمام والراحة ، أوحينما تعرض لك المسألة من مسائل العلم ؛ وتكلم حينئذ بقدر ، ولا تزد على الضرورة ، وليكن حديثك عند أهله ، الحافظين لحرمته .

وستعيش يا أخى فى جمال أعياد الروح ، حياة السعداء المرحومين المحبوبين .

لقد قال العارفون : إن نورانية الأذكار محرقة لأوصاف العبد ، ومثيرة لحرارة طبعه ، بالانحراف عن طبعها ، إلى نوع من العنف أو التهور أو الصلابة ، ومن ثم استحب الشيوخ الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم مع الذكر ، وقالوا : لأنها كالماء تقوى النفوس ، وتذهب وهج الطباع .

وقالوا : إن سر ذلك فى السجود لآدم عند قولهم : (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) . لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى صلب آدم آنذاك .

لذلك أمر شيوخ السلوك بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم عند غلبة الوجد ، ومن سلك وغلبه الوجد فصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وذاق برودة وجدة فذلك الذوق شاهد على صدق مانقول .

وقد أشار الصديق رضى الله عنه إلى ذلك إذ قال : « الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم أمحق للذنوب من الماء البارد للنار » . وقد تلمس العارفون من المقابلة بين الماء والنار أساسا لرأيهم فى أن أنوار الذكر محرقة ، وقالوا إن من علامات الفتح ثوران الحرارة فى الباطن .

صلوات الضر والحاجة

الاعتصام بالله ومعرفته :

قال العارف « العربى الدرقاوى » رضى الله عنه :

اعلموا رحمكم الله أن البعض من أهل العلم رضى الله عنهم ، قد عرف كثيرا من شيوخ أهل زمانه ، وأخذ عنهم ، ومع ذلك كان معى مهما لقينى ، اشتكى لى بدين كان فى ذمته ، وقد ضاق حاله من أجله غاية الضيق .

فقلت له ذات يوم : « اسمع ما أقول لك ، وكن عليه ترى عجبا . فوقت الشدة والخير والشر حاضران كلاهما ، غير غائبين ، وقريبان غير بعيدين . فإن ذكرت فيه ربك ، ونسيت نفسك ربحت كثيرا ، وإن عكست خسرت ، فهما تسلطت عليك الفاقة ، وجارت عليك ، فاشتغل بما أمرك به ربك من الأسباب، ولا تلتفت إلى شىء قط ، وكن هكذا دائما وقت الشدائد ، فإن الشر يذهب عنك ، والخير يأتيك ، ولعن الله من كذب عليك . فإن سلبت الإرادة لربك فى نفسك ، وقت فاقتك ، أو نقول وقت بلائك ، أو شدتك ، ولم تنتصر لنفسك ، بسبب من الأسباب ، فذلك المقام الأعلى ، والسر الأصلى ، ليس فوقه إلا مقام النبوة ، والله على ما نقول وكيل » .

فقال لى لطف الله به بعد هذا : « عندى من الأذكار كذا وكذا ، من ألف فما دونها ، أخذتها عن الشيخ الفلانى ، ومنه ما أخذته عن الشيخ الفلانى ، حتى عد لى كثيرا من شيوخ أهل زمانه » .

فقلت له : « اسمـــع ما قلت لك ، وكن عليه ، ترى عجبا ، وأقول لك حقيقة : الشيخ هو الذى يعلمك ما علمتك ولعن الله من كذب عليك ، والسلام » .

ومنشأ ذلك المشهد ، والدافع إلى الحياة فيه ، والنعيم بفضله ، هو أن نعلم ، أن أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل .

فالبلاء لايتسلط إلا على أهل المحبة والصدق . إذ به تحصل الزيادة لهم ، وتصفو قلوبهم وتتجوهر ، والمحب لا يؤذى محبوبه ، ومحاولة التخلص من البلاء بغير الاستسلام هروب من حب الله ، يعود بالشر على العبد والبلاء تعرف إلهى ، لولاه ماحصلت المعرفة به وماتحقق سيرهم إليه .

فقد جاء فى الحكم العطائية : (إلهى ، قد علمت باختلاف الآثار ، وتنقلات الأطوار ، أن مرادك منى أن تتعرف إلى فى كل شىء ، حتى لا أجهلك فى شىء » .

وقد قالوا : « عند تقلبات الأحوال يعرف الرجال من الرجال » .

وفى القرآن العظيم : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون) .

وفيه كذلك : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) .

ومشهد أهل المعرفة ألا يحبوا إلا ما أراد الله ، ومراد الله بالعارف الخير كل الخير .

قيل لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : « ماتشتهى ؟ » قال : « مايقضى به الله » .

وقال الشيخ الجليل مولانا عبد الكريم الجيلى ، فى قصيدته العينية :

ومالى إن حل البلاء التفاتة   ومالى إن جاء النعيم مراتع
فما أنا من يسلو ببعض غرامه   عن البعض بل بالكل ماأنا قانع

وقال العارف ابن عطاء الله : « ليخفف عنك ألم البلاء ، علمك بأنه سبحانه هو المبتلى لك ، ولا شك أن أشرف الأوقات عند أهل الله ، وعلماء

الوعى الروحى ، هو وقت فاقتهم ، إذا به تحصل لهم الزيادة ، وإن ظن فيها الجهلاء نقصا .

وكان العارف بالله الشيخ « العربى بن عبد الله » من شيوخ الشاذلية بالمغرب يسمى الفاقة « الحيزة » لأنها تحوز صاحبها إلى ربه .

وكان العارف . سيدى على العمرانى يقول : « لو عرف الناس مافى الاحتياج من الأسرار ، لم يحتاجوا إلا إلى الاحتياج » .

وكان يقول : « إنه يقوم مقام الاسم الأعظم » .

وكان يفسر « القدر » بالضيق .

ومعرفة الله تعالى وحدها ، هى التى تدفع البلاء ، كما دفعته عن غيرنا من الأنبياء عليهم السلام ، والأولياء رضوان الله تعالى عليهم .

قال الله تعالى : (قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين) .

وقال تعالى : (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : خيرا .) مع أن البلاء العظيم لم ينزل إلا بهم ، محبة فيهم ، واعتناء بهم ، ولكنهم سموه خيرا عن يقين وعلم ومعرفة .

ففى الكتاب المبين : (وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) .

وفيه أيضا : (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله) .

لكن معرفتهم بربهم ، واستغراقهم فى شهود عظمته غيبتهم عن الخير والشر ، إذ هم لايرون خيرا ولا شرا ، إنما يشاهدون ربهم ، وهم كما يشاهدونه فى النعم يشاهدونه فى النقم ، إذ هو المنعم والمنتقم . أو كما يشاهدونه فى العطاء ، يشاهدونه فى المنع .

فسبب العذاب بالبلاء فى الحقيقة ، إنما هو وجود الحجاب بين العبد وربه ، وما تجده القلوب من الهموم والأحزان ، فإنما هو لما منعت من وجود

العيان ، وقصة الخليل آية الدلائل على ذلك .

فإن ملكتم أنفسكم ، ملككم الله تعالى من يؤذيكم من بنى جنسكم ، أو مايؤذيكم من غير جنسكم ، بل وملككم الكون بأسره ، إذا لايملك الناس والكون إلا من ملك النفس ، ولا يتحرر من خصيم الجنس إلا من تحرر من خصيم النفس ، ولا يتحرر من خصيم النفس إلا من خالف هواه ، وأطاع مولاه .

فاسلبوا الإرادة لله تعالى ، يأخذ بيدكم ، ويتولى أمركم ، كما تولى أمر غيركم ممن قبلكم . أيها المؤمنون .

الذكر :

لايجتمع الذكر والبأس بأى حال من الأحوال ، فإذا اجتمعا فقد بطل الذكر ، لبطلان القصد ، وفساد التوجه ، وعدم الإخلاص فيه . وبقاء الدعاء اللسانى الذى لا يسمن ولا يغنى .

كان الشيخ الدرقاوى يصلى بالقرويين ، وكل من كان مقيما بها على عبادة ، من ذكر أو تلاوة أو دعاء ، فإذا برجل يدعى الخصوصية ، سلبته الدنيا صلة الفقر والحاجة لله تعالى . ولم تترك له إلا الدعاء باللسان .

فقال له على أثر الصلاة : « هل هؤلاء القوم ذاكرون أم غافلون ؟ » .

فتحير فيما يقول ، لأنه فهم أن الأمر راجع إليه .

ثم قال « ما يظهر إلا ذاكرين » . لخلاص نفسه من المأزق .

فقال : « ذاكرون عند الغافلين ، وغافلون عند الذاكرين ، لأن عندهم ماترى من الأسباب الدينية ، ومثلها عشرات من الأسباب الدنيوية ، وهم فقراء من الدنيا والآخرة ، لعدم اطمئنانهم إلى ربهم ، ومهما حضر ذكر الله ذهب البأس ، ومهما حضر البأس ، ذهب ذكر الله ، ومن ادعى أنهما يجتمعان فهو جاهل بمزية الذكر .

فاذا كان المطمئن بذكر الله لايحزن يوم الفزع الأكبر فى يوم القيامة ، فأحرى ألا يضره ما يصيبه من البلايا والمحن فى دار الدنيا .

هذا إذا كان الضر الذى نزل بك ليس صادرا من عدو ظاهر .

فإذا كان الضر الذى نزل بك من عدو ظاهر ، فالسلوك الصحيح هنا ، أن تقبل عمل الله ، وتدبر عن عـــدوك ، فإذا اشتغلت بمعاداة عدوك نال مراده منك .

قال الشيخ قاسم الخصاص رضى الله عنه : « لاتشتغل قط بمن يؤذيك واشتغل بالله يرده عنك ، فإنه هو الذى حركه عليك ، ليختبر دعواك فى الصدق » .

وقد غلط فى هذا الأمر خلق كثير ، فاشتغلوا بمن آذاهم ، فدام الأذى مع الاثم ، ولو أنهم رجعوا إلى الله لردهم عنهم ، وكفاهم أمرهم .

ذلك هو سلوك أهل النظر من كبار الصوفية ، رواد الوعى الروحى فى الإسلام .

ويرون أن الشيطان المسلط على أهل الوعى الروحى ، هو من بنى آدم ، لا من شياطين الجن وهو أفقه وأعلم من شيطان الجن .

ويرى بعضهم أن كليهما مسلط على الإنسان ولكن (كيد الشيطان كان ضعيفا) .

يجب على من نزل به ضر ، أو أصابته حاجة ، أن ينزل حاجته بالله أولا ، ولا ينزلها بمخلوق ، بل يجمع همته على ربه ، ويخلو إلى ذكره بكليته فإذا شكا إلى مخلوق فقد أغلق باب الاضطرار بيده ، والاضطرار إلى الله هو سر الاستجابة .

وصل الصلوات الواردة فى هذه الحالات ، وادع بالأدعية المتواترة ، وليكن الدعاء بعين الروح لا باللسان ، فالله لايجيب دعوة اللسان ، لأنها تنبع من معين الاضطرار ، فالاضطرار الحق يحرك الروح .

قال تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) .

استغفار الخضر :

الذنوب أساس الشدائد . ولذلك يقول الله تعالى :

(استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا) .

فقد علق سبحانه الخير والقوة على طلب غفران الذنوب الحاجبة بين العبد ورحمة ربه .

ومن مكفرات الذنوب التى تفسح الطريق للرخاء والرضا والرزق والإجابة ، استغفار الخضر عليه السلام :

« اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسى ، ثم لم أوف لك به ، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطنى فيه غيرك ، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فاستعنت بها على معصيتك ، وأستغفرك ياعالم الغيب والشهادة من كل ذنب أذنبته فى ضياء النهار ، أو فى سواد الليل ، أو فى ملأ أو فى خلاء سرا وعلانية ياحليم » .

ذكره ابن المشرى فى الروض ، نقلا عن شيخه .

وذكر سيدى أحمد التيجانى ، أن من ذكره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . وإن كانت مثل زبد البحر .

وذكره الشيخ بدر الدين الحموى فى شرح الصلوات المشيشية :

وروى صاحب القوت الاستغفار هكذا :

« اللهم إنى أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه ، اللهم إنى أستغفرك من كل عقد عقدته لك ألم أوف لك به ، اللهم إنى أستغفرك

من كل نعمة أنعمت بها على فقويت بها على معصيتك ، اللهم إنى أستغفرك من كل عمل عملته لوجهك خالطه فيه ما ليس لك ، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فاستعنت بها على معصيتك ، وأستغفرك ياعالم الغيب والشهادة من كل ذنب أذنبته فى ضياء النهار ، أو سواد الليل ، فى ملأ أو خلاء ، سرا وعلانية ياحليم » .

قال أبو عبد الله الوراق : « لو كان عليك مء ل القطر وزبد البحر ذنوبا لمحيت عنك إذا دعوت ربك بهذا الدعاء ومخلصا من قلبك » .

والأفضل الاتيان بالصيغتين ، جمعا بين أعمال الفضلاء .

سيد الاستغفار :

« اللهم أنت ربى ، لاإله إلا أنت ، خلقتنى وأناعبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذبك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت .

استغفار الفجر :

« سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، أستغفر الله » مائة مرة بين سنة الفجر وصلاة الفجر .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما . أن رجلا قال : يارسول الله ، إن الدنيا قد أدبرت عنى وتولت ، قال له : « فأين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق ، وبه يرزقون ، قل عندطلوع الفجر : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، أستغفر الله (مائة مرة) تأتك الدنيا صاغرة ، فولى الرجل ، ثم عاد فقال : يارسول الله . قد أقبلت على الدنيا فما أدرى ، أين أضعها .

رواه الخطيب ، كذا فى المواهب اللدنية .

صلوات ينصح بها الرسول صلى الله عليه وسلم والأولياء الكرام :

١ - عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اثنا عشر ركعة تصليهن من ليل أو نهار ، وتتشهد بين كل ركعتين ، فإذا تشهدت فى آخر صلاتك ، فأثن على الله عز وجل ، وصل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم كبر واسجد . واقرأ وأنت ساجد : فاتحة الكتاب سبع مرات ، وآية الكرسى سبع مرات ، وقل : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . عشر مرات . ثم قل : اللهم إنى أسألك بمعاقد العز من عرشك . ومنتهى الرحمة من كتابك . واسمك الأعظم . وجدك الأعلى . وكلماتك التامة . ثم سل حاجتك . ثم سلم يمينا وشمالا . ولا تعلموها السفهاء . فإنهم يدعون بها فيستجاب لهم » .

رواه الحاكم والبيهقى . وذكر جمع من رواته أنهم جربوه . فوجدوه حقا . لكن سنده واه بمرة .

وقال الحافظ السخاوى : إن أصح أسانيده . ما رواه هشيم بن أبى ساسان . عن ابن جريج عن عطاء .

٢ - عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : « من كانت له إلى الله حاجة . أو إلى أحد من بنى آدم . فليحسن وضوءه وليصل ركعتين ، ثم يثنى على الله ويصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم ليقل : لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان الله رب العرش العظيم . والحمد لله رب العالمين . أسألك موجبات رحمتك . وعزائم مغفرتك والغنيمة من كل بر . والسلامة من كل ذنب . لا تدع لى ذنبا إلا غفرته ؛ ولا هما إلا فرجته ، ولا حاجة هى لك رضا إلا قضيتها يا أرحم الراحمين » .

أخرجه الترمذى ، وابن ماجة ، والطبرانى ، وعبد الرازق ، من طريق أبى بكر الشافعى ، وغيرهم ؛ وقال الترمذى : غريب .

وقال الحافظ السخاوى : إنه ليس بموضوع كما ذكره ابن الجوزى ، فقد رواه الحاكم من حديثه ، وقال كوفى عداده فى التابعين ، وقد رأيت جماعة من أعقابه وحديثه مستقيم ، إلا أن الشيخين لم يخرجا له .

وقال ابن عدى : هو مع ضعفه يكتب حديثه .

٣ ـ عن عثمان بن حنيف رضى الله عنـه ، قال : « شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه رجل ضرير البصر ، فشكا إليه ذهاب بصره ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : ائت الميضأة فتوضأ ؛ ثم ائت المسجد ، فصل ركعتين ؛ ثم قل اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك ، بنبيك نبى الرحمة ، يا محمد ، إنى أتوجه بك إلى ربى ، فيجلى لى عن بصرى ، اللهم شفعه فى ، وشفعنى فى نفسى » .

قال عثمان : فوالله ما تفرقنا ، وطال بنا الحديث ، حتى دخل الرجل ، كأنه لم يكن به ضر .

أخرجه البيهقى فى الدلائل ، وهو من رواية أبى أمامة ، عن عمه عثمان ابن حنيف ؛ وأخرجه النسائى والترمذى ، وقال : حسن صحيح غريب ؛ وأخرجه أحمد ، وابن خزيمة والحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما .

وفى لفظ آخر : « اللهم إنى أسألك ، وأتوجه إليك ، بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجته هذه ، فيقضيها لى ، اللهم شفعه فى ، وشفعنى فى نفسى » .

٤ ــ عن أبى سليمان الدارانى ، قال : « من أراد أن يسأل الله حاجة ، فليبدأ بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويسأل الله حاجته ، وليختم بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فإن الله يقبل الصلاة وهو أكرم من أن يرد ما بينهما » .

٥ — عن الحسن البصرى ، أنه قال : هـذا الدعاء هو دعاء الفرج ، ودعاء الـكرب :

ياحابس يد إبراهيم عن ذبح ابنه ، وهمايتناجيان ، اللطف ياأبتى . يابنى يامقبض الركب ليوسف فى البلد القفر ، وغيابة الجب ، وجاعله بعد العبودية نبيا ملـكا ، يامن سمع الهمس من ذى النون ، فى ظلمات ثلاث ، ظلمة قعر البحر ، وظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، ياراد حزن يعقوب ، ويا راحم عبرة داود ، وياكاشف ضر أيوب ، يامجيب دعوة المضطرين ، ياكاشف غم المهمومين ، صل على محمد ، وعلى آل محمد وأسألك أن تفعل بى كذا .

٦ — عن جعفر الصادق ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان إذا حزبه أمر دعا بهذا الدعاء : « اللهم احرسنى بعينك التى لاتنام ، واكنفنى بركنك الذى لايرام ، وارحمنى بقدرتك على فلاأهلك وأنت رجائى ، فـكم من نعمة أنعمت بها على ، قل لك بها شـكرى ، وكم من بلية ابتليتنى بها قل لك بها صبرى ، فيامن قل عند نعمته شـكرى فلم يحرمنى ، ويامن قل عند بليته صبرى فلم يخذلنى ، ويامن رآنى على الخطايا فلم يفضحنى ، ياذا المعروف الذى لاينقضى أبدا ، وياذا النعماء التى لاتحصى عددا ، أسألك أن تصلى على محمد وآل محمد وبك أدرأ فى نحور الأعداء والجبابرة ، اللهم أعنى على دينى بالدنيا ، وعلى آخرتى بالتقوى ، واحفظنى فيما غبت عنه ، ولا تكلنى إلى نفسى فيما حضرته ، يامن لا تضره الذنوب ، ولا تنقصه المغفرة ، هب لى مالاينقصك ، واغفر لى مالا يضرك ، إنك أنت الوهاب ، اللهم إنى أسألك فرجا قريبا ، وصبرا جميلا ، وأسألك العافية من كل بلية ، وأسألك تمـام العافية ، وأسألك دوام العافية ، وأسألك الشـكر على العافية ، وأسألك الغنى عن الناس ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى ، وعلى آله وصحبه وسلم » .

وذكره «طاش كبرى زاده» فى الجزء الثالث من كتابه « مفتاح السعادة »

ومصباح السيادة ، وذكر أنه حمله وجربه ، وقال : ينبغى لمن يتوقع بلية ، ألا يخلو جيبه منه .

٧ — روى عبد الرازق الطبسى ، بسند عن ابن عباس ، رفعه : « من كانت له حاجة إلى الله ، فليقم فى موضع لايراه أحد ، وليتوضأ وضوءا سابغا ، وليصل أربع ركعات ، يقرأ فى كل ركعة منها الفاتحة مرة ، وقل هو الله أحد ، فى الأولى عشرا ، وفى الثانية عشرين ، وفى الثالثه ثلاثين ، وفى الرابعة أربعين ، فإذا فرغ من صلاته ، قرأ : قل هو الله أحـــد خمسين وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم سبعين ، وقال : لاحول ولا قوة إلا بالله سبعين ، فإن كان عليه دين قضى الله دينه ، وإن كان غريبا رده الله ، وإن كانت ذنوبه مثل عنان السماء ، ثم استغفر ربه غفر له ، وإن دعاه أجابه ، وإن لم يدعه غضب عليه » .

وكان يقول : لاتعلموها سفهاءكم فيستعينوا بها على فسقهم .

٨ — عن وهيب بن الورد ، قال : بلغنا أنه من الدعاء الذى لايرد ، أن يصلى العبد اثنى عشر ركعة ، يقرأ فى كل ركعة بأم القرآن ، وآية الكرسى وقل هو الله أحد ، فإذا فرغ من صلاته ، خر ساجداً وقال : « سبحان الذى لبس العز وقال به ، سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به ، سبحان الذى أحصى كل شىء بعلمه ، سبحان الذى لاينبغى التسبيح إلا له ، سبحان ذى العز والتكرم ، سبحان ذى الطول ، أسألك بمعاقد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك ، وباسمك الأعظم ، وجدك الأعلى ، وكلماتك التامات كلها ، التى لايجاوزهن بر ولا فاجر ، أن تصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ثم تسأل الله ماليس بمعصية .

رواه الطبسى فى الصلاة له من وجهين ، والنميرى فى الأعلام ، وابن بشكوال .

٩ — ومما اشتهر عن العلماء لدفع الفقر ، سورة الواقعة ، والمزمل ، والليل ، وألم نشرح ، كل سورة مرة فى كل يوم ، ولا إله إلا الله ، الملك الحق المبين ، مائة مرة فى كل يوم .

١٠ — قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها « عليك بالجوامع الكوامل ، قولى : اللهم إنى أسألك من الخير كله ، عاجله وآجله ، ماعلمت منه ، ومالم أعلم ، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ، ماعلمت منه ومالم أعلم ، وأسألك الجنة وماقرب إليها من قول وعمل ، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها ، من قول وعمل ، وأسألك من الخير ماسألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم ، وأستعيذك مما استعاذك منه عبدك ورسولك : محمد صلى الله عليه وسلم وأسألك ماقضيت لى من أمر أن تجعل عاقبته رشدا . برحمتك يا أرحم الراحمين » .

١١ — وقال صلى الله عليه وسلم لسيدتنا فاطمة رضى الله عنها : « يافاطمة مايمنعك أن تسمعى ماأوصى به ؟ أن تقولى : ياحى ياقيوم برحمتك أستغيث ، لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح شأنى كله » .

١٢ - ورأيت على بعض المخطوطات القديمة فى خزائن المدينة المنورة :

ا) « يا غياثى عند كل كربة ومجيبى عند كل دعوة ، ومعاذى عند كل شدة ، ورجائى حين تنقطع حيلتى ، يا غياثى » تسعا وتسعين مرة وتصلى على النبى صلى الله عليه وسلم فى أولها وآخرها .

ب) تصلى ركعتين ، بما تيسر من القرآن الكريم ، ثم بعد السلام ، تقول : أستغفر الله العظيم ربى إنه كان غفارا ، سبعين مرة ، ثم : اللهم صل على سيدنا محمد القائم بحق الله ، ماضاق أمر إلا فرجه الله . سبعين مرة . ثم تقول : ياعزيز سبعمائة وسبع وسبعين مرة . ففيه سر عجيب .

حـ) قراءة سورة (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) ثلاثا بعد الصبح ، وثلاثا

بعد المغرب ، ثم تقول بعدها : ياصاحب القدرة فرج همى وغمى .

هذا قليل من كثير من الصلوات والأدعية الواردة لإزالة الكرب والشدائد والفاقة ، وقد زخرت بها الكتب فليرجع إليها من أراد الاستكثار منها ، وإنما تخيرنا منها بعض ماصح سنده ، وتركنا الباقى لئلا تكون تلك الصلوات بذاتها غاية مايفعل المكروب ، أومقصوده لذاتها بشكلها وحروفها

تلك سقطة سقط فيها العامة والعلماء منذ قديم إلى الآن ، إلا القليل منهم ونرجو أن نوفق فى فتح بصائر الناس عليها ، وأن يكون آخر العهد بهذه . السقطة هو هذا البيان بحول الله وقوته .

أما السقطه ، فإن الناس حينما طالعوا هذه الأخبار ظنوا أن اتجاههم بها إلى ربهم بنية قضاء حوائجهم كفيل بقضائها ، وإزاحة الكرب عنهم ، دون غيرها .

والواقع أن هذا الاتجاه حجاب يحجب الرحمة العامة فى الكون ، المتدفقة فى جميع مظاهره ، هو عمل أجير السوء الذى ينافق صاحب العمل والذى نرى من أمثاله فى العصر الحاضر الكثير ، يجتمعون حول صاحب العمل يحلفون إنما أرادوا خدمته وحده ، من أجله هو ، وقلوبهم معلقة بما يحصلون عليه من زيادة نظير تلك المجاملة الآثمة .

إن روح النفاق بين الناس تمتد إلى مابين الناس وبين الله تعالى ، وجلسة قصيرة مع الذين يثرثرون بمسائل الإيمان توقف البصير على هذا الداء الخطير ، ومن أجل هذا أجمع الصوفية على أن أكثر الناس إشارة إلى الله هم أبعدهم عنه . ومن أجل هذا كذلك كانت لفتة الشيخ العارف « العربى الدرقاوى » فهما بصير الواقع الأمر . حيث صرف نظر الناس عما يصفه الشيوخ من أذكار وصلوات لدفع الهموم والفاقة وحثهم على المضى فيما أمرهم الله به . وعدم الالتفات إلى الشدائد والهموم ؛ فى القول الذى أثبتناه له فى أول الفصل .

وقد نهج الشيخ الدرقاوى وأمثاله من أهل البصر العميق منهج سيد العارفين صلى الله عليه وسلم وقد أسس الرسول صلى الله عليه وسلم الدعاء على طلب الغفران . والزيادة من الخير . والتوفيق للطريق السديد فى معاملة الرب . وإزالة الهموم لأنها تعترض صفاء الروح . وتغشى جوهرها فى غالب أحوال الناس . إلا العارفين الذين لهم حجب أخرى استغفروا منها استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم بالقدوة لا بالحقيقة .

وأدعية الرسول صلى الله عليه وسلم . وأدعية آله التى علمهم إياها . كلها لا تتجه إلى حاجة بعينها كما يفعل عامة المتدينين . والجهلة من شيوخ الطريق الصوفى الذين أسسوا بين أتباعهم طريق الأذكار الخاصة لقضاء حاجات معينة .

إن هذه السقطة التى لاقت رواجا شعبيا هائلا لا تعطى معنى الإجماع الذى يجيز تصحيح هذا السلوك فى الإسلام لأنها تدخل تحت قانون الإجماع الزائف الذى نبه عليه القرآن الكريم فى خطابه لرسوله العظيم بقوله تعالى (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) ونبهت عليه السنة فى مسألة الدعاء الذى لا يعين حاجة بعينها . بل يعين ما يزيح عن الروح كل حجاب يمنع الرحمة الدافقة على الكون فى كل طرفة عين لا تكف عن إغراق الكون فى ألوانها ومشاربها . فإذا شعر العبد بأن الرحمة لم تصبه . فإن عدم إصابتها له ما هو إلا لعدم تفتح روحه لاستقبالها .

إذا تفتح البرعم الروحى فى الإنسان ازدهرت زهرة الروح ، واهتزت أوراقها بين النسمات والنفحات والملاطفات ، وتجلى جمال الزهرة فى الجمال والجلال كما يتجلى الجمال فى الزهرة بين رخاء النسيم وهبوب الرياح .

إن ما يحقق رغبات الإنسان الخاصة ليس إلا تفتح الروح لتغمرها الحكمة والقوة حيث لا يجد فى كلمات الدعاء إلا عونا على هدوء العقل وشعوره

بالرضا ، لا عونا على قضاء الحاجة بذاتها ، لأن حجاب الروح بهذا وأمثاله يحجب اللطف الإلهى عن أن يحيط بالروح من جوانبها لئلا تكون لها حاجة ، لأن كل حاجاتها ميسرة .

وقد كانت أدعية الصحابة ، والتابعين ، سيرا على السنن المحمدية بتوجيه الدعاء إلى طلب الغفران لأن الذنب من الجارحة والخاطر والهاجس كله رين وحاجز بين العبد وبين الدخول فى رحمة الله أو بين استقبال رحمته العامة الغامرة .

وسنضرب لذلك مثلين :

أحدهما لسيدى مصطفى البكرى فى ورد السحر حيث يقول :

« إلهى هذه أويقات تجلياتك ومحل تنزلاتك ونحن عبيدك الواقفون على أعتابك الخاضعون لعزة جنابك الطامعون فى سنى بهى شرابك فلا تردنا على أعقابنا خائبين بعد ما قصدناك متذللين يا ألله يارحمن يا رحيم .

اللهم لانقصد إلا إياك ولا نتشوق إلا لشرب شرابك ، وبديع حمياك

اللهم ياواصل المنقطعين أوصلنا إليك ولا تقطعنا بالأغيار عنك . برحمتك يا أرحم الراحمين » .

وثانيهما : لسيدى أبى الحسن الشاذلى ، فى « حزب البر » حيث يقول مصورا ما يجب أن يكون عليه السلوك الإنسانى أمام القضاء والقدر ، وأمام حاجات النفس لدى بارئها :

« اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم فكيف لانعجز عن دفع ذلك بما لانعلم ، وقد أمرتنا ونهيتنا ، والمدح والذم ألزمتنا ، فأخو الصلاح من أصلحته ، وأخو الفساد من أضللته ، والسعيد حقا من أغنيته عن السؤال منك ، والشقى حقا من حرمته مع كثرة السؤال

لك فأغننا بفضلك عن سؤالنا منك ، ولاتحرمنا من رحمتك مع كثرة سؤالنا لك ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير .

ياشديد البطش ، ياجبار ، ياقهار ، ياحكيم نعوذ بك من شر ما خلقت ، ونعوذ بك من ظلمة ما أبدعت ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدرت ، وأردت ، ونعوذ بك من شر الحساد على ما أنعمت ، ونسألك عز الدنيا والآخرة كما سألك نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، عز الدنيا بالإيمان والمعرفة ، وعز الآخرة باللقاء والمشاهدة ، إنك سميع قريب مجيب » .

وهكذا يتجه التصوف نحو التسامى بالروح عن يقين المطالب المادية التى تتصل بمدركات النفس وبمجالات العقل الواعى إلى درجة الوعى الروحى الشامل الذى يعلو على المادة والعقل وقيودهما إلى فسحة الروح ، وفضاء الراحة واليقين ، والإيمان الحق ، الذى يريده الله .

وكل ما ورد فى الشريعة من أدعية خاصة لدفع الفاقة وغيرها من مطالب النفس فإنما هى لاسترقاق النفوس وتوجيهها نحو ذكر الله بما يلائم طبعها ، ويعرضها فى الوقت نفسه لنفحات الله التى بثها الله فى أيام دهرنا ، وأمرنا بالتعرض لها ، وهو أمر مشروع كما قال الشيخ أحمد زروق فى كتابه « قواعد التصوف » ولكنه مشروع للبادئين فى سلوك الطريق نحو الإيمان واليقين لا لأهل الوعى الروحى والرضا والتسليم ، وهى سند ضعاف اليقين فى صراع الحياة .

والحاجات الفرعية المعنية التى يلجأ المسلم إلى ربه فيها تدفع المسلمين إلى الانحلال الدينى بلا نزاع . ومن ثم إلى الانحلال الاجتماعى ، والاضطراب الفكرى ، والشغب السائد فى العالم كله .

إن الاتجاه إلى تلك الحاجات التى يتطلبها الجسد نزول من آفاق السمو ، إلى آفاق الدنايا والصغائر ومن أجل ذلك صغر الإنسان ، وانحط ضميره ، وكان عاملا من عوامل اضطراب المجتمع .

إن الشرائع كلها تتجه إلى رفع الإنسان من وهدة الحيوانية التى اجتاز مراحلها إلى مرحلة يكمل فيها الوعى الروحى ، وينظر الإنسان فيها إلى الكون بعين يتلاشى فيها الخير والشر .

(وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) .

وحينئذ سيجد الإنسان أن كل حاجاته تلاحقه وتطلبه ، حتى ولو نفر منها ، ولن يجد فى نفسه حاجة إلى شغل وقته بطلبها وتمريغ وجهه ابتهالا إلى الله لقضائها ، بل إنه سيحيا حياة جديدة .

التصوف يرسم معالم الحياة الجديدة :

يبدو للكثيرين أن الصوفى الزاهد صاحب خيالات ، لا يصلح لأعمال الحياة ، مجرد حالم ينسج أوهاما من خيوط الخمول ولكن الذين نفذ بصرهم من السطحيات إلى لب الحقائق يتبين لهم أن الصوفى العامل رجل يركن إليه فى كل فرع من فروع الحياة .

إن مجرد زهده وعدم تعلقه بالمظاهر يعطيه قوة يفتقر إليها الرجل العادى .

الصوفى لا يخاف . فهو جسور مقدام ، لعلمـــه أن سعادته ونجاحه لا يتوقفان على ملابسات بذاتها ، وهو واثق دائما من أنه سيخرج من أية ظروف أو محنة أو شدة آمنا سالما .

إنه يشعر بأنه يرتكز على قوة ثابتة ، وأن قوة سر الكون تظاهره ، وتشد أزره ، وهذا الشعور يكسبه قوة وشجاعة يفتقر إليهما الرجل الذى يظن أن سعادته تتوقف على نجاحه فى عمل بذاته ، ويرى أنه إذا نجح فيه كسب كل شىء ، وإن فشل كان فى الفشل نهايته . وأمثال هذا النوع غالبية عظمى بكل أسف .

الصوفى يلقى نفسه فى تيار الحياة مندفعا معه ، نشدان بمد الموج وجزره ، ينشد فى كلا الحالين أنشودة الحقيقة العظمى ، يناجى بها مهندس الكون الأعظم رب العالمين وبارئها .

استمع إلى سيدى يحيى الباكوبى ، فى ورد « الستار » :

إلهى ما عبدناك حق عبادتك يامعبود .

إلهى ماعرفناك حق معرفتك يامعروف .

إلهى ما شكرناك حق شكرك يامشكور .

إلهى ما ذكرناك حق ذكرك يامذكور .

فضلا من الله ورحمة .

شكرا من الله ونعمة .

لله الحمد والمنة .

الحمد لله على الطاعة والتوفيق ونستغفر الله العظيم من كل ذنب ، عمد وسهو وخطأ ونسيان وتقصير .

اللهم لك الحمد حمدا يوافى نعمك ، ويكافىء مزيدك ، نحمدك بجميع محامدك ماعلمنا منها ومالم نعلم ، ونشكرك على جميع نعمك ماعلمنامنها ومالم نعلم.

أرأيت إلى تلك الطمأنينة العميقة التى تسود هذا النص الأدبى من أوراد الصوفية ومناجاتهم ، فى حالى الشدة والرخاء اللذان يعتبران عند الصوفى عبارة عن رحلة بحرية جميلة ، ينعم فيها بالمد والجزر .

ليس التصوف كما يظن بعض الناس ، مذهب الخمول والتواكل ، حتى يقال إنه اتجه فى حل المشاكل اتجاها سلبيا يتسم بالضعف والخنوع ، ولكنه مذهب حل المشاكل بتصحيح العمل .

قيل لميمون بن مهران رضى الله عنه :

« إن ها هنا أقواما يقولون نجلس فى بيوتنا ، وترد علينا أرزاقنا » .

فقال : « هم قوم حمق ، إن كان لهم يقين مثل يقين إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فليفعلوا » .

ويقول سعيد بن المسيب رضى الله عنه ، وهو قدوة أوائل الصوفية الكبار : « لاخير فيمن لا يجمع الدنيا يصون بها دينه ، ويصل بها رحمه » .

ويقول عبد الله بن المبارك رضى الله عنه : « لا يخرج العبد من الزهد إمساك الدنيا ليصون بها ماء وجهه من سؤال الناس » .

إنهم يعملون ولا ينظرون إلى أجور أعمالهم ، لأنهم آمنوا بمبدأ العمل من حيث أنهم أجزاء من هذا الكون ، لا ينفصلون عنه ، ولا بد أن يتجاوبوا مع تلك الحركة الكونية العظمى ، سعداء بتأملاتهم العميقة ، وأذكارهم التى سرت فى دمائهم ، فلا تعوقهم عن العمل الخالص كأنه يرى الله ، أو كأن الله يراه .

عرفوا أن معصية القلب هى الغفلة عن مراقبة الله تعالى ، ورؤية الأغيار ، والتعلق بها ، وأنها نوع من الشرك الخفى ، وعرفوا أن معصية العقل هى محاولة التأويل واختلاق الحجج الداحضة التى تبرر أنواعا معينة من السلوك يترتب عليها ألوان معينة من المشكلات والضائقات ، وعرفوا أن معصية النفس هى خرق حجاب الحكمة وناموس الكون ، ولا بد أن يترتب عليها مشاكل ، وضوائق هى الأخرى .

عرفوا ذلك ، فعرفوا سر بروز الضائقات فى حياة الإنسان ، فسدوا عليها الطريق ، فأناروا واستناروا . آمنوا بهذا السلوك الذى يجتث أصل الداء ، لئلا يحوله الداء عن وجهة الحق جل جلاله ، إلى وجهة الشكوى والضيق ، والنظر إلى البلاء ، وشغل الوقت به ، انحرافا عن أصل الطريق .

عرفوا أن الله تعالى ليس عليه حكم ، ولا خرج شىء عن حكمه ، فمن فنى فى الله ، استحال وقوع الحكم عليه ، والأحرار فى ذلك متفاوتون ، وكل حر بحكم ما فنى منه ، وما بقى من نفسه .

وقد كشف سيدى محمد وفا رضى الله عنه وجوه تلك المسألة فى مواضع كثيرة من كتابه « نفائس العرفان » تصوف . مخطوط بدار الكتب المصرية . ويقول فى أحدها :

« أوجد الله قلب الإنسان بالتوحيد والجمع ، وأوجد الإدراك البشرى للتميز والفرق ، فمتى استولى الإدراك البشرى على القلب الإنسانى ، فرقه فى مقام جمعه ، ونقله بعد الموت ، إلى مقام الحس ، وغمسه فى وحشة الفرق ، وإن غلب حكم القلب حكم الإدراك البشرى ، رقاه الله إليه بعد الموت ، وجمعه فى حضرة (ماودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى) . ومن جعل الهموم هما واحدا ، جمع الله همه ، وجعل غناه فى قلبه ، ومن تفرقت عليه الهموم فـلا يبالى إلا الله فى واد من أودية الدنيا هلك » .

من أجل ذلك كله ، شغل الصوفية رضوان الله عليهم بالمعرفة ، وأفيضت عليهم المعارف الرحمانية الموروثة بالتخصيص ، والتى لا يحصلها كشف ولا فراسة ، ولا يقيدها نظر صحيح ، بل يقيدها ذوقهم الخاص ، الذى ازدهر بين الاستدلال بمعرفة كل شىء على معرفة النفس ، والاستدلال بمعرفة النفس على معرفة الله عز وجل ، صعودا ، وبين الاستدلال بالله على معرفة النفس ، وبمعرفة النفس على معرفة كل شىء ، نزولا : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .

الصوفى عرف الباب الذى يكمن وراءه الضر والحاجة ، فأحكم رتاجه ، فمن نسى الله نسيه ، ونسيان الرب لعبـده ، عبارة عن تجليه له أبدا بوجه الغيرة ، فى حجاب المغايرة (والله أشد بأسا ، وأشد تنكيلا) « نفائس العرفان لسيدى محمد وفا مخطوط ، نسخة خاصة » .

لكل هذه الحقائق التى هى جوهر الإيمان الخالص ، والدين الخالص ، لم يستحسن الصوفية أن يوجهوا صلاة الضر والحاجة إلى حاجة من حوائج

الدنيا بعينها ، بل يجب أن يوجهها المضطر إلى طلب دفع الوزر وشرح الصدر ، ودفع الإصر ، واستنزال الرحمة واللطف ، والتوفيق فى الخدمة ، والعون على التوجه ، واللجوء إلى الباب .

وفى أثناء ذلك هم عاملون فى عبادة ربهم ، وفى أسباب حياتهم بمراقبة ربهم ، ولا عليهم بعد ذلك لأنهم يؤمنون بأن الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ، ولكنها لا تصيب الذاكر . لأن الذاكر مذكور (أذكروا الله يذكركم ويثبت أقدامكم) .

يجب أن يسمو الإنسان بمداركه إلى منطقة أرقى من منطقة الوقوف عند مشكلة بعينها تقترض حياته واندفاعه فيركز أدعيته وصلواته على طلب مايدفع عنه أسباب الشدائد ، وهو الاستقامة وسلامة الضمير ، وإخلاص العمل لله .

ويجب أن يتعاون المسلمون فى الدعاء بعضهم لبعض ، بتلك المطالب التى لا يضن الله بها على مسلم دعا لمسلم بظهر الغيب ، ومن هنا تذوب الأنانية ، التى ينتج عنها لون خاص من التنافس ، يتحطم فيه أحد المتنافسين ، ويصرع الآخر بسلاح الاستدراج الإلهى .

إن كل مقدور إنما خطه الإنسان بيده ، فليس العلاج فى طلب محو بعض الخطوط ، وإنما العلاج فى تصحيح السلوك لتستقيم الخطوط ، خطوط القدر ، التى كتبتها باستقامتك على جادة الطريق ، منابع نور تغمر روحك بالسعادة ، وقلبك بالرضا والعزة ، ونفسك بالخير ، وظاهرك بالسماحة والحب والضياء .

وخلاصة مذهب الصوفية فى الضر والحاجة ، ما أكده العارف بالله سيدى أحمد العربى الدرقاوى على بعض تلاميذه فى بعض رسائله : « ونؤكد عليك ألا تبادر إلى التعلق بأحد وقت حيرتك ، لا بالكتابة ولا بغيرها ،

وإلا أغلقت باب الاضطرار بيدك ، وهو يقوم لك مقام الاسم الأعظم ، والحيرة والفاقة عبارة عن شدة الاحتياج ، وهى تقوم مقام الاسم الأعظم ، وربما وجدت من المزيد فى الفاقة مالا تجد فى الصلاة والصوم وقد كان أستاذى رضى الله عنه «يعنى سيدى على العمرانى المشهور بالجمل » يقول لصاحب الحيرة :

« أرخ روحك ، تتعلم العوم » .

أوقات إجابة الدعاء :

١ - ليلة القدر
٢ - شهر رمضان
٣ - ليلة الجمعة ويومها
٤ - ليلة العيدين
٥ - أول ليلة من شهر رجب
٦ - ليلة نصف شعبان
٧ - جوف الليل
٨ - ثلث الليل الأخير
٩ - وقت السحر
١٠ - ساعة الجمعـــة
١١ - وقت النداء للصلاة
١٢ - بين الأذان والإقامة
١٣ - وقت نزول الكرب
١٤ - عقب الصلاة المكتوبة
١٥ - فى السجود
١٦ - عقب تلاوة القران
١٧ - عند قراءة « ولا الضالين »
١٨ - عند شرب ماء زمزم
١٩ - عند صياح الديك
٢٠ - عند الاجتماع للذكر على آداب الشرع
٢١ - عند نزول الغيث
٢٢ - عند الزحف فى سبيل الله
٢٣ - وقت صفاء القلب من المشوشات
٢٤ - وقت الإفطار
٢٥ - بين الظهر والعصر
٢٦ - وقت السفر
٢٧ - وقت الاضطرار

الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء :

١ - عند رؤية الكعبة .

٢ - فى المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم

٣ - فى الطواف ٤ - عند الملتزم

٥ - داخل الكعبة ٦ - عند زمزم

٧ - خلف مقام ابرهيم عليه السلام ٨ - على الصفا والمروة

٩ - فى السعى بين الصفا والمروة ١٠ - فى عرفات

١١ - فى مزدلفة ١٢ - فى منى وعند الجمرات

١٣ - عند قبور الأنبياء ١٤ - عند قبور الصالحين

من يستجاب دعاؤهم :

١ - المضطرون

٢ - المظلومون مطلقا ولو كانوا كفارا أو فجارا

٣ - الوالد لولده ٤ - الإمام العادل

٥ - الرجل الصالح ٦ - الولد البار لوالديه

٧ - المسافر حتى يعود ٨ - الصائم حين يفطر

٩ - الحاج حتى يعود إلى بيته ، وبعد ذلك بأربعين يوما .

١٠ - الغازى فى سبيل الله حتى يعود

١١ - التائب من ذنوبه

١٢ - دعاء المؤمن للمؤمن بظهر الغيب

علامات استجابة الدعاء :

١ ـ الخشية من الله ٢ ـ البكاء عند الدعاء أو بعده
٣ ـ الغشوة أو الغيبة ٤ ـ ظهور النشاط باطنا
٥ ـ الخفة ظاهرا ، حتى يظن الداعى كأن شيئا ثقيلا على كتفيه ووضعه

أركان الدعاء وأجنحته :

أما أركان الدعاء فهى : حضور القلب ، والرقة ، والاستكانة ، والخشوع وتعلق القلب بالله ، وقطعه عن الأسباب .

وأما أجنحته ، فهى : الصدق ، وموافقة الأسحار

وأما أسبابه ، فالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم

شروط استجابة الدعاء :

من أعظم شروط استجابة الدعاء ، التوبة قبل الدعاء ، ورد المظالم ، والاستغفار لأصحابها إن تعذر معرفتهم ، والتصدق قبل الدعاء ، وأكل الحلال ، وصدق المقال ، وألا يستعجل ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى أوله وآخره ، والتوجه إلى القبلة ، وطهارة الثوب والمكان .

أحكام الدعاء :

الدعاء على أنواع : مستحب ، ومكروه ، وحرام ، وكفر .

ومن دعاء الكفر : « اللهم اغفر لجميع المؤمنين جميع ذنوبهم ، ولا تدخل النار أحدا منهم » وهو عند الشافعى حرام ، وقيل جائز .

وروى عن أبى هريرة مرفوعا : « ما من دعاء أحب إلى الله من قول العبد : اللهم اغفر لأمة محمد رحمة عامة » وقال عليه السلام : « أحب الكلام

إلى الله تعالى أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ،

ومن أحب الدعاء ، ما ابتدىء فيه بالنداء ، أو بالتنزيه ، أو بالتمجيد أو كان مشتملا على اسم من أسماء الله الحسنى ، ويستحب أن يقدم الوارد فى القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة .

والدعاء المكروه هو طلب الانتقام من المسلم . والدعاء الذى لم يشترك فيه المسلمون عامة ، والحرام هو طلب المعصية .

والأذكار والآيات أدوية يستشفى بها ، وهى نافعة فى ذاتها ، فإذا تخلف الدعاء ، ولم يستجب فذلك إما لضعف تأثير الفاعل لضعف قلبه ، وفتور همته ، وعدم إقباله على الله ، وتفرق مشاعره ومداركه وعدم اجتماعها عند الدعاء ، فيخرج الدعاء كالسهم الضعيف ، وإما لضعف الدعاء فى نفسه ، كطلب مالا حاجة للإنسان به ، أو طلب مايزيد به الترف ، وأشباه ذلك ، وإما لحصول مانع من الإجابة مثل أكل الحرام ، والظلم ، وغلبة الذنوب ، والشهوات واللهو .

والدعاء ينفع مما نزل ، ومالم ينزل ، لأنه فى حقيقته عبودية اقترنت بسبب ، كما تقترن الصلاة بالوقت .

فإذا نظرنا إلى سابق القسمة ، وجدنا أن الله تعالى يقول : (ماأصاب من مصيبة فى السماء ولا فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) ، كما أننا إذا نظرنا لواجب الحكمة ، وجدنا القرآن الكريم يكرر أن الله تعالى عزيز حكيم ، لذلك كان الدعاء كالصلاة عبادة مقترنة بسبب غير أن الصلاة فرض دائم ، والدعاء قريب من المفروض فى أى وقت ، أما التحقيق فوجوب الدعاء عند سببه ، إتماما للعبودية ، وإلزاما للنفس بها .

ولايجوز أن يقال إن الدعاء تذكير ، لأن التذكير إنما يجوز لمن يجوز عليه الغفلة ، وذلك مستحيل بالنسبة لله تعالى ، ولا يجوز أن يقال إنه تنبيه لأن التنبيه ، لايجوز إلا لمن يجوز عليه الإهمال ، وهو محال ، ولا يجوز أن

يقال إن الدعاء سبب ، فقد جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل .

ومع ذلك فقد جاء الأمر بالدعاء ، وترتيب الإجابة عليه ، فلزم أن يراعى من حيث الحكمة الإلهية،ولذلك صح الدعاء بمفروغ منه ، قال تعالى : (وآتنا ماوعدتنا على رسلك) (ولا تحملنا مالاطاقة لنا به) (ولا تؤاخذنا) « راجع القاعدة ١١٤ من قواعد التصوف للإمام أحمد زروق » .

وعلى أى حال فقد شرعت الأذكار التى تحمل طابع النفع الدينى لخداع النفوس بما يلائم طبعها ، وجذبها من هذه الناحية إلى الذكر أو التلاوة ، وذلك لأنها إن أفادت عين ماقصدت له ، كان ذلك داعيا لحبها وحب من جاعليها ، ومن نسبت إليه أصلا وفرعا ، فهى مؤدية لحب الله من طريق غير مباشر .

وإن لم تؤد ماقصدت له ، فاللطف موجود بها ، ولاأقل من أنس النفس بذكر الله ، والوصول بالعبد إلى هذه النتيجة من حيث الطباع أيسر وأمكن ولهذا الأصل أسس الشيخ أبو العباس البونى ومن نحا نحوه فى ذكر الأسماء وخواصها ، وإلا فالأصل ألا تجعل الأذكار والعبادات سببا فى الأغراض الدنيوية .

أما مايستنبط من الأسماء من الأشكال والأوفاق تأسيسا على خواص الحروف ، فلا يخفى بعده عن الحق والتحقيق ، ولذلك يقول الشيخ الأكبر محي الدين بن العربى : علم الحروف علم شريف ، ولكنه مذموم دنيا ودينا أما دنيا فلتوغل صاحبه فى الأسباب على وجه يخل بالتوكل ، وأمادينا فلأنه شغل فى وجه يخل بعبارتها « القاعدة ١٣٤ من قواعد التصوف لزروق » .

وأفضل النيات لتحصيل فضل الدعاء نية أنه عبادة مقترنة بسبب،فإن كان سببا مزعجا كالنوازل والبلايا ، فهو أقوى مايصل العبد بالرب ، وإن لم يكن هناك سبب مزعج فلتكن النية هى طلب دوام الرضا والعبودية لله ، والسبب هو تحقيق الحـــاجة إلى الله والفقر إليه فى حال الرخاء وفى حال الشدة على السواء .

لمن دعا فى حال الشدة وغفل فى حال الرخاء ، فإنه ناقص العبودية ، ولذلك شرعت الأدعية عقب الصلوات للجميع ، أى لمن كانوا فى شدة ومن كانوا فى رخاء ، وكما أن العبادة مشروعة فى حالى الشدة والرخاء ، فكذلك الدعاء الذى هو مخ العبادة أحرى أن يعم الحالين .

الأحزاب والأوراد والأذكار

قال الشيخ أبو العباس أحمد زروق فى قواعده : « بساط الشريعة ، قاض بجواز الأخذ بما اتضح معناه من الأذكار والأدعية ، وإن لم تصح روايته ، كما نبه عليه ابن العربى فى السراج وغيره ، وجاءت أحاديث فى تأثير الدعاء الجارى على لسان العبد ، والمنبعث من همته ، حتى أدخل مالك رضى الله عنه فى موطئه فى باب دعائه عليه السلام ، قول أبى الدرداء : « نامت العيون وهدأت الجفون ، ولم يبق إلا أنت ياحى ياقيوم » وقال عليه السلام للذى دعا بأنى أسألك بأنك الله الأحد الصمد . . لقد دعوت الله باسم الأعظم ، وكذا قال للذى دعا بياودود يا ودود ، ياذا العرش المجيد ، إلى غير ذلك .

فدل على أن كل واضح فى معناه ، مستحسن فى ذاته ، يحسن الأخذ به سيما إن استند إلى أصل شرعى كرؤيا صالحة ، أو إلهام ثابت المزية ، كأحزاب الشاذلى والنووى ، وغيرهما والوظائف المجموعة من الحديث أكمل أمرا إذ لا زيادة فيها سوى الجمع ، سيما إن أخذت من المشايخ ، وجل أحزاب الشاذلى عند التفصيل والنظر التام للعالم بالحديث من ذلك .

بل وجميع الأوراد والأحزاب التى جاءت عن محققى الصوفية ، كلها مجموعة من الأحاديث والأخبار ، فلا حرج فى استعمالها ، والمواظبة عليها ، لاسيما وقد جرب نفعها فى ترقية الإنسان إلى درجات الوعى الروحى الكامل ، والاستفاضة من العلم الإلهى ، وحضور القلب بصورة تقرب من أن تكون

ملكة فى مبدأ السلوك ، وهى من هذه الناحية معين قوى على الحضور فى الصلاة ، وتصفية القلب من الشواغل فى كل عمل من أعمال العبادة ، وإعداد الإنسان لأن يكون ذاكرا لله تعالى فى أوقات فراغه التى يملؤها غالبا بالهذر والهزل والاجتماع على اللغو من الحديث .

ويقول أبو عبد الله ابن عباد شارح الحكم العطائية عن الأحزاب والأوراد : « إنها من روائح الدين التى يتعين التمسك بها لذهاب حقائق الديانة فى هذه الأزمنة » .

وأما الجمع لتلاوة هذه الأدعية ، فقد جاء فى حديث خبيب بن سلمة الفهرى رضى الله عنه ، قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يجتمع ملأ فيدعو بعضهم ، ويؤمن بعضهم ، إلا استجاب الله لهم دعاءهم »(١) .

وحكى الشيخ أبو اسحاق الشاطبى ، عمل عمر رضى الله عنه به ، وانكاره له ، وعده من البدع الإضافية التى تذم لما يقترن بها لا لذاتها(٢) ، ولذلك قال مالك رضى الله عنه بكراهية الجمع للدعاء سدا لذريعة الابتداع بالزيادة على على ما ورد عن السلف ، والخروج فيه لغير الحق ، والقائلون بسد الذرائع يمنعون جميع الصورة لصورة واحدة .

أما الشافعية فقالوا : إن الممنوع هو مايقع على وجه ممنوع ، ولم يقولوا بسد الذرائع ، ولذلك أجازوا قراءة الأحزاب فى المساجد ، واستندوا فى ذلك إلى الحديث السابق .

أما الجمع للذكر فموضوع آخر غير هذا الموضوع ، وقد جاء عن ابن عباس

---

(١) رواه الحاكم على شرط مسلم وذكره الشيخ أبو زيد الثعلبى فى « دلائل الخيرات » وأظنه نقله من ترغيب المنذرى .

(٢) قواعد التصوف قاعدة (١١٩)

رضى الله عنه : « ما كنت أعرف انصراف الناس من الصلاة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بالذكر .

وعلى أى حال فالجمع للدعاء أو للذكر لابد أن تتوفر فيه شروط ثلاثة :

ا) خلو الوقت عن واجب أو منـدوب مؤكد يلزم من الاجتماع الإخلال به ، كأن يسهر فينام عن الصلاة ، أو يتثاقل فيها أو يخل بورده ، أو يضر بأهله ، إلى غير ذلك .

ب) خلوه عن محرم أو مكروه يقترن به ، كسماع النساء ، أو حضورهن أو حضور من يتقى من الأحداث ، أو قصد طعام لاقربة فيه ، أو فيه شبهة ولو قلت ، أو فراش محرم كالحرير ، أو ذكر مساوىء الناس ، أو الاشتغال بالأراجيف إلى غير ذلك .

ح) التزام الأدب فيه ، من كونه شرعيـا فى لفظه ومعناه ، والتزام السكينة ، ومجانبة الصياح الذى دعا مالكا رضى الله عنه إلى قوله : « أمجانين هم؟ »

ولا شك فى أن دوام الصلاة ، واستحضار الحال الذى ينتج عنها وعن إقامتها على وجهها الصحيح ، يدفع الإنسان إلى استزادة من ذلك الحال ، وهذا الدافع هو « الهمة » التى يتحدث عنها شيوخ السلوك الروحى فى الإسلام وعون الله للعبد على قدر همته ونيته ، والمعين للعبد على المضى فى تقوية الهمة ما تركب فى طبعه على حسب قوة نفسه ، ولذلك قالوا : « إذا علم الصبى ما تميل إليه نفسه من المباحات خرج إماما فيها ، وإذا انتحل مريد السلوك الروحى ما ترجمه حقيقته من الأذكار والأوراد ، كان معينا له على مقصده بدوامه عليها وما داخـل النفس بالبسط كان أدعى للدوام عليه ، ولا شك فى أن دوام الصلاة ، والتزام النوافل يخلق حالة من حالات البسط لدى العابد يدفعه إلى التزام أذكاره وأوراده .

والوجه الصحيح للاستفادة من تلك الأذكار والأوراد التى أوضحناها ألا يقوم بها الإنسان جملة واحدة ، بل يلزمها واحدا واحدا ، ولا ينتقل

من أحدها إلا بعد حصول نتائجه ، فالقاعدة هنا : أن طلب الشيء بوجه واحد مع الإلحاح ، أقرب لنواله ، وأدعى لدوام سببه المطلوب في نفسه(١) .

والمنتقل قبل الفتح كحافر البئر لا يدوم على محل واحد ، وكالمقطر قطرة على كل محل يريد تأثير القطر على المحل أثرا يظهر له أثر .

وعلى هذا يجب أن يبدأ العابد بختم الصلاة ، ويداوم على ذلك ، حتى يظهر له انفساح صدره ، وحبه لورده ورغبته في الدوام عليه ، ثم ينتقل منه إلى حزب «النووى» جامعا بينهما ، وهكذا كلما انفسح صدره لما واظب عليه جمع إليه غيره ، حتى تتسع روحه لكل الأذكار والأوراد يقوم بها كلها وسيجد من الفتح بإذن الله مايدفعه إلى طلب المزيد .

ويجب أن يقتصر في الأذكار التي وردت مقيدة بعدد على ماحدد لها من العدد ، لأن ماخرج مخرج التعليم وقف به على وجهه من غير زيادة ولا نقص فقد روى الشيخ زروق أن رجلا كان يذكر في دبر كل صلاة «سبحان الله والحمد لله والله أكبر» مائة مرة ، فرآى كأن قائلا يقول : «أين الذاكرون أدبار الصلوات فقام. فقيل له : ارجع فلست منهم ، إنما ذلك لمن اقتصر على الثلاث والثلاثين» .

ولاحرج من الجهر بالدعاء لقوله تعالى : «ادعوا ربكم تضرعا وخفية»

وقد فسر التضرع بالجهر والخفية بالإسرار جمع من كبار العلماء منهم الحافظ ابن حجر في فتح البارى ، والنسفي وأبو السعود .

والاعتداء المنهى عنه في آخر الآية في قوله تعالى : (إنه لايحب المعتدين) قصد به التجاوز عن الحد المعقول أو الاختراع فيما لاأصل له في الشرع ، أو طلب مالا يستحب .

---

(١) قواعد التصوف قاعدة (٩٧)

ويحسن الإخفاء إذا خيف الرياء ، أو تأذى بذلك نائم أو مصلى ، فإذا لم يخف شيء من ذلك فالجهر أفضل لتعدى نفعه للسامع ، ولفائدته للذاكر فى جمع قلبه وسمعه وفكره ، وللداعى فى بعث همته .

إن الأحزاب والأوراد قد وضعها قوم استنارت ظواهرهم وبواطنهم وألهموا جمع هذه الأدعية فى مجموعات ، جربوها بأنفسهم ، وجربوها فى تربية مريديهم . فآتت ثمارها ، وأنتجت فحول العارفين من أئمة الورع ، وأعلام الطريق ، ووجد فيها المواظبون عليها ما نبه عليه أصحاب هذه الأوراد من آثار ، فقالوا إن حزب الإمام النووى يحفظ قارئه من النوازل ، ومن سطوات أهل الحق ، وإن ورد الستار يقوم مقام الطبيب فى علاج الأمراض القلبية والجسدية ، وإن حزب النصر سيف أهل الطريق ، وإن حزب البحر لما قرىء له ، وإن حزب البر كما قال الإمام الشاذلى رضى الله عنه ، من حفظه فله مالنا وعليه ماعلينا ، وإن ورد السحر هو النور الكلى الذى يغمر من لزمه فى الأسحار حتى يصير نوراكله ظاهرا وباطنا ، وقد أفاض مؤلفه فى بيان أسراره التى لقنها إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم مناما فى مجلد كبير .

وقد اشترط رجال السلوك الصوفى ضرورة الإذن فى قراءة هذه الأوراد لتلك الفوائد ، فإذا قرئت بدون إذن فهى عبادة فحسب .

وقد أذننى سيدى وأستاذى فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الخالق الشبراوى فى نشر هذه الأوراد يستفيد منها من يريد ، وذلك فضل الله ، والحمد لله على كل حال .

ومن أعاجيب هذا العصر أن أشباه المثقفين فيه يتنافرون مع الأدعية المجموعة فى أحزاب وأوراد ووظائف ، كما يتنافر قطبا مغناطيس من جنس واحد ، وكأن الرقاعة التى يحفظونها من أشعار المجون ، وخلاعة الغناء الحديث هى التى ترقى عليها نفوسهم المريضة ، وأهواؤهم الدنسة إلى قمة

الحيوانية الدنيئة ، وخساسة الفوضوية الأولى للإنسان البدائى .

وهذا اللون من الإنسان الرفيع لايستحق أكثر من هذه الصفعة العابرة وإن كنا عليها آسفين .

أماما يؤسف له حقا ، فهو أن نجد بعض من نالوا حظا من التعليم الجامعى كان يصح أن يؤهلهم لنظر فاحص عميق إزاء هذه العبادات التى تعتبر لونا من التربية لايقل شأنا عن التربية الحديثة إن يفقها أثرا ، ولكنهم شاركوا هؤلاء الغوغاء فى أحكامهم العامة على هذه العبادة التى تمت بصلة الدم إلى القرآن والسنة ، وأمثال هؤلاء فى الواقع هم من مرضى النفوس الذين يستحقون الرثاء والعلاج .

أما مرضهم فهو « قابلية الاستعباد » فقد أصبحوا فى حالة من القابلية للاستعباد الفكرى لأعداء القومية الدينية والعربية فأفنوا أنفسهم فى تعقب كل مجيد فى تاريخنا هدما وتجريحا حتى أدموا أدمغتهم الرخيصة فى هذا السبيل دون جدوى .

إن أمثال هؤلاء مثل الضفادع التى تعيش فى مستنقع ماء عفن فى أعماق بئر مهجور ، فإذا ماأخرجناها إلى ظاهر البئر فى حديقة مزهرة أنكرت ماترى لأن جدران البئر قد استغرقت أبصارها وبصائرها ، وأنكرت مايزكم أنوفها من أريج الزهر لأن العفن قد استهواها فلا تشم غيره .

إننا نعيش بين طوائف من المتعلمين يمكن عرضها وتركيزها فيما يلى :

ا) نوع طالب العلم للمماراة والجدل والتفاخر ، وجمع المال ، وكثرة القيل والقال من حوله .

ب) نوع يطلب العلم ليناظر به ، ولا ليطلب به الرياسة ، ولكن ليحفظ الناس اسمه بين علماء عصره ، وليمدح بين أهله وعشيرته متمسكا بالظاهر ، مكتفيا بهذا القدر .

ج) نوع يحل المشاكل المستعصية ويكشف دقائق النقل والعقل ، ويبرع في الجدل لنصرة الشرع ، إلا أنه أخذته العزة على من دونه ، فإذا انتصر غيره للشريعة ، أو عارضه بدليل ، اجتاحته شهوة نفسه . فأفرط في إقامة الأدلة ، والتشنيع على خصمه ، وربما رماه بالكفر والزندقة ، وجاوز الحدود في التشنيع على خصمه وتمزيقه شر ممزق .

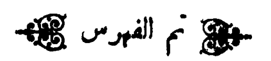
د) نوع طلب العلم لله ، فنصب نفسه لتنبيه الغافلين ، وإرشاد الجهال ، ورد المخالفين وأنكر ما أنكره الشرع ، وقبل ماقبله متجردا من الغرض يرى أن الحسن ماحسنه الشرع وأن القبيح ماقبحه الشرع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

والنوع الأول كما يبدو ظاهر السوء، والثاني محروم من ثمرات العلم لاعبرة بقوله ، والثالث مغرور لايقتدى برأيه ، والرابع عارف نصب نفسه لهداية الخلق واحتمال أذاهم .

ولايجيز الشرع الأخذ بشهادة أحد الأنواع الثلاثة على نوع مثله ، فضلا على عارف جليل ، أفنى حياته ليضع برامج الحياة للأرواح والقلوب .

ولله در أبي عبيدة الخواص حيث يقول : « ماكنت أظن أني أعيش إلى زمن إذا ذكرت فيه الأحياء ماتت القلوب ، وإذا ذكرت الأموات حييت القلوب » ؟

الفهرس


تم الفهرس

تحت الطبـــع :

العبادلة فى الحقائق

بألسنة الأسماء

للشيخ الأكبر محيى الدين عربى

حققه وقدم له

عبد القادر أحمـــد عطا